

شَاكِرْ اِنْ مَعَا صِرَاتِ

ابراهيم طوقان و ابو القاسم الشابي

تأليف

عكف فروف

دكتور في الفلسفة

عضو المجتمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

الطبعة الاولى

بيروت

١٩٥٤

منشورات

المكتبة العالمية ومطبتها

شارع الامير بشير - بيروت

شَاكِرُ اَزْمَحَاصِرَاتِ

اِبْرَاهِيْمُ طُوْقَانُ وَاِبُو الْقَاسِمِ الشَّابِي

تأليف

عُكْرُوْفِي

دُكْتُورٌ فِي الْفَلْسَفَةِ

عُضُوُّ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ فِي دِمَشْقِ

عُضُوُّ جَمْعِيَّةِ الْبَحْثِ الْاِسْلَامِيَّةِ فِي بُوْمْبَايِ

الطبعة الاولى

بيروت

١٩٥٤

مَنْشُورَات

الْمَكْتَبَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَمَطْبَعَتُهَا

شارع الامير بشير - بيروت

٥٤/١٢/٣٠٠٠/١

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

•

ربيع الثاني ١٣٧٤

كانون الاول ١٩٥٤



الاهداء

إلى صديقي وصديق ابراهيم طوقان المستشرق الاستاذ الدكتور

عبدالرحمن نيكل

A (lois) R (ichard) NYKL

لما له من الجهود الطيبة

في البحوث الاسلامية والعربية

فهرست الكتاب

الاهداء

٣

الكلمة الاولى

٩

مصادر هذه الدراسة ومراجعها

ابراهيم طوقان (١٩٠٦ - ١٩٤١)

١٣

ترجمة ابراهيم طوقان

٧٠

خصائص شعر ابراهيم

٨٣

اغاريد الهوى

١٠٤

تجار السياسة والوطن

١١٧

المجاهدون الاول

١٢٢

اناشيد

١٢٨

الموضوعات

ابو القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤)

١٥٢

بيئته العامة

١٥٦

موجزة ترجمته

١٦٣

عناصر شخصيته

١٦٦

خصائص شعره

١٨٩

الغزل عند الشابي

٢٠٠

الطبيعة في شعر الشابي

٢٠٧

السياسة والقومية

٢١٨

الزئاء وما يلحق به

٢٢٤

الموضوعيات

٢٣٨

التأمل في الحياة

٢٥٤

الفهرست الابداعي

شاعران معاصران

كان من حق هذا الكتاب ان يظهر منذ نحو سنتين ، ولكن لم يقدر له ذلك إلا اليوم .
وكم من كتاب بدالي ان اكتبه وأعلنت عنه ثم مرت السنوات الطوال من غير أن
أستطيع أن أبرّ بوعدى . ومثلي في ذلك ايضاً مؤلفون كثار ارادوا ان يضعوا كتباً فشغلتهم
الدنيا او حالت دون تحقيق إرادتهم المنون او مرت الليالي سراعاً حتى اصبح ما كانوا يظنون
ان الناس بحاجة ماسة إليه نَفلاً لا حاجة إليه ابدأ . وكم في ضمير الانسانية شعوب ومدنيات
وهياكلَ كان يجب ان تزدهر ثم لم تفعل لأن طريق الانسانية لم يكن مُعبداً لها ولا
كانت الأحوال مؤاتية لازدهارها .

إن الارادة عنصر إنساني نبيل لأنها مظهر من مظاهر الحياة الانسانية العاقلة ؛ ولكن
الارادة وحدها قلما افادت صاحبها غير التعلل بأوهامه زمنياً . إن المهم في الحياة العملية
الواقعة هو العمل ، ولعلنا من الناحية العملية نقدر على الشيء ثم نريده . اما إرادته وحدها
- أي ارادة القيام بعمل ما - فليست سبيلاً الى القدرة عليه . إننا نرى في الحياة ان ارادة
الافراد والشعوب والامم تتأخر احياناً زمنياً طويلاً حتى يصبح بمقدور الافراد والشعوب
او الأمم ان يحققوا ارادتهم؛ عندئذ تبرز ارادتهم بروزاً يمكنهم من ان يتخذوا لأنفسهم مكاناً
في موكب التاريخ .

ان طريق البشرية مخطوط في صفحة هذا العالم ولكن تحفّ به احوال كثيرة . وعمل

الانسان ليس بتبديل الطريق بل اغتنام الفرص للاسراع في قطع تلك الطريق او لتسهيل قطعها عليه . اما الارادة التي تبدل وجه التاريخ فهي الارادة التي يسبقها الفكر وإدراك الأحوال المحيطة بطريق الانسانية . وحينما تصبح للانسان قدرة على تحقيق ارادته ، فحينئذ فقط يصبح لارادته قيمة .



يتناول هذا الكتاب شاعرين معاصرين لنا ، كانا من احياء النصف الأول من القرن العشرين . ووجه القران بينهما في كتاب واحد كثرة أوجه الشبه في حياتهما الخارجية وفي معظم شعرهما :

لقد عاشا كلاهما في فترة قريبٍ احدُ طرفيها من الآخر : 'ولد ابراهيم طوقان قبل ابي القاسم الشابي بأربع سنوات ، ولكن توفي بعده بسبع سنوات . وكذلك حمل كل واحد منهما مرضاً خطيراً ثم قطع به شوط الحياة من غير ان ينقص ذلك من مقدار انتاجه الوجداني او من قيمته شيئاً ؛ بل لعل هذ المرض الخطير قد أذكى في نفس صاحبيننا كليهما جذوة الشاعرية . ولعل من أبرز تشابه حياتهما الخارجية ان كل واحد منهما اشتد مرضه في اواخر ايامه فنقل الى مستشفى اجنبي في عاصمة بلاده ثم توفي فيه فنقل في اليوم التالي الى مسقط رأسه ليحتفل آله وصحبه بدفنه : توفي الشابي في المستشفى الايطالي في تونس العاصمة ، وفي اليوم التالي نقلت جثته الى مسقط رأسه الشابيّة . وتوفي ابراهيم طوقان في المستشفى الافرنسي في القدس ثم نقل جثمانه في اليوم التالي الى نابلس .

اما في الشعر فكلاهما امتاز بقريحة فياضة وبنفحة شعرية عامرة بالقوة، وكلاهما توفّر على الغزل والوطنية عازفاً عن فنون التكسب من مديح ورتاء ومآلثة . ولا ريب في انهما كليهما تركا في قوميتهما خاصة وفي العرب عامة اثرأ بارزاً .

على ان بين الشاعرين ايضاً أوجه خلاف اساسية او غير اساسية ، ولكن هذه هذه الأوجه من الخلاف إنما هي ايضاً سبيل من سبل الموازنة :

جاء ابراهيم طوقان من أدنى الجناح الأيمن الشرقي للعالم العربي ، من فلسطين .

وجاء الشابي من أدنى الجناح الأيسر الغربي للعالم العربي ، من تونس . وكما ان الاستعمار الافرنسي ما زال يرهق تونس منذ نحو سبعين سنة، منذ عام ١٨٨١ للميلاد، فان الاستعمار الانكليزي لم يحتج الى اكثر من ربع قرن حتى يقضي على عروبة فلسطين . فاذا ظهر شيء من الخلاف في حياة ابراهيم طوقان وحياة الشابي ثم في شعرهما فانما مرد ذلك الى الاختلاف في حال وطنيهما .

وكان الشابي شقياً في زواجه بينما كان ابراهيم طوقان هائتاً في زواجه مطمئناً . من اجل ذلك اندفع الشابي بعد زواجه الى الزلل في موطن الهوى بينما زواج ابراهيم طوقان كان منقذاً له من الزلل القديم وعاصماً له من كل زلل مقبل .

وامتلاً شعر ابراهيم طوقان بالامل - على الرغم مما كان يرين عليه احياناً من مظاهر التشاؤم والخوف على مستقبل وطنه . اما الشابي فكان شاعراً متشائماً يائساً يحاول ان يزيّن شعره احياناً بشيء من روح الامل والتفاؤل . إلا انه كان متقلّباً بين الامل واليأس، وكان اليأس عليه اغلب .

اما انا في هذا الكتاب فعارض لا موازن: انني اعرض على القارئ ما عرفت من حياة هذين الشاعرين وما ادركته من خصائص شعرهما . ولكنني لن آخذ نفسي بالموازنة بين شعرهما ولا بالتعرض لتفضيل بعضهما على بعض لأن ذلك يقتضي ان يزيد حجم هذا الكتاب زيادة كبيرة فضلاً عن ان المفاضلة بين شاعرين مثل اللذين نحن بصددهما غير ذات جدوى كبيرة . ولعل قارئ هذا الكتاب سيأخذ علي انني كنت اكثر تبسطاً وتدقيقاً في دراسة حياة ابراهيم طوقان وشعره مني في دراسة حياة الشابي واشعاره . ان سبب ذلك ظاهر .

ان ابراهيم طوقان اخي وصديقي عشت واياه ست سنوات في بلدي بيروت وسنة في بلدته نابلس وسنة في بغداد ثم كانت بيننا في اثناء ذلك مراسلة لم تنقطع منذ ان عرفته عام ١٩٢٣ الى الشهر الذي سبق وفاته، نيسان ١٩٤١ . ولا تزال رسائله كاملة بين يدي اقلها وانا اضع هذا الكتاب . وكذلك كان بين يدي ، وانا اضع هذا الكتاب ، مجموع شعره بخط يده او بخط اخيه الاستاذ احمد طوقان منقولاً عن نسخة بخط يده هو .

اما الشابي فلم اعرف سوى بعض شعره وبعض ما كتب عنه ، ولا يزال لدي مشاكل
كثار في حياته واشعاره لم استطع حلها . واذا كان بعض شعر الشابي المعروف مفروقاً
فريقين : فراقاً قاله الشاعر قبل ان يبلغ العشرين وفراقاً قاله بعد العشرين، فان قصائد ابراهيم
طوقان مؤرخة لدي بالعام والشهر واليوم احياناً . حتى ان هنالك قصائد اعرف تطور
نظمها من خطه هو في رسائله إلي او في دفاتره التي دون فيها اشعاره ، اضف الى ذلك
اني اعرف الملابس التي احاطت بمعظم قصائده .

ومع ان الشابي اليوم اشهر في العالم العربي من ابراهيم طوقان ، فان الذين درسوا
ابراهيم طوقان وشعره كانوا احسن تقيداً بالبحث العلمي وابرع في استخراج خصائصه
الفنية ، فالطريق الى دراسة شعر ابراهيم طوقان احسن تمهيداً من الطريق الى شعر الشابي .
ولقد كنت انا دائماً اشعر ان دراسة شعر ابراهيم طوقان واجب ملقى على عاتقي ،
لأنه صديقي فحسب ، بل لأنني - بما لدي من رسائله وبما اعرفه من حياته الجدية وبما
كان يفضي اليه من سريرة نفسه - اجدر من يتصدى لذلك ، على الرغم من اعتقادي بان
ثمت عقبات كثيرة تعترض سبيلي دون الوصول الى الكمال في ما ارجوه وما اتعرض له .



اما الشابي فاني لا ازال اعتقد انه شاعر مهمل ، ذلك لأن الذين درسوا حياته
وأثاره انما حرصوا على ان يروا مظاهره الخارجية ، انهم لم يحاولوا ان يستنطقوا الشابي
ترجمة حياته - كما فعلت انا في ترجمة ابراهيم طوقان - ولا ان يستخرجوا خصائصه
الفنية واضحة متحيزة . وليس الذنب كله في ذلك على الدارسين ، بل على الشاعر نفسه ايضاً ،
ذلك لأن الشابي شاعر خيالي ميال الى الغموض والرمز ، بينما ابراهيم طوقان شاعر ، على
تجديده في المعنى والاسلوب ، احسن سيراً على عمود الشعر العربي .



ومن أوجه الخلاف في عناصر الشخصية بين الشاعرين ان ابراهيم طوقان كان يتقن

اللغة الانكليزية ويعرف الادب الانكليزي معرفة صحيحة وكان له اطلاع واسع على آثار اصحاب المذهب الوجداني (الرومانتيكي) امثال كولريديج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) وكيثس (١٧٩٥ - ١٨٢١) وشيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) وبيرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) . وكذلك كان له إلمام يسير على كل حال بالفرنسية من تعلمه في الجامعة الاميركية . ويبدو انه كان يعرف شيئاً يسيراً ايضاً من التركية^١ كما انه حرص مدة على تعلم الالمانية وكتب لي ذات يوم رسالة بهذه اللغة تبلغ نحو صفحة^٢ . ثم انه تعلم بضعة دروس من اللغة الاسبانية^٣ . اما الشابي فلم يعرف إلا العربية . ومع ان الشابي قرأ كثيراً - كما يقال - من النقول العربية عن اللغات المختلفة ، فان الثروات الادبية الحقيقية في هذه اللغات كانت مغلقة في وجهه . فتذوق الادب لا يقوم على قراءة الافكار المنقولة ولكنه يقوم على تفهم الاجواء الادبية والثقافية والشعبية التي تنشأ فيها افكار الاديب وعلى ادراك خصائص الاساليب التي تجري فيها آداب الامم .

ومن أوجه الخلاف ايضاً ان ابراهيم طوقان نال ثقافة جامعية عصرية تامة ، وكان اثر هذه الثقافة يظهر جلياً في شعره ، بينما هذا الجانب مفقود عند الشابي . ومن ذلك ان الشابي أغرق في الاعجاب بادباء المهجر بينما كان ابراهيم طوقان اكثر توفراً على مطالعة شعر شوقي وحافظ والبارودي من الشعراء المعاصرين لنا ، ثم على شعراء العصر العباسي خاصة كأبي نواس والعباس بن الاحنف والبحرتي وابن المعتز وسبط ابن التعاويني ، فلا غرو إذن إذا اختلف شعراهما مادة وبناءً .

وتقلب ابراهيم طوقان في مناصب مختلفة من التعليم الى الادارة البلدية الى الصناعة والتجارة الى الاشراف على مناهج الاذاعة فاستطاع من هذه السبل في الحياة ان يحتك

(١) الدفتر ١٩٣٣ ، ص ٢٠

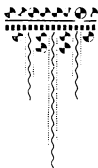
(٢) رام الله ، ؟ تموز ١٩٣٥ ؛ ؟ ، ١٧ تموز ١٩٣١ ؛ رام الله ، ٣ ايلول ١٩٣١ .

(٣) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ راجع القدس ، ؟ آب ١٩٣٢ .

بالناس وأن يعرفهم وأن يعرف الحياة نفسها معرفة صحيحة . ولا اعلم إذا كان الشابي قد
تقلب في مناصب مشابهة او انه قد تقلب في مناصب ما .



ومع هذا كله فان مقارنة شعر الشابي بشعر ابراهيم طوقان يجب ان تنكشف عن
اشياء مثقفة وطريفة في وقت واحد ، ذلك لمن أراد ان يقوم بمثل هذه الموازنة . ولا ريب في
ان كلا الشاعرين عبقرين ، وإن كانت عبقرية كل واحد منهما تشق طريقاً خاصاً بها .



مصادر هذه الدراسة ومراجعتها

١ - مراجع عامة لا اشارة فيها الى ابراهيم طوقان ولا الى ابي القاسم الشابي ولكن فيها مبادئ ومعلومات ضرورية لتفسير بعض شعرهما او بعض احوالهما :

مقدمة ابن خلدون : الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر الخ . تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠ .
الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، تأليف ابن الطقطقي ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، بلا تاريخ .

موجز تاريخ البلدان العراقية ، تأليف السيد عبد الرزاق الحسيني ، الطبعة الثانية ، مطبعة العرفان ، صيداء ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

ابو تمام ، تأليف عمر فروخ ، بيروت ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ .
ابو نواس (دراسة ونقد) ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م .

ابو نواس (مختارات) للدكتور عمر فروخ ، بيروت ، ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ .
وحدي مع الأيام ، مجموعة شعر ، نظم فدوى عبدالفتاح طوقان ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

المشرد ، شعر ، نظم ابي سلمى عبدالكريم الكرمي ، مطبوعات المكتبة الكبرى للتأليف والنشر ، دمشق ١٩٥٣ .

Penrose = **That They May Have Life**, By Stephen B.L. Penrose, New York 1941.
A U B Directory = The American University of Beirut, Directory of Alumni 1953, Beirut 1953.

شبح الأندلس (مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومعركة جنين الكبرى) تأليف برهان الدين عبوشي (بيروت) ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .

(١) في هذا الكتاب اشارة الى ابراهيم طوقان .

اقاصيص ، تأليف عبد الحميد ياسين ، المكتبة العصرية ، يافا ١٩٤٦ .
 خلاصة تاريخ تونس ، تأليف حسن حسني عبد الوهاب ، الطبعة الثالثة ، نشرتها دار
 الكتب العربية الشرقية ، تونس ، ١٣٧٣ هـ .
 رمزي - الاستعمار الفرنسي في شمالي افريقية ، تأليف احمد رمزي ، القاهرة
 ١٣٦١ هـ = ١٩٤٨ م .
 القضية التونسية - نص الخطاب الثلاث التي ألقاها الأستاذ احمد شاه بخاري بمثل باكستان
 في مجلس الأمن بتاريخ ٤ و ١٠ و ١٤ ابريل (نيسان) ١٩٥٢ .

Tunisian Question — The Tunisian Question in the United Nations (the text of
 the Statement by Prof . Ahmad S. Bokhari, Pakistan Permanent Representa-
 tive in the Security Council on April 4, 1952).

٢ - مراجع فيها آراء في الشاعرين او اشعار لهما :

الرسالة (مجلة اسبوعية) ، القاهرة .
 الامالي (مجلة اسبوعية تبحث في الثقافة) ، بيروت .

★

العوامل الفعالة في الادب العربي ، تأليف الاستاذ انيس المقدسي ، (الحلقة الخامسة عشرة
 من سلسلة العلوم الشرقية للجامعة الاميركية في بيروت) ، القاهرة ١٩٤٩ .
 الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، تأليف الاستاذ انيس المقدسي ،
 جزءان (الحلقة الثانية والعشرون ^١ والثالثة والعشرين من سلسلة العلوم الشرقية
 للجامعة الاميركية في بيروت) الجزء الاول بلا تاريخ ^٢ ، الجزء الثاني ١٩٥٢ .

٣ - مصادر فيها آراء في ابراهيم طوقان خاصة او اشعار له :

ديوان ابراهيم طوقان ، اختاره ابراهيم طوقان نفسه قبل موته (لم ينشر بعد) .
 دفاتر ابراهيم ، ثمانية دفاتر كان يدون فيها ابراهيم طوقان اشعاره . في هذه الدفاتر اشعار
 ضم بعضها الى الديوان الذي أعده ابراهيم بنفسه وأغفل بعضها وخصوصاً ما كان في
 المهجاء والمجون . وهذه الدفاتر لا تضم كل ما قاله ابراهيم من الشعر .
 رسائل ابراهيم طوقان الى عمر فروخ من ١٩٢٤ - ١٩٤١ . يكون الاستشهاد بهذه
 الرسائل في هذه الدراسة بذكر اسم البلد الذي كتبت فيه الرسالة: نابلس ، القدس ،
 عمان ، بيروت ، متبوعاً بتاريخ الرسالة .

(١) على هذا الجزء : الحلقة الحادية والعشرون ، وهو خطأ مطبعي .

(٢) على هذا الجزء تاريخ هو ١٩٤٩ ، ولكنه طمس عمداً لان صدور ذلك الجزء تأخر عن ذلك .

- مذكرات عمر فروخ ١٩٢٤ - ١٩٢٥ .^١
- اخى ابراهيم ، تأليف فدوى عبد الفتاح طوقان ، المكتبة العصرية ، يافا ١٩٤٦ .
- الاحد (مجلة اسبوعية) ، دمشق .
- الاحرار (جريدة يومية) ، بيروت .
- الاحرار المصورة (مجلة اسبوعية) ، بيروت .
- الاقدام
- بيروت (جريدة يومية) ، بيروت .
- الجامعة الاسلامية (جريدة يومية) ، يافا .
- الجامعة العربية (جريدة يومية) ، يافا .
- الجزيرة (جريدة يومية) ، يافا .
- الحياة الجديدة (مجلة) صاحبته حبوبة حداد ... (تشرين الثاني ١٩٢٤ وآذار ١٩٢٥)
- الدفاع (جريدة يومية) ، يافا .
- الشوري (جريدة يومية) القاهرة (العدد ٣٨ ، ١٦ يوليو (تموز) ١٩٢٥ .
- صوت الشعب (?) العدد ١١٥ وعدد آخر تال .
- العهد الجديد (جريدة يومية) ، بيروت (النصف الثاني من ايلول ١٩٢٩) .
- فلسطين (جريدة يومية) .
- الكلية (مجلة شهرية تصدر في الجامعة الاميركية في بيروت) .
- لسان الحال (جريدة يومية) ، بيروت (١٩٢٩) .
- مجلة سر كيس (شهرية) ، القاهرة .
- مرآة الشرق (مجلة شهرية) ، روى جانبرو ، البرازيل (١٩٣٠) .
- المعرض (مجلة اسبوعية) ، بيروت .
- المفيد (جريدة يومية) ، دمشق (٢٤ مايس / ايار ١٩٢٥) .
- المنتدى (مجلة ثقافية اسبوعية مصورة) يصدرها مكتب المطبوعات في القدس بالاشتراك مع القسم العربي من دار الاذاعة الفلسطينية - القدس .
- الروادي (مجلة اسبوعية سياسية) ، بغداد .
- ٤ - مصادر فيها آراء في ابي القاسم الشابي خاصة واشعار له :

(١) هنالك معلومات غير مدونة ، رجعت فيها الى ذكرياتي والى ذكريات الاستاذ احد عبد الفتاح طوقان ،

اخى ابراهيم .

- السنوسي : الادب التونسي في القرن الرابع عشر (الهجري) ١ ، تأليف زين العابدين السنوسي ، الجزء الاول ٢ ، الطبعة الاولى ، تونس ١٣٤٦ هـ ٣ .
- فهمي : الروائع لشعراء الجبل ، تأليف محمد فهمي ، الجزء الاول ، لجنة التأليف والترجمة الحديثة ، القاهرة (بلا تاريخ) .
- الشابي : حياته ، شعره ، تأليف ابو القاسم محمد كـرّو ، منشورات المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٥٢ ، هذا الكتاب هو في الحقيقة مجموع لشعر الشابي فيه نحو ١٤٠٠ بيت ، وفيه مقدمة مفصلة في حياة الشابي وخصائصه (وقد اعيد طبعه ١٩٥٤) .
- الاديب (مجلة شهرية) ، بيروت .
- الاسبوع : (مجلة اسبوعية جامعة حرة) يصدرها في تونس الاستاذ نور الدين بن محمود ٤ .
لدي من هذه المجلة اعداد متفرقة فيها اشياء عن الشابي .
- المكشوف (مجلة اسبوعية) ، بيروت .
- الهلال (مجلة شهرية) ، القاهرة .



-
- (١) يبدأ القرن الرابع عشر الهجري في ١٢ تشرين الثاني ١٨٨٢ .
- (٢) هذا الجزء موسوم هكذا : مجموعة بلاغة العرب في تونس ، الحلقة الاولى ؛ الادب التونسي في القرن الرابع عشر ، قسم المنظوم .
- (٣) ١٩٢٦ - ١٩٢٧ م .
- (٤) يصدر الاستاذ نور الدين بن محمود مجلة شهرية اسمها « الثريا » نشر فيها - على ما يبدو - اشياء كثيرة للشابي وعنه . ولكنني لم أر هذه المجلة .

ترجمة ابراهيم طوقان

آل طوقان

ان الكلام على الانساب لا يدل على شيء كبير في الدراسات الادبية والعلمية على الاخص . فليس احد منا اليوم يستطيع ان يذكر عمود نسبة تثبتاً و يقيناً ، فالانساب قد وقع فيها الاختلاط والنسيان والدعوى ^١ . حتى لو قال قائل إنه ما من انسان يعرف حقيقة نسبه بعد اجداده الاقربين لصدق . ثم ان الانسان لو عرف عمود نسبه بشيء من التثبت والايقان لما دل ذلك على اتجاه ادبي او علمي معين . ان البشر يرثون ، من طريق الولادة ، خصائصهم الجسمانية ، اما خصائصهم الادبية والاجتماعية فيتناولونها من بيتهم ومن احتكاكهم بالارض وبالناس .

على ان كلمة موجزة في آل طوقان وخصومهم آل عبد الهادي قد تنير لنا سبيلاً من السبل في دراسة شعر ابراهيم .

اسلاف ابراهيم

يرجع نسب آل طوقان - فيما يقال - الى بطن من بطون العرب الموالي يعرفون بالحياريين . وهؤلاء بدو لا يزالون الى اليوم ضاربين خيامهم في غرب بادية الشام بين حمص وحماة . واذا كان ذلك كذلك فيجب ان يكون آل طوقان فرعاً من آل طوق الذين كانوا نازلين في تلك النواحي والذين مدحهم ابو تمام ^٢ .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ١٢٨ - ١٣١ .

(٢) راجع ابو تمام للدكتور عمر فروخ ص ٧٧ ، ٧٩ .

وفي اواسط القرن التاسع للهجرة والرابع عشر للميلاد كانت الشام ومصر في حكم المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) وكان يسودهما شيء كثير من ضعف الادارة ومن الفوضى . ويبدو ان « آل طوقان » لم يكونوا مسرورين من مقامهم في منطقة حمص على طريق الغزوات المغولية عبر العراق الى الشام وآسية الصغرى ، ولا كانوا - فيما يبدو - على اتفاق مع المماليك ، كما سنرى ، فحملوا ائقالمهم واتجهوا جنوباً ليرتادوا لهم منزلاً اهدأ وابتعد من قبضة المماليك العنيفة . وهكذا استقروا في نابلس وتحضروا وانشأوا الدور والبساتين بعد ان نزلوا كلهم في تلك البلدة متقاربين متجاورين . ولعل ذلك كان منذ خمسة قرون او نحوها .

ولما جاء الفتح العثماني (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) كان قد انقضى على مجيء آل طوقان الى نابلس نحو جيلين من الدهر . ولقد مال آل طوقان الى الاتراك فوالوهم هم واحلافهم بنو الجرّار ثم ثبتوا على هذا الولاء ، مما يوحي بان صلاتهم الاولى بالمماليك كانت غير ودية . من اجل ذلك لم يكن مستغرباً ان يدخل بعض آل طوقان في جيش الانكشارية^١ . وقد كان من هؤلاء ابراهيم آغا الشرجي الذي ينتمي اليه فرع ابراهيم .. ولقد ظل هذا اللقب « آغا » متوارثاً في هذا الفرع ، وكان آخر من حرص على التلقب به والد ابراهيم ، عبد الفتاح آغا طوقان .

وكذلك كان من المنتظر ان يقف آل طوقان واحلافهم آل الجرّار - في اثناء حملة ابراهيم باشا على الشام^٢ - الى جانب العثمانيين وان ينحاز خصومهم آل عبد الهادي ، اصحاب قرى جنين (شمالى غربى فلسطين) الى ابراهيم باشا . عند ذلك قرب ابراهيم باشا آل عبد الهادي وعين منهم ولاة على صيداء ايضاً . اما آل طوقان فاضطهدهم ابراهيم باشا ونفى بعضهم الى مصر ، ثم هرب بعضهم الآخر في البلاد ولم يبق منهم في نابلس إلا

(١) بيتي شرمي (شهرى) : المواطن الجديد (الجنود الاحداث) ، كانوا يؤلفون الجيش المحترف الذي استبد بالامور السياسية فيما بعد حتى استطاع السلطان محمود الثاني ان يقضي عليهم .

(٢) من سنة ١٢٤٧ - ١٢٥٦ للهجرة (عام ١٨٣١ - ١٨٤٠ م) .

الاحداث ... ومنذ ذلك الحين برزت العداوة بين الاسرتين - آل طوقان وآل عبد الهادي - ثم استمرت الى ان رتق منها ابراهيم نفسه فتقاً يسيراً لما تزوج في آل عبد الهادي .
 اما احوال ابراهيم فهم آل عسقلان من نابلس ومن المتصلين بآل طوقان بالمصاهرة من قبل . كان آل عسقلان هؤلاء من المواليين للعثمانيين ، كآل طوقان ، ومعن المعروفين بالشجاعة والفروسية فخدموا الدولة العثمانية في الجندية والشرطة وفي الدرك الفرسان ، وجميع احوال ابراهيم كانوا اما في الشرطة او في الدرك .

وتزوج عبد الفتاح آغا ١ ابنة خاله فوزية ٢ بنت امين عسقلان ورزق منها عشرة اولاد هم على التوالي احمد و ابراهيم و بندر ٣ وفتايا ٤ و يوسف ورحمي ٥ وادبية و فدوى ٦ ونمر وحنان ٧ ، وقد ولدت عام ١٩٢٧ .

ونابلس التي ولد فيها ابراهيم وقضى شطراً يسيراً فقط من حياته مدينة محافظة ، بل موغلة في المحافظة ، ولذلك كانت البيئة الاجتماعية فيها مغلقة تفرض على اهله قيوداً لا تفرض عادة على اهل البيئات المطلقة . وأبرز خصائص البيئات المغلقة أن لأهلها فضولاً

(١) ولد سنة ١٢٩٢ هـ (عام ١٨٧٥ م) وتوفي ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) .

(٢) ولدت سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) .

(٣) بندر في الاصل من اسماء الصبيان عند البدو وقد اطلقه عبد الفتاح آغا على فتاة .

(٤) فتايا اسم فتاة وهو من الاسماء المعروفة بين البدو ايضاً .

(٥) رحمي من اسماء الصبيان وهو صيغة تركية مثل شوقي وصبري ورمزي وقصري . ولكن ابراهيم يريد

ان يجعله صيغة عربية فيضطه بالياء المشددة ، اي ياء النسبة (راجع نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩) .

(٦) فدوى (ولدت نحو سنة ١٣٣٤ هـ او عام ١٩١٤ م) وقد توسم فيها ابراهيم تذوقاً للادب فمني

بها عنابه خاصة فاصبحت ادبية شاعرة لها كتاب « اخي ابراهيم » (باقا ١٩٤٦) ومجموع شعر « وحدي مع

الايام » مصر ١٩٥٢ . وكانت فدوى تتولى تحويل رسائل ابراهيم الواردة الى نابلس اليه حيث يكون ، وقد

ارسلت اليه مرة رسالة الى نابلس وكان هو في القدس ، فارادت تحويلها فاططأت وكتبت « الجامعة العربية »

مكان الكلية العربية . والجامعة العربية جريدة كان القائمون عليها لا يمحون مودة لبراهيم فضاعت الرسالة

(نابلس ١٣ اذار ١٩٣٤) ولما نشرت دراسة « ابو تمام » (بيروت مطلع ١٩٣٥) اهديت الى ابراهيم

نسخة فكتب الي يقول : كتاب « ابو تمام » هدية فاخرة ... شقيقي فدوى تقرأه الآن ، فاذا اتت من

قراءته اقرأه انا ... (نابلس ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥) . وخط فدوى يشبه خط ابراهيم شهماً كبيراً .

(٧) اقترح ابراهيم تسمية اخته هذه « جنان » بالجيم المكسورة . وحنان اسم فتاة يردي في شعر ابني نواس .

غير ان الذين كانوا ينادون جنان كانوا يسكنون الجيم او يرفون الاسم تحريفاً آخر فجعل ابراهيم الاسم

حنان ، وهو اقل خضوعاً للتحريف من جنان .

شديداً في تسقط بعضهم لأخبار بعض ولا انتقاد بعضهم بعضاً على أيسر الامور وعلى أقل السلوك شذوذاً عن مألوف العامة . ومثل هذه البيئات لا توافق اصحاب العبقريات . ثم هي مقلقة ايضاً للحياة العادية المألوفة . كان ابراهيم يقول لي : ما أشد الحياة في نابلس ! ان الانسان لا يكاد يعمل في نابلس شيئاً حتى يعرف به كل إنسان . ثم يقول : ان نسبة المتعلمين في نابلس اعلى منها في جميع المدن الفلسطينية ، ومع ذلك فليس في نابلس جريدة . ذلك لأن الاخبار تنتشر في نابلس قبل ان يتاح للجرائد ان توزعها على الناس ^١ .

وبيت طوقان في نابلس بيت جاه وغنى وكرم وشيء من الاقطاعية النيرة . على ان عبد الفتاح آغا قد ربي اولاده على شيء كثير من الحرية والانطلاق ، وكان رجلاً عاقلاً يصارح اولاده بكثير من شؤونهم التي يفضل آباء كثيرون ان يكتُمونها عن اولادهم . ولو كان أتيح لك ان تشهد عبد الفتاح آغا سائراً مع احد اولاده او جالساً يحدثه لتولك العجب من روح المنطق ، وحسن المباشرة ومدى الاحترام « للشباب الناشء » مع عطف ابي نادر وتفهم بالغ للزمان المقبل الذي سيعيش فيه ابناؤه . وكانت معاملته المادية والمعنوية لأولاده مثالية سمحة .

وأما احمد ، والدة ابراهيم ، امرأة برزة تبشر امورها بنفسها . وهي تتصف بكثير من الذكاء الفطري ومن المرح اللذين انتقلا الى اولادها . وخصوصاً ابراهيم . وهي ايضاً ، كزوجها ، تفهم حاجات الجيل الناشء من اولادها وتدرك وجوب قيام التربية على اساس من العقل الى جانب الحنان والرعاية . من اجل ذلك نشأ جميع اولادها نشأة صحيحة نافعة : فأحمد عالم رياضي ، و ابراهيم اديب شاعر عبقري ، ويوسف لا يقل في نشاطه العملي ومقدرته التجارية وإشرافه على الاعمال الزراعية عن ابراهيم وأحمد في فنيهما . اما حسن رحمي ^٢ ،

(١) وللى الآن لم تنشأ في نابلس جريدة !

(٢) لآل طوقان في نابلس مصبنة كبيرة ، وكذلك لآل الشكمة مصبنة مثلها . وكان لآل الشكمة « ماركة مسجلة » على صابونهم هي « صابون حسن نابلسي » على اعتبار حسن نعت بمعنى جيد ، ونابلسي نسبة الى مكان الصنع . وراجت هذه « الماركة » رواجاً كبيراً وخصوصاً في مصر . ورأى عبد الفتاح آغا ان يستفيد من السوق فلما ولد ولده السادس وكان صبياً سباه حسن رحمي ثم دمغ صابونه بالماركة « صابون حسن نابلسي » وأقام آل الشكمة الدعوى على عبد الفتاح آغا ، ولكن عبد الفتاح آغا ربح الدعوى لما نذر عمله بأنه جعل هذه الماركة لابنه : « صابون حسن » . فلما قيل له فكيف اضفت لفظة نابلسي ؟ فقال ، أوليس ابني نابلسي من نابلس ؟

أو الحاج رحمي ، الذي لم يستطع ان يبرع في العلم قط ^١ ، فانه رجل جلد يحمل التبعة ويستقل بها. وقد كان له فضل كبير على الاهتمام بشؤون ابراهيم في نابلس وفي بغداد وفي بعض اسفاره الاخرى ، كما انه رافق والده الى الحج وحج معه وأحاطه بعناية رفيقة قديرة . اما نمر فهو طبيب ذكي واسع الادراك عظيم المرح . اما في البنات فان فدوى اديبة حسيمة ، وكان شعرها يبشر بمستقبل عظيم لولا ارتدادها الى الرمز والمبالغة فيه احياناً . انها شاءت ان تتخلي عن مئانة اسلوبها ونضج موضوعاتها ، اللذين لا يتفقان إلا للقليلين ، لتتخذ لشعرها طابعاً رمزياً لا يكاد يعجز عنه اليوم فتى او فتاة ينظمان شعراً . لقد كنا نجد في شعرها الاول « نَفَس » ابراهيم ثم أرادت ان تلج بشعرها هذا أفق الغموض لتعبر عن نفس مكبوتة قلقه وعن قلب حائر عاجز . لقد تركت شعرها الذي كان يوحى بالعزة لتتبدل به اشطراً تستجدي بها العطف .

مولده ونشأته الأولى

ومع ان ابراهيم ينحدر من اسرتين عرفتا بصحة الاجسام وقوتها ، ومع ان اخوته وابناء اعمامه يتمتعون بأجسام فيها صلابة وقوة ^٢ ، فانه نشأ ضعيفاً مهزولاً عليلًا يشكو عدداً من الامراض . ومرد ذلك في علم الطب الى عوامل كثيرة متمازجة ، إلا ان ابراهيم نفسه يجب ان يرد سبب ضعفه الى عامل معين ، قال في احدي رسائله ^٣ :

« واما المرض فهو كالعمر والرزق والتوفيق والفشل ^٤ في هذه الحياة يُسير الانسان فيها ولا يخير ويلاقى حظه معها إما سيئاً وإما حسناً . وأنا من بين اخوتي الباقين (وعددهم تسعة) حملت بي الوالدة ام احمد إثر مرض خطير كان اشرف بها على الموت . فكنت انا

(١) نابلس ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) كتب يوسف ، اخو ابراهيم ، مرة لي فقال (بيان) ، ٢٠ القعدة ١٣٥١ ، ١٨ مارس - اذار - ١٩٣٣) : « اما صحتي فالحمد لله من نوع « وأنا له الحديد » (القرآن الكريم ، سورة سبأ - ١٠ : ٣٤) .

(٣) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

(٤) المفلوح انه يقصد الحية في مقابل التوفيق ، ولكنه قال « الفشل » للدلالة على الحية وهو خطأ شائع . ومعنى الفشل الضعف .

في احشائها عندما كانت هي في دوز النقاها واعضاء جسمها وقوتها بوجه العموم ضعيفة ...
فجئتُ (مركباً) على مرض وضعف ...»

ولد ابراهيم سنة ١٣٢٣ للهجرة (١٩٠٥ م) في مدينة نابلس في الجو الذي وصفناه
قبل قليل (ص ١٥-١٦). ويبدو انه كان يتمتع بعطف خاص لضعفه وهزال جسمه ،
وهذا امر مألوف في حياة الاسر كلها . ووافق طفولة ابراهيم شيخوخة جده لأبيه داوود
آغا (ت ١٩١٩) الذي كان يتعهده كلما عاد من المدرسة الى البيت بالاستماع الى ما تعلمه في
صدر النهار ، او انه كان بهذا العمل يسرّي عن نفسه فقط . وعلى كل فان ابراهيم قد
استفاد من ذلك استفادة كبيرة في طبع شخصيته وتوجيهه وجهة ادبية .

وتلقى ابراهيم دروسه الابتدائية في المدرسة الرشادية الغربية ، في الجانب الغربي من
نابلس ، طوال سني الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . ولعل وجود مدرسين في
تلك المدرسة من امثال الشيخ ابراهيم ابي الهدى الخماش والشيخ فهمي هاشم من الذين
كان لهم صلة بأل طوقان قد خص ابراهيم بعناية . على انه لم يكن من المنتظر ان تتناول هذه
العناية شيئاً أكثر من الثقيف بالأدب العربي . وتلك كانت ثروة التعليم كلها في ذلك الحين .

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى ونزل الاحتلال البريطاني بفلسطين انتقل ابراهيم
فجأة الى بيته مطلقاً ، الى القدس ، ودخل مدرسة المطران تلميذاً داخلياً بعيداً عن رقابة
اهله إلا قليلاً ، لوجود اخيه احمد في ذلك الحين تلميذاً في الكلية الانكليزية . في هذه الفترة
عرف ابراهيم - من طريق اخيه احمد - الاستاذ نخله زريق (ت ١٩٢٠) معرفة يسيرة ،
ولكنها معرفة متسقة في اتجاهها مع ما عرفه من الشيخين الخماش وهاشم ، نحو
الادب العربي .

وفي تشرين الاول من عام ١٩٢٠ انتقل احمد الى الجامعة الاميركية في بيروت
وبقي ابراهيم وحده في مدرسة المطران وقد انقطعت كل رقابة عليه - هذا إذا كنا نعد
وجود شباب في السابعة عشرة من عمره قرب اخ له يصغره بعامين رقابة - . والجدير

بالذكر هنا ان ابراهيم لا يذكر مدرسة المطران من الناحية الاخلاقية بالخير ابداً^١ . ثم بعد ان قضى ابراهيم اربعة اعوام في مدرسة المطران (١٩١٩ - ١٩٢٣) غادرها وله من العمر ثمانية عشر عاماً الى الجامعة الاميركية حيث قضى ستة اعوام آخر (١٩٢٣ - ١٩٢٩) تلميذاً في بيئة اشد انشغالاً^٢ . وبعد عن رقابة الأهل الصحيحة .

وجاء ابراهيم الى الجامعة الاميركية في بيروت وملء نفسه امل عظيم لارتشاف العلم وللبراعة في الادب ، ولكنه كان يحمل في جسمه الهزيل ثلاثة امراض تهدد ذلك الأمل العظيم بالتلاشي : صمم في اذنه وقرحة في معدته ثم استعداد في امعائه لأنواع الالتهاب .

قصة أمراضه

كنت اود ان انسق ازيمات المرض التي عاناها ابراهيم مع حوادث حياته تدريجاً ، ولكنني عدت فرأيت ذلك مستعصياً ، إذ انه يقطع سلسلة ترجمته في اماكن متعددة من غير ان يجعل قصة مرضه واضحة بينة . من اجل ذلك رأيت ان اسرد قصة صممه وقصة القرحة في معدته في هذا المكان ، ثم اعود الى استئناف ترجمته .

اما صممه فقديماً ، إذ كانت اذنه اليمنى « تنز » مادة صديديّة منذ صغره . وفي عام ١٩٢٤ كان مرض اذنه قد تطور تطوراً كبيراً . ففي احدى رسائله إلي يقول^٣ : « أظن انك لا تجهل ان باحدى اذني صمم . ولقد ازعجني ألمها كثيراً في الأيام الأواخر . فذهبت الى القدس لطبيب خصاص بالاذن فطلب إلي ان احضر للقدس مرة في الاسبوع . ولقد آلمتني نهار امس فجئت الى القدس وفيها تمت هذا الكتاب بادئاً من هذه الصفحة . ويقول الطبيب إذا ضاق امرنا بها أجرينا عملية . ولا ادري ما سيصير » .

وتأخر إجراء العملية الى أواسط عام ١٩٢٧ حينما اقترح الاطباء في القدس ترقيع الاذن . وتمت العملية^٤ بسلام ، ولكن الألم لم ينقطع . وعاد ابراهيم يتنقل بين الاطباء

(١) راجع نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) راجع نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٣) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ .

(٤) نابلس ، ٢٧ آب ١٩٢٧ .

حتى سئم ، فكتب في إحدى رسائله ١ : « احمد ٢ سافر الى نابلس مع اهله ، واضطرت الى البقاء هنا (في القدس) لمواصلة الذهاب الى الطبيب ، طيب الاذن (هذه المرة) : من طيب الى طيب فقبحاً حياة على الأطباء ، وقف ومع ذلك انا ابراهيم كما تعرفني راضياً قانعاً مسروراً » .

واستم الصمم في الاذن فاستراح ابراهيم من الألم فيها ، ولكن آلام المعدة رافقته كل حياته .

كان ابراهيم يشكو من معدته منذ صغره ايضاً . ولما تخرجنا في الدائرة الاستعدادية من الجامعة الاميركية في حزيران عام ١٩٢٤ كان الامر قد استعصى على العلاج وأصبح اجراء عملية جراحية شيئاً لا مفر منه ، فأجريت له في ذلك العام العملية الاولى في المعدة ٣ . على ان الآلام عاودته في اواخر عام ١٩٣٢ فاضطر الى القبول بعملية ثانية خطيرة ، كان نجاحها ميؤساً منه . وقبل ابراهيم بالمجازفة واجريت العملية وكان المسلمم الله لا الطب . فما ان استطاع ابراهيم الكتابة حتى وردتني منه رسالة من المستشفى الالماني في القدس يقول فيها ٤ :

« ... لا أطيل عليك ، آلام شهرين انقضت بعون الله وعملية جراحية في المعدة على يد طبيب ألماني جبار ٥ . رأيت الموت ثلاث مرات في هذه المرضة ولكن « نعم الحارس الاجل » . لا أزال في المستشفى ، وتستطيع ان ترى من منطقي وخط يدي انني في حالة حسنة والله الحمد . ولكنني سأبقى في المستشفى مدة عشرة ايام من تاريخ كتابي هذا ... » والطبيب لم يستأصل القرحة ، بل حول عنها مجرى الطعام تحويلاً ٥ . كانت القرحة في مؤخرة المعدة ، في الجدار الأعلى عند المكان الذي يمر الطعام منه الى

(١) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٢) اخوه احمد .

(٣) في هذه الفترة وفي اثناء هذا المكث في مستشفى الجامعة الاميركية نظم ابراهيم قصيدته « ملائكة الرحمة » : بيض الحمام حسبته ، في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٤ (راجع الدفتر ١٩٢٤ ص ١٤) .

(٤) القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٥) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

* هو الدكتور غماليين Gmaelin .

المعيّ مباشرة . ولم يكن الاستئصال ممكناً لكبر القرحة وصعوبة موقعها ولضعف ابراهيم . ففتح الطبيب فتحة في بطن المعدة وجعل للطعام ممراً قصيراً الى المعى الاثني عشري . وهكذا اصبح الطعام يمر من بطن المعدة الى الامعاء من غير ان يحك القرحة في مروره من مخرجه الطبيعي الى الامعاء . ووعد الطبيب ابراهيم بأن يعيد له ممر الطعام الى مكانه الطبيعي حينما تسنح الفرصة بشفاء القرحة . ولكن هذه الفرصة لم تسنح ، ولم يكن وعد الطبيب في الاكثر إلا بشرى ليقوى بها قلب ابراهيم على تحمل المتاعب .

وأخذ هذا التحويل ابراهيم من خطر محقق وأراحه من بعض الآلام ، ولكنه فرض عليه قيوداً جديدة : اصبح الطعام الآن لا يستقر في المعدة وقتاً كافياً لهضمه ، بل كان يخرج من بطن المعدة الاسفل الى الامعاء بسرعة وقبل تمام عملية الهضم . من اجل ذلك نصح الطبيب ابراهيم بأن يجلس بعد كل طعام - مستلقياً الى الورا شياً يسيراً - ليتيح للطعام ان يبقى اكبر مدة ممكنة في المعدة ثم يساعد على استتمام عملية الهضم في الامعاء .

ولا ريب في ان هذه الحال تجعل صاحبها معرضاً للاسهال والالتهاب الامعاء . وبدأ ابراهيم يشكو من الاسهال المتقطع حتى انتصف عام ١٩٣٥ فاتصل الاسهال واشتد . فذهب في اواسط تموز الى قرية بجمدون بلبنان لمقابلة الدكتور جورج خياط ، وكان الاطباء قد نصحوا له بالبقاء تحت مراقبته الطبية مدة من الزمن^١ . وذكر لي ابراهيم شيئاً من امر هذا المرض فقال في رسالة تالية^٢ : « اما انا فقد كنت اود ان تنتهي قضية (الاسهال) بسرعة ، فاذا به - لعنة الله عليه - من الادواء المماثلة المطاولة . ولا ابرح اتردد على عيادة الدكتور خياط الى الآن ، وامس فقط تحسنت الحال قليلاً واستمر التحسن الى اليوم وعسى ان يدوم . إن شاء الله » .

وسمّ ابراهيم التردد على الاطباء وتناول العلاج ، وُحق له ان يسأم ، فوردتني منه رسالة طافحة بالنقمة والشكوى يقول فيها^٣ :

(١) بجمدون ، ٢٧ تموز ١٩٣٥ .

(٢) محطة بجمدون ، ٦ آب ١٩٣٥ .

(٣) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

« وأما حالتي الآن فانها والله الحمد آخذة بالتحسن، وذلك على اثر نبة الاطباء ونظرياتهم وأدويتهم ومركاتهم التي لا تقع تحت حصر . ولقد اصبح الطب معقداً (Complicated) واصبح المرضى تحت رحمة النظريات المتعددة (للمرض الواحد) والتجارب المختلفة فكأنما هم في مختبر تجري فيه هذه التجارب ليرى صدقها وتكتشف حقيقتها . والذي يطبق على الارنب والفأر والصفدعة لا بأس من أن يطبق على ابراهيم طوقان . وإذا هلك احد هذه الحيوانات الحقيرة او ذهب ابراهيم طوقان ضحية التجربة وتحقيق النظرية فالأمر في سبيل خدمة العلم سواء !! هذا ما استطعت ان أدركه اخيراً من علاقاتي بالاطباء والمستشفيات ، وما اقله عن تحامل ولكن عن اختبار وثقة . قيل لي (آخر ما قيل لي) : خذ هذه الابرة ^١ ، ابرة كل يوم وآخر ^٢ ، فهي للقرحة . - جئت بها من القدس الى نابلس أنفذ امر الطبيب . اخذت الابرة الاولى فشعرت تغيراً غير مرغوب فيه وتعكرأ في مزاجي، ولم يخطر في بالي ان أنسبه الى الابرة التي جعلت شفاء للقرحة ! واسترحت يوماً وأخذت الثانية فحصل لي ما شعرت به في الاولى فاتبتهت ورأيت ان أسأل الطبيب الذي يعطيني الابرة (وهو غير الذي وصفها) وأبدي له ملاحظتي ... فلما قدم الى البيت للثالثة أفضيت إليه بالأمر فأجاب : ما زلت اعجب لمن وصف لك هذه الابر لماذا وصفها . فهي للقرحة كما ذكرت ولكن لا لشفائها بل للتحقق من وجودها ، فمن شأن مادة هذه الابر ان تبيح الحوامض في المعدة ، والحوامض تبيح القرحة إذا كانت موجودة فيشعر المريض بوخزها وتبدو عليه عوارضها ! يا عمر ، ما عجبت في حياتي اكثر من عجيبي يومئذ ^٣ للطبيب الذي وصف لي تلك الابر ، إنه هو بعينه الذي اجري لي العملية الجراحية المعهودة ^٤ ، وهو الذي فتح معدتي ورأى فيها القرحة رأي العين ! وها هو اليوم يريد ان يتأكد من وجودها وهي موجودة لم تستأصل يومئذ ^٣ ولكن تحول عنها مجرى الطعام تحويلاً . وهذا هو الخبر الذي

(١) انايب فيها دواء للحقق تحت الجلد او في العضل ...

(٢) غباً : مرة كل يومين .

(٣) يومئذاك .

(٤) راجع ص ٢٠ .

لو كتب برؤوس الابر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر^١ . وغني عن البيان انني بذت تلك الابر ولجأت الى الاعتناء بمسألة طعامي وشرابي وراحتي وجاريت الطبيعة على ما تتطلبه فلم يمض اسبوع - واقسم لك بالله - حتى ارتفع وزني من ٤٦,٥ كيلو الى ٥٠ فتأمل . والحمد لله اولاً وآخراً .

يسوءني يا عمر ان افتتح المكتبة بهذه الاحاديث المزعجة ولكن لا بد من شكوى الى ذي مروءة ... » الخ .

على ان الحال لم تتحسن تحسناً اساسياً ، فقد كتب ابراهيم يقول في رسالة تالية قريبة^٢ « الصحة والله الحمد على ما يرام وإن كان الاسهال لا يزال مزعجاً غير منقطع . وأتأمل ان تتحسن الحالة بقدم موسم البرتقال وشراب الـ RADIO MALT ... »

وجاء رمضان من سنة ١٣٥٤ للهجرة (كانون الاول ١٩٣٥) فمنعه المرض عن الصيام فكتب يقول^٣ : « فما انا بصائم في هذا البلد الذي كل اهله صيام . فقد علمت اني ممن استثناهم الله تعالى^٤ ولم يجعل عليهم في الدين من حرج^٥ . وأخشى إذا انا صمت ان يختل نظام معيشتي فتختل الصحة باختلاله » .

كان من المنتظر ان يصاب ابراهيم بفقر الدم بعد ان عانى من القرحة في معدته ومن

(١) تعبير وارد في الف ليلة وليلة .

(٢) نابلس ، ١٠/١٦/٥٣ .

(٣) نابلس ، ١٤ رمضان ١٣٥٤ = ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٤) جاء في سورة البقرة : يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون : اياماً معدودات ؛ فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام آخر . وعلى الذين يطيقونه (لا يستطيعون صيامه او يستطيعون صيامه بجهد كبير لتقدمهم في السن او لمرض فيهم لا يرجى شفاؤه) فدية (كفارة ، صدقة) طعام مسكين (لطعام احد الفقراء يوماً عن كل يوم يفطرونه) ... (٢ : ١٨٣ - ١٨٤ ، راجع ١٨٥) .

(٥) ورد في سورة الفتح (٤٨ : ١٧) : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج (في ترك الجهاد ، القتال في سبيل الله . ولكن هذا الحكم الخاص ينطبق ايضاً انطباقاً عاماً على ترك العبادات التي لا يمكن القيام بها مع المرض كالصوم مثلاً) .

العمليات الجراحية ومن التهاب الامعاء. ما عانى ولقد اشتد به فقر الدم ، في اواخر عام ١٩٣٤ فعزم على المجيء الى بيروت للمعالجة . قال ^١ :

« ... يصلك كتابي هذا وأنا في طريقي الى بيروت ... اجازتي هذه المرة صحيحة تستغرق كل فصل الخريف ، ٤٥ يوماً ، وأي خريف كخريف بيروت ؟! السبب في هذه الاجازة راجع الى فحص طبي نتيجته ان معي فقراً في الدم احتاج معه الى تبديل هواء وإلى راحة . وقد رسمت خطة ارجو ان أنفذها فلا اجد ما يعيق عن تنفيذها : وهي ان اسكن في غرفة في وست هول ^٢ وأتناول طعامي مع المعلمين وأكون تحت اشراف الدكتور خياط للمعالجة الطبية . هذا مع العلم بأن دواعي الراحة في الجسم والبال والروح يجب ان تكون متوفرة ... »

ودخل ابراهيم مستشفى الجامعة الاميركية للفحص الطبي والمعالجة . وها هو يبسط ، بعد أميدٍ ، ما اتفق له في ذلك الحين ، في مقال كتبه لمجلة الأمل ^٣ . قال ^٤ :

اخى عمر

لست في مقام اناقش فيه الدكتور نويري في الدم وأنواعه ^٥ . ولكني - كما تعلم - عهدي بنضال اطباء قديم ... ومعدتي من النوع الذي يحسدني عليه توفيق الحكيم فيضع لها تاريخ حياة حافل بالمغامرات ^٦ كما فعل مؤخراً بمعدة (صاحبه) أشعب ... لقد كان مما جرته علي معدتي عملية جراحية كبرى ^٧ خرجت منها ^٨ غريبة التركيب ، بل جعلتني

(١) نابلس ، ١٦/١٠/٣٤ .

(٢) بناه من ابنة الجامعة الاميركية فيه قاعات للاجتماع ، وكان فيها غرف الفناء للضيوف المعلمين والأساتذة السابقين والفخرجين .

(٣) الامالي ، مجلة اسبوعية تبث في الثقافة ، صدرت في بيروت من ١٩٣٨ الى ١٩٤١ .

(٤) الامالي ، السنة الاولى ، العدد ١٦ (الجمعة ٢٤ شوال ١٣٥٧ و ١٦ كانون الأول ١٩٣٨) ،

باب المطارحات والمراسلات ، ص ١٢ - ١٣ . والمقال موقع باسم « ابن الاحف » .

(٥) الدكتور محمد خير النويري (١٩٩٦ - ١٩٥١) احد اصحاب مجلة الامالي ، كان ينشر مقالات

متوالية في موضوعات طبية منها سلسلة تبث في انواع الدم والوراثة .

(٦) تاريخ حياة معدة ، تأليف توفيق الحكيم (القاهرة ١٩٣٤) .

(٧) في كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٨) خرجت منها معدتي .

عرضة لغرائب الادواء في كل حين ، ومن هذه الادواء (فقر الدم) .
وأظنك لا تزال تذكر خريف ١٩٣٤ يوم نزلتُ بيروت طلباً للشفاء من فقر الدم .
وتذكر انك تركت لي يومئذ ١ بطاقة عليها بيت من الشعر لا شأن لي بروايته الآن ٢ ...
فقد كان ما كان وطويت ذلك التاريخ طي الشباب ...

مر بخاطري كل ذلك وانا اقرأ رسالة الدكتور نويري (في عدد الامالي الاخير) ٣ الى
عزيزته مريم ٤ ... فقلت إن لدي ما يخولني ان اتدخل في ابحاث الطب . وما عليّ لو
فعلت كبعض الناس فناقشت في كافة فروع المعرفة وتناولت - ولو مرة في العمر -
على علماء الاختصاص !؟

قال لي طيبي يومئذ ، وقد قارن بين لون دمي وبين نماذج من الألوان الحمراء مطبوعاً
على بطاقة بين يديه :

- عندك فقر دم .
- الغني هو الله ، ثم ماذا ؟
- وفي الامكان ان تكون المعالجة بأبر تحتوي على خلاصة الكبد ، وهذه الطريقة
بطيئة ، ولكن طريقة نقل الدم إليك أسرع ...
- أرجو ألا يكون مع المستعجل الزلزل في هذا المقام ...
- الطريقة مجربة مضمونة .
- والدم ؟
- نبحت عن شخص يبيعك من دمه !

(١) في ١٨ تشرين الاول ١٩٣٤ .

(٢) بيتان من الشعر هما :

عجباً من دمٍ يمود فقيراً كنتَ تفني ببذله الغاياتِ

لا تظنَّ البخيلَ أَسمدَ خطأ رب فقرٍ لم يتصل بهياتِ

(٣) الامالي ، السنة الاولى ، العدد ١٣ (٣ شوال ١٣٥٧ = ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٨) .

(٤) اسم ادبي خيالي ، ...

- ومتى كان للدم عندنا ثمن ؟ ولكنها على كل حال تجارة رابحة ، إن شاء الله .
وعسى ألا أعود منها بصفقة المغبون .

وافترقنا يومين عرّف الطيب خلالهما « الزمرة الدموية »^١ التي أتمى إليها . ثم
لقيني فقال : نحن الآن نبحث عن يتلاءم دمه مع دمك . وكنت قد صنعت آياتاً في
المعنى ، فأشددت الدكتور :

وطيب رأى صحيفة وجهي شاحباً لونها وعودي نحيفاً .
قال لا بد من دمٍ لكُ نع طيه جديداً ملء العروق عنيفاً .
لك ما شئت ، ياطيبى ، ولكن أعطني من دمٍ يكون خفيفاً .
فضحك وهو يقول : انت ونصيبك !

وقد ساورني القلق من هذه الناحية . فأنت ترى ان المسألة تعدت الجسد الى
الروح ... وخشيت ان أتبلّى بثقل يُدخل عليّ من دمه ما هو اشدُّ على نفسي من امراض
الدنيا جميعها . ولكن الله سلم ، وجرت عملية نقل الدم فكانت هينة . وكان بائع دمه
ظريفاً . وكيف لا يكون ظريفاً من اعتبر نفسه وعاءً كوعاء الزيت او اللبن يعرضه على
امثالي من (الزبائن) فيفرغ لهم منه على قدر الحاجة !

ومرت ايام عشرة قفز وزني خلالها ثمانية اكيال ، وتفتحت مغالق نفسي للطعام
وأخذت بيروت تتصدى لي باغوائها وفنون إغرائها ...

ولكنني عدت الى الطيب أشكو إليه قشعريرة اعقبتها حمى مزعجة . فقال : امر
طارىء في حالات ثقل الدم ، ولا بأس عليك منه . فلما عاودتني بعد يومين وشكوت إليه
ذاك فكر وقدّر ... ثم عاودتني ، وكانت في المرات الثلاث كأنما هي معي على ميعاد

(١) الدكتور نويري وضع هذا اللفظ الفني .

لا تخلفه ، فقال الطيب : ملاريا خفيفة نقلت اليك مع الدم . قلت : غشني البائع وأمرني لله ! وكلفني ما يوزعه البعوض مجاناً ثلاث ليرات ذهباً عيناً (انتهى المقال) .
ومنذ عام ١٩٣٦ عادت الامراض فهاذنت ابراهيم مرة اخرى سوى نوبات عارضة كانت تتابه من معدته بين الفينة والفينة ، وتتابه فجأة . في اواخر تشرين الاول من عام ١٩٣٧ كان ابراهيم مع زوجته في بيروت فجاء لزيارتي في البيت . وبعد نحو ربع ساعة من وصوله سمعته يقول : آخ ، ثم انطوى على نفسه وقال : هذه معدتي . وأخذ يصرخ . حملناه الى سرير ثم اتيت له بطيب . فأعطاه الطيب ابرة مسكنة . وبعد ربع ساعة آخر عاد ابراهيم الى هدوئه كما كان قبل التوبة^١ .

☆

ونعود الآن لنقص حياة ابراهيم منذ دخوله الى الجامعة الاميركية .

في الجامعة الاميركية :

هنالك صفحة من حياة ابراهيم كان يحسن إغفالها في هذه الترجمة ، ذلك لأنها صفحة غير مشرقة ، او ان احد جوانبها غير مشرق على الاصح . تلك هي صفحة حياته في الجامعة الاميركية كمعلم . دخل ابراهيم الى الجامعة الاميركية تلميذاً باسماً ثم خرج منها استاذاً ناقماً اشد النقمة لاسباب قد لا يكون هو مصيباً فيها كلها ، ولكنه على كل حال ليس مخطئاً فيها كلها .

نشر الاستاذ محمد نجم^٢ في مجلة « الكلية »^٣ مقالاً في العدد الرابع من المجلد العاشر^٤ قال فيه انه يأسف لأنه لا يجد في حياة ابراهيم طوقان الا مراجع غير مسؤولة او

(١) راجع الاشارة الى هذه التوبة : القدس ، ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ .

(٢) نخرج محمد نجم في الجامعة الاميركية عام ١٩٤٥ ثم عين فيها مدرساً .

(٣) « الكلية » هي المجلة الرسمية للجامعة الاميركية ، وان كان الاساتذة والطلاب قد تولوا اصدارها حيناً بعد حين مستقلين بعض الاستقلال عن عمدة الجامعة .

(٤) نيسان ١٩٤٦ ، ص ٩ - ١٥ ، ٢٣ .

اقوالاً فيه مبنية على العاطفة « وفيها يقصد الكاتب او المتحدث الى المدح اكثر من الذم ^١ ،
والى الشكر اكثر من التجريح وتحكمه العاطفة اكثر مما تسيروه روح البحث العلمي الصحيح ...
وليس بين يدي من المصادر الموثوقة الا سجلات الجامعة التي تعرض حياته الجامعية وحياته
كمعلم . ولكن هذه السجلات الآن ، مع ما فيها من نقاط بيض وسود ورمادية ومع ما
فيها من انذارات وتنبهات تسدل ستاراً على كل هذا ولا تبوح به ... »

ان الاستاذ محمد نجم قد خالف البحث العلمي في ناحيتين : اولاهما ان المصادر لحياة
ابراهيم متوفرة ، ولكنه هو لم يعرف منها شيئاً . ولقد كان بإمكانه على الاقل ان يرجع الى
زملائه من اساتذة الجامعة الاميركية فيخبروه بتفاصيل كثيرة من حياة ابراهيم . اما ثانياً
الناحيتين فهي ذكره تلك النقاط البيض والسود والرمادية وتلك التنبهات والانذارات
الموجودة في سجل ابراهيم في الجامعة الاميركية والتي يزعم انها تسدل ستاراً على حياة
ابراهيم ولا تبوح بالاسباب التي اوجبت تلك التنبهات والانذارات وتلك النقاط الرمادية
والنقاط السود . ان الاساتذة جبران بخغازي وجبرائيل جبور وانيس فريحة وحليم نجار
وحسني الصواف ومسلم المشنوق وعباس إقبال يعرفون تفاصيل تلك الحوادث . اما الاستاذ
انيس المقدسي والدكتور اسد رستم فيعرفان كل شيء . وان اعجب فعجب من الاستاذ
محمد نجم يلجأ الى سجلات الجامعة الميتة ولا يلجأ الى سجلاتها الاحياء ، هذا فضلاً
عن ان ثمت اشياء كثيرة مكتوبة هنا وهناك .

ان الوفاء للحق - لا لابراهيم وحده - يقضي ان نمكن ابراهيم طوقان من الدفاع
عن نفسه وان نقول نحن ايضاً ما نعرف : « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ... ولا
تكنموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه اثمٌ قلبه ... » ^٢ .

دخل ابراهيم طوقان الى الجامعة الاميركية في العام المدرسي ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، في
الصف الخامس الاستعدادي (آخر صفوف الدائرة ، الاستعدادية يومذاك) . ثم تخرج

(١) كذا في الاصل ، والصواب : الى المدح اكثر منه الى الذم والى الشكر اكثر منه الى التجريح . - ولكن
لماذا يريد الاستاذ نجم ان يقصد الكاتب الى الذم قصداً ؟
(٢) سورة البقرة (٢ : ١٤٠ و ٢٨٣) .

فيه في حزيران ١٩٢٤ . وليس له في هذا العام نزاع مع الجامعة . اما النزاع فبدأ في الدائرة العلمية .

الجامعة الاميركية مؤسسة لها آراء معينة خاصة وسياسة مذهبية مرسومة ، وهي لا ترضى عن مخالفتها سياستها - وهذا حق لها . ولكن ليس من حق الجامعة الاميركية ان تفرض آراءها الخاصة وسياستها المذهبية على جميع الناس .

ثم إن الجامعة لا تستطيع ان تزعم ان جميع المدرسين فيها كانوا دائماً من الطبقة الاولى . ولا شك ابدأ في ان ابراهيم كان يعرف « البلاغة » مثلاً معرفة جيدة قبل ان يتعلمها على مقاعد الدرس . اما تذوقه الادبي وعلمه بالقرآن الكريم فكان فيهما بلا ريب - مما نرى من الانتاج الوجداني عنده - في الطبقة الاولى . يقول ابراهيم في احدي رسائله ١ :
« ... انا اتعلم بلاغة عند ... قال الاستاذ في إيراد آية كريمة ... : لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السموات ينفطرن (مكان ينفطرن) منه الخ . ثم قال : يخرج الحي من الميت (مكان الميت) ، ويخرج الميت (مكان الميت) من الحي . إن الميت (بسكون الياء) هو الذي مات ، والذي مات لا يمكن ان يلد حياً . اما الميت (بتشديد الياء) فهو الحي الذي ينتظره الموت . ومعنى الآية الاخيرة لا يمكن ان يستقيم في ذهن الاستاذ إلا إذا كان يجهل الفرق بين المعنيين . ومع ذلك فقد قال ابراهيم : « اما انا فلم احرك ساكناً بل كتبت الآيتين (صحيحتين طبعاً) وبقيت ساكناً » . فأني تأدب بين يدي استاذ اسمي من هذا التأدب !

على ان ابراهيم لم يكن دائماً يسكت على مثل هذه « المفارقات » بل كان يعلق على اكثرها أمام اصحابه وغير اصحابه ٢ . وإذا علمنا ان الذين كانوا يتحدثون الى ابراهيم كثيراً ، من الطلاب ومن الاساتذة ، ادركنا مدى انتشار ملاحظاته ومدى تأثيرها .

(١) بيروت ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ .

(٢) بيروت ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ ؛ بيروت ، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨ ؛ بلا تاريخ (بيروت ، كانون

الاول ١٩٢٨) ؛ بيروت ، ٧ شباط ١٩٢٨ .

وتخرج ابراهيم طوقان في الجامعة الاميركية في حزيران ١٩٢٩ وليس بينه وبين عمدة الجامعة نفرة ، بل كان بينهما مودة كبيرة . وكانت الجامعة تود ان يكون ابراهيم في عداد مدرسيها .

في سنة ١٩٢٦ - على ما أذكر - اجتمعنا : ابراهيم طوقان ووجيه البارودي وحافظ جميل وعمر فروخ ونديم البارودي . على إنشاء حلقة ادبية سميها دار الندوة^١ . كانت الغاية الاولى من هذه الحلقة اجتماع نفر من الاصدقاء تربطهم رابطة الادب ونظم الشعر . ولقد اتخذ كل شخص منا اسماً ادبياً من زهو العصر العباسي : فاتخذ ابراهيم اسم العباس بن الاحنف ، ووجيه اسم ديك الجن الحمصي ، وحافظ اسم ابي نواس ، وبقي لي اسم صريع الغواني مسلم بن الوليد البغدادي . وكان نديم البارودي كاتب دار الندوة . وغلبت على دار الندوة روح المرح والهزل فقل استاذلم تعرض بالهجاء له او لبعض آثاره على الرغم من حبا له واعجابنا به ، ولكنه تهور الشباب وحب الانتقاد . وكثرت مساجلاتنا في الموضوعات الوجدانية والغزل منها خاصة .

وكان اجتماع ابراهيم ووجيه وحافظ كثيراً ، إذ كانوا في الصف الذي تخرج عام ١٩٢٩^٢ وكنت انا في الصف الذي تخرج عام ١٩٢٨^٣ فأوقاتهم كانت اكثر اتساقاً . ثم انهم كانوا أكثر توفراً على نظم الشعر . وكان أشعر أهل الندوة بلا ريب ابراهيم طوقان . وكان لدار الندوة « دفتر » تدون فيه وقائع الحوادث وتسجل فيه المساجلات الشعرية ، وكان في عهدة نديم البارودي ، ولا ادري ما فعل الله به^٤ .

ولكن مما يؤسف له ان صداقة ابراهيم لحافظ جميل خاصة ولوجيه البارودي ونديم

(١) كانت قریش في الجاهلية تجتمع في مكان سمي « دار الندوة » للنظر في شؤونها وإدارة امور مكة .

(2) A U B Directory, 1953, pp. 191, 192, 194, 214 (Wajih Baroody, M.D 1932) .

(3) Do. pp. 181-2 .

(٤) راجع كلمة عن دار الندوة في مجلة الوادي - لان حال الزبانية الاحرار - اسبوعية سياسية « بغداد » صاحبها ورئيس تحريرها المحامي خالد الدرة - السنة التاسعة ، العدد ١٧ (السبت ٢٦ حزيران ١٩٤٨) ص ٩-١٠ ؛ وفي « اخي ابراهيم » لغدوى طوقان ، ص ٢٨-٢٩ .

البارودي لم تخل من شوائب . في العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ كنت انا اعلم في مدينة نابلس فكتب الي ابراهيم ^١ يقول : « دار الندوة (تفشكت) لا القوم قومي ولا الاعوان اعواني ... انقطاعي عن كل ما يُقام من حفلات واجتماعات ادعى لراحة فكري واجمل بي ، فلا انا عضو في عروة^٢ ولا مبار في مباراة^٣ ، وعلي واجبات مدرسية اقوم بها حق القيام فلا تبتس بما كانوا يصنعون^٤ . نيكولي^٥ طلب قصيدة « يا تين يا توت » في هذا الصيف . وعند قدومي حاسني (وحدي) عليها^٦ ، فافهمته واقعة الحال وكيف ان هنالك عدواً ميبناً يريد الايقاع بي . فكانت نصيحته لي هذه الجملة^٧ Be careful even of your best friends فقهمت اشياء لم تدر لي في خلد قبل اليوم . »

وخرج الخلاف بين ابراهيم وبين حافظ ووجيه من الميدان الشخصي الى ميدان المبدأ . قبل ان اخرج انا (حزيران ١٩٢٨) كنا كلنا متفقين على ألا ندخل مباراة ذات جوائز مالية ، كالمباراة التي كانت تقام باسم « جائزة مجلة الهلال » مثلاً . لقد كنا نعتقد اننا فوق اندادنا ، فلم تنافس في سبيل مال . هذا مع العلم باننا كنا نقيم حفلات شعرية بلا جوائز او نخطب ونشدد في الحفلات الخاصة والعامه ، لجمعية زهرة الآداب وجمعية العروة الوثقى .

وفي العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ارادت الجامعة ان تقيم حفلة شعرية بجوائز ، وتحت اشرافها هي ، فكتب الي ابراهيم رأيه في تلك المباراة . قال^٨ :

(١) بيروت ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ .

(٢) جمعية العروة الوثقى .

(٣) كانت الجامعة تقيم مباريات ذوات جوائز ، اشهرها في ذلك الحين مباراة دار الهلال .

(٤) في سورة هود : « فلا تبتس بما كان يفعلون (١١ : ٦) . وفي سورة يوسف : « فلا تبتس

بما كانوا يعملون (١٣ : ٦٩) .

(٥) Edward F. Nickoley عميد الدائرة العلمية .

(٦) قصيدة « يا تين يا توت » اشترك في نظمها ابراهيم طوفان وحافظ جيل ووجيه بارودي في فتاتين كانتا

في الجامعة ، هما ليلى تين (دمشق ١٩٠٨ - ١٩٥٠) واختها أليس تين (دمشق، ولدت ١٩١٣) . وتخرجت الاختان

في الجامعة عام ١٩٣٠ ، اي بعد ابراهيم وحافظ ووجيه بمام واحد A U B Directory 1953, p 203 .

(٧) احذر حتى من خيرة اصحابك .

(٨) بيروت ، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨ .

« المباراة الشعرية :- لا ازال ثابتاً على رأيي ، اي سوف لا ادخلها ^١ . واجد نفسي ستقوم القيامة علي مع انيس ^٢ لأنني الى الآن اماطله وأزعم ان القريحة مسدودة ولكنني اجرب . يا عمر ، انا في غنى عن الوقوف مع شعراء امثال حسن حوا ورأفت البحيري ووداد خوري ^٣ (هذه شاعرة يا حبيبي) وأضرابهم . وإذا طمع الجماعة بنيل عشرة جنيهات (أعني حافظاً ووجيهاً) فأنا اضحي بألف ليرة في سبيل كرامتي التي ارى ان الوقوف مع هؤلاء تجرحها . يُنظر إليّ الآن في مقدمة شعراء الجامعة ، فاذا دخلت المباراة وكسبت الجائزة فلا يقال سوى (ماهي مسوكرة لابراهيم !) وإذا لم اكسبها فلا والله أبقى في الجامعة وقد نالها غيري . » .

ويبدو ان النفرة بين ابراهيم وحافظ جميل ظلت مستحكمة . ولكن الصفاء عاد بين ابراهيم ووجهه الى ما كان عليه من قبل وأحسن . ولما كان ابراهيم استاذاً في الجامعة كان وجهه يتابع درس الطب فيها فتقارضا نظم الشعر في الغزل والمجون واجتمعا في النزاهة والاسفار . ولما ترك ابراهيم الجامعة نهائياً اتصلت المكاتبة بينهما زمناً .

وفي الجامعة الاميركية تفتتح قلب ابراهيم للهوى ثم شغلته فتاة واحدة عن كل فتاة اخرى . تلك كانت فتاة من الناصرة او من قرية قرب الناصرة اسمها كفرة كنة (وادي الرمان) في فلسطين . جاءت هذه الفتاة الي الجامعة الاميركية ومكثت فيها سنة واحدة (١٩٢٥ - ١٩٢٦) ألفت في خلالها شباك هواها على كثيرين ثم وقعت في هوى ابراهيم . ولم تكن هذه الفتاة جميلة بالمعنى الذي تواضع عليه واضعو اقيسة الجمال : كانت فتاة فارعة الطول سمراء مفصلة نواحي الوجه تجول على وجهها ابتسامة خفيفة إذا كانت غافلة في مقعدها او مسيرها ، فاذا نبهتها انفاس متأمل او نظرات متتبع غاضت ابتسامتها وتجلت على وجهها نفرة ثم بدا النزق في حركاتها مشوباً بالدلال . تلك كانت (م . ص .) التي نظم

(١) لن اشترك فيها .

(٢) الاستاذ انيس المقدسي .

(٣) هي اليوم السيدة وداد الحوري المقدسي قرطاس (ابنة اخي الاستاذ انيس المقدسي) . ورأفت البحيري هو الرسام الموهوب . ان هؤلاء الاشخاص البارزين في نواحي نشاطهم الخاس بهم لم يكونوا شعراء . يصح لابراهيم طوقان ان يمد نفسه في صفهم .

ابراهيم فيها معظم قصائده في الغزل . ولما تركت م. ص. الجامعة استمرت صلتها بابراهيم
مدة طويلة بعد ذلك .



ابراهيم طرفان حينما كان تلميذاً في الدائرة العلمية

وفي هذه الاثناء ايضاً بدأ ابراهيم ينظم قصائده الوطنية والموضوعية . فالحبشي الذبيح ،
ونشيد « موطني » ، وملائكة الرحمة ، كلها تعود الى تلك الفترة . ولما حدث الزوال في
نابلس عام ١٩٢٧ ودمر قسماً كبيراً منها نظم ابراهيم « رثاء نابلس » فكانت موضوعية
جيدة . ولقد 'عرفت' لابراهيم مكانة اديبة ممتازة قبل ان يتخرج في الجامعة الاميركية :
لما زار الدكتور منصور فهمي فلسطين ألقى في ساحة مدرسة النجاح بنابلس محاضرة شيقة
فألقى ابراهيم قصيدة حياه بها^١ . وكذلك ألقى قصيدة حيا بها شوقي^٢ وقصيدة ثانية في
تحية امين الريحاني^٣ عند مجيئهما الى فلسطين .

(١) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ . اما القصيدة فنظمت في ١٨ تموز ١٩٢٤ (مجموعة ابراهيم ١٩٢٤ ،
ص ٨) ، ثم نشرت في العدد ١١٥ من صوت الشعب (بيروت ؟) وبما انه ظهر فيها اخطاء مطبعية كثيرة فقد
صوب ابراهيم هذه الاخطاء في عدد تال .

(٢) هذه القصيدة غير مؤرخة ولكنها منسوخة في الدفتر ١٩٢٥ ، ص ١٩-٢٤ ، بعد قصيدة الريحاني .

(٣) ألقى في النادي العربي (نابلس) في ١٩ نيسان ١٩٢٧ (الدفتر ١٩٢٥ ، ص ١٤) .

وقبل ان يتخرج ابراهيم ايضاً من الجامعة الاميركية أَلف التدخين^١ والشراب :
شرب القهوة ، وشرب الراح . كان نفر من اصدقاء ابراهيم في الجامعة يشربون الخمر
فشربها معهم . ولقد دعي يوماً مع بعض اصحابه الى وليمة عند صديق في دمشق فقال في هذه
المناسبة قصيدة تنتهي بهذين البيتين^٢ :

فأقبل الساقى يزف الخمر في الأقداح .

يا مرحباً بالراح^٣ تجلو كؤوس الراح .

ثم كثر شربه للخمر وخصوصاً للويسكي ، ذلك الشراب الذي ينشره الانكليز حيث حلوا
في البلاد بين الطبقة المثقفة وبين الموظفين ، حتى قلّ ان ترى موظفاً ذا مركز ما في بلاد
الاستعمار الانكليزي لا يشرب الويسكي . ويبدو ان شربه اصبح في عام ١٩٣٤ إدماناً :

يا من رأنا ليلة الخميس نظارد الهموم بالكؤوس

حتى إذا استولت على الرؤوس وحلّقت تنهض بالنفوس

لم يبق للهموم من مجال

مُدّامة عجيبّة المعاني لم تتصل بالحسن بن هاني ؛

جاءتك سكسونية الأوطان موسومة الزجاج بالحصان^٥

تُصان بالبذل عن ابتذال

ويبدو ان الاطباء منعوا ابراهيم عن الشراب فكان يتمتع حيناً ثم يعود . ولكنه استمر

في الشراب الى آخر سني حياته .

(١) في احدى رسائله : كيف عيناك ، يا عمر ! هذا مطلع جميل ... انا اجيز لك الصدر .. فانظر حتى

احك القرية بسيكارة وفنجان قهوة (نابلس ، ٣١ اب ١٩٢٨) .

(٢) ١٩٢٨ .

(٣) الراح جمع راحة ، باطن الكف ، والراح الثانية : الخمر .

(٤) الحسن بن هاني هو ابو نواس . والمُدّامة التي تتصل بالحسن بن هاني هي النبيذ وهو شراب خفيف جداً
بالنسبة الى الويسكي .

(٥) الضمير المستتر في جاءتك يعود على الويسكي التي وصفها ابراهيم ولم يسمها . سكسونية الأوطان :

الويسكي تأتي من بلاد السكسون (الانكليز) . موسومة الزجاج بالحصان : من اجناس الويسكي جنس

اسم الحصان الأبيض White Horse .

وفي حزيران ١٩٢٩ تخرج ابراهيم في الجامعة الاميركية برتبة بكالوريوس علوم ٣ . وبعد نيل الشهادة مباشرة دخل المستشفى للمعالجة من آلام جديدة في معدية . وكان والده قد اتى الى بيروت ليشهد ابراهيم يتناول الشهادة على منصة الجامعة ، فبقي الى جانبه حتى ابل ثم توجهها معاً الى مصر لاستشارة اطباؤها في علاج ابراهيم . ولقد يّت ابراهيم في نفسه ان يبحث له عن عمل^١ في القاهرة .

استاذاً في مدرسة النجاح

لم يكن اهل ابراهيم راغبين في ان يعمل ابنهم عملاً كبيراً او صغيراً ، فان صحته لم تكن تتحمل شيئاً من الاجهاد . وكثيراً ما كان ابوه يقول له ، يا ابراهيم ، ألا يكفيك ان تعيش في « بنسيون » عبد الفتاح آغا ؟ على ان ابراهيم نفسه كان يريد ان يعمل ، وكان طموحاً في ما يريد ان يعمل . وأول ما فكر فيه ان يعمل في الصحافة - في الصحافة الاديبة الشهرية لا الصحافة السياسية اليومية على كل حال - كتب إلي يقول^٢ : « بعد سفرك بيومين^٣ ذهبت الى القاهرة للاستشفاء وللنظر في شأن شغلي للسنة المقبلة ولملاقة اخي احمد^٤ ... قابلت صاحب (دار) الهلال ، وأظن ان الشغل قد لا يتيسر هناك إلا بعد ثلاثة او اربعة شهور ... ما تقول يا شيخني في الشغل مقدار سنة في (مدرسة النجاح) فأكون قريباً من الدار قليل الاشغال !!! »

لا ريب في ان اهل ابراهيم كانوا لا يريدون ان يعمل ابراهيم في القاهرة بعيداً عنهم وعن رقابتهم وعن عنايتهم . وهم الذين كانوا يشجعونه على دخول صناعة التعليم ليعلم في مدرسة النجاح في نابلس فيكون قريباً منهم وتحت إشرافهم .

(3) A U B Directory 1953, p: 194.

(١) راجع اخي ابراهيم ، ٣ .

(٢) نابلس ٢٨ تموز ١٩٢٩ .

(٣) كنت انا في العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ اعلم في مدرسة النجاح في نابلس .

(٤) كان اخوه احمد راجعاً من انكثرة بعد اتمام دراسته هناك .

وكتبت الى ابراهيم انصحه بأن يعلم في مدرسة النجاح للأسباب الأنفة الذكر ، فأجابني ١ : « تصحني بأن اعلم سنة ، ولعلي فاعل ... وفي التحرير الثاني ازف إليك أو أنعي إليك (أضح) خبر ارتباطي مع النجاح » . ولقد طلبت منه مدرسة النجاح ان يعلم فيها ٢ ولكنه اختلف مع الادارة على اشياء شكلية فصلها في هذا الكتاب ثم قال : « ومنذ ساعتين دعاني اخي احمد والوالد ليقنعوني بالقبول ٣ ، فرجوتهم ان ابقى هذه السنة بلا عمل طلباً للراحة وتخلصاً من المشاغبة . وانحلت المعضلة على هذا الوجه » . ولا ريب في ان بقاء ابراهيم بلا عمل كان احب الى اهله . غير انه عاد فقبل التعليم في مدرسة النجاح على ما يرغبه هو ٤ ، ومعلماً للغة العربية .

وكان العام المدرسي الذي قضاه ابراهيم استاذاً في مدرسة النجاح في نابلس عام هدوء وراحة ، على الرغم من كثرة اعماله ٥ في العام الاول لدخوله صناعة التعليم . اما في ما عدا ذلك فيبدو انه كان مسروراً مرتاحاً الى عمله ٦ .

رأت الجامعة الاميركية في بيروت ، في بعض ادوارها ، ان تهجج سياسة جديدة ، فارتبطت مع عدد من الشبان المسلمين من متخرجيها في سنوات متوالية منهم رجائي الحسيني وامين نزهة وكنعان الخطيب ومحمد شبقلو وعبدالرحمن البربير وابراهيم طوقان ٧ . ويلاحظ ان هؤلاء كانوا من بلدان مختلفة : من القدس وحلب وحماة وبيروت وبيروت ونابلس على التوالي ، كما ان بعضهم كانوا من اسر معروفة مشهورة في بلدانهم امثال رجائي الحسيني وكنعان الخطيب وعبدالرحمن البربير وابراهيم طوقان . ولقد ادى كنعان الخطيب للجامعة خدمات جليلة جداً لما عرف عنه من الروح الاجتماعية والجرأة الادبية

(١) نابلس ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٣) اي بالناسهل مع ادارة النجاح ، ليقنعوني (اي اهلي) .

(٤) راجع نابلس ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .

(٥) من ملاحظة لبراهيم في حاشية على رسالة من الطالب السيد سمح النابلسي ، نابلس ، ٢٣ تشرين الاول ١٩٢٩ .

(٦) نابلس ، ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .

(٧) من متخرجي الاهوام التالية : ١٩٢٤ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ .

cf. A U B Directory pp. 155 and 156, 183, 191 and 193.

والمقدرة على التحديث . كان كنعان روح الحفلات الاجتماعية التي كانت تقيمها الجامعة ومن اعظم العاملين على نجاحها . ثم ان كنعان الخطيب هو الذي زار الاقطار العربية لاقتناع الاسر الاسلامية ، التي لم تكن بعد قد ارسلت ابناءها الى الجامعة الاميركية ، بان تفعل . ان شبه الجزيرة العربية من نجد الى الحجاز الى الكويت الى البحرين كانت تعد ، بالنسبة الى الجامعة الاميركية في بيروت ، مجاهل حتى استكشفها كنعان الخطيب فتدفق منها الطلاب على صفوف الجامعة المختلفة . ومهمات كنعان المشابهة الى سائر الاقطار العربية مشهورة¹ . ولم يكن ارتباط هؤلاء الشبان المسلمين مع الجامعة الاميركية سبباً من اسباب الدعاية لها في الاوساط الاسلامية فقط ، ولكن بعضهم كان من احسن المدرسين اقتداراً في فروعهم التي علموها . ان كنعان الخطيب و ابراهيم طوقان في اللغة العربية و محمد شبقلو في الكيمياء كانوا شموساً في المعرفة وفي المقدرة على التعليم .

ونجمت الازمة الاقتصادية الخانقة في العالم عام ١٩٢٩ ثم وصلت بعد ثلاث سنوات الى الولايات المتحدة فقلّت اموال التبرعات التي كانت ترد على الجامعة الاميركية في بيروت . عند ذلك فكرت الجامعة في شد الحزام على وسطها واختصار نفقاتها . ويحدث في المؤسسات العلمية ما يحدث في الدوائر السياسية وتستغني الجامعة عن المدرسين « الصغار » : لقد استغنت عن محمد شبقلو و عبدالرحمن البرير و ابراهيم طوقان و امين نزهة و رجائي الحسيني ثم عن كنعان الخطيب نهائياً ، وطلب انيس الخوري^٢ فريحة حالته الى الاستيداع فذهب الى شيكاغو يتابع درسه ريثما تمر العاصفة الاقتصادية فيعود الى عمله الاول ، اذا امكن .

ونعود الآن الى التوفر على الاحوال التي احاطت ب ابراهيم طوقان وهو استاذ في الجامعة الاميركية ثم جعلته يخرج ناقماً عليها اشد النقمة .

ارتبطت الجامعة الاميركية مع ابراهيم طوقان عام ١٩٣٠ باتفاق مداه ثلاثة اعوام

(1) cf. Penrose 301-2.

* A U B Directory 174 ، في الجامعة الاميركية في بيروت استاذان باسم انيس الخوري : الاستاذ انيس الخوري المقدسي والاستاذ انيس الخوري فريحة .

مدرسية: ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣١ - ١٩٣٢ و ١٩٣٢ - ١٩٣٣، ولكنه اضطر الى الاستقالة بعد عامين اثنين، ولا ريب في ان العامل الاول في هذه الاستقالة يعود الى نفرة شخصية بينه وبين استاذ كان له يومذاك تأثير عظيم في توجيه سياسة الجامعة. ولكن لا يجوز لنا التوسع في هذه النفرة الشخصية في هذا المكان، ذلك لأن اعتمادي في تفصيل اخبارها الخطيرة سيكون مستنداً الى «معلوماتي الشخصية». ان ابراهيم لم يكتب الي رسائل في المدة التي قضاها في الجامعة الاميركية استاذاً، ذلك لأننا كنا نعيش في بلد واحد. ولكنه على كل حال كان يخبرني ما يجري بشأنه تباعاً وتفصيلاً. ولقد اتفق ان ذكر ذلك في احدي رسائله^١. ذكر انه قال لانيس فريجة^٢ في معرض حديث طويل: «ولكن عمر (مؤمن) ولا يُبلغ من جحرٍ مرتين^٣ - وانا ملدوغ المرة الاولى - وهو مطلع على كل تصرفات الكلية^٤ معي».

على ان الجامعة الاميركية كانت تزعم ان في ابراهيم عيوباً مسلكية، اشير اليها في سجله الجامعي بنقاط، رمادية وسود^٥، هي التي جعلتها تفكر بالألا تجدد عقده اذا انتهى اجله. ولكن ابراهيم استبق الحوادث واستقال قبل انتهاء اجل العتد بعام كامل. من هذه المزاعم ان ابراهيم لم يكن جلدأ على العمل التعليمي، وانه لم يبرهن على انه قادر على القيام بجهد للتأليف الجامعي، وانه كان مريضاً بأمراض تجعله غير قادر على تحمل مشاق صناعة التعليم فضلاً عن ان تلك الامراض كانت تضطره احياناً الى الانقطاع عن التدريس. ولقد كان موقف الجامعة هذا مستنداً الى تقرير نظمه الاستاذ الذي كان بينه وبين ابراهيم نفرة شخصية.

على ان هذه كلها مزاعم كما قلت ولم يكن لها ثقل كبير في ميزان ابراهيم، لأن الجامعة نفسها عادت فرغبت في الارتباط مع ابراهيم من جديد.

(١) نابلس، ١٤ ايار ١٩٣٣.

(٢) cf. A U B Directory 1953, p. 174، فريجة.

(٣) اقتباس من حديث شريف: «لا يبلغ المؤمن من جحر مرتين»، اي لا يخضع مرة بعد مرة.

(٤) الجامعة الاميركية لا يزال اسمها الاول «الكلية» (السورية الانجيلية) غالباً عليها ودائراً على الالسنه.

(٥) مجلة الكلية، نيسان ١٩٤٦، ص ٩.

قال ابراهيم ١ : اليوم صباحاً زارني في الدائرة ٢ حليم نجار . وهو من هؤلاء القلائل الذين احببتهم بين زملائي المعلمين في الجامعة . ودار البحث عن الكلية ٣ فود لو اعود اليها . فاخبرته ان حبيب كوراني ٤ كان حضر لنا بلس منذ اسبوعين وعرض برجوعي الي الجامعة ، وقال ان الاستاذ انيس ٥ لا يبرح يذكر ايام شغلي وأنه لا يتصور ان يشتغل الا مع ابراهيم طوقان . وكان البحث بيني وبين الكوراني يدور حول الظروف التي احاطت بتقديم استقالتي ، وحبيب يراها ظروفأ لا تدعو الى الاستقالة »

ويؤكد ما يقوله هنا الاستاذ حبيب كوراني ما قاله الاستاذ انيس المقدسي نفسه لما قال كلمته الرثائية في ابراهيم طوقان ، قال ٦ :

« وفي سنة ١٩٣٠ عينته الجامعة مدرساً في الدائرة العربية فكان مثال الاجتهاد والامانة . وقد استطاع برفيع ادبه وحسن سجاياه ان يكتسب محبة الطلاب وثقة الرؤساء والزملاء . وكان يرجى ان يكون له شأن كبير في حقل التدريس الجامعي حتى توجهت الانظار الى ترشيحه للتخصص العالي في احدى جامعات اوروبة وإعداده لمستقبل علمي زاهر . » ولكن الزمان لم يسمح بذلك فقد اخذ يشكو من قرحة في معدته اقصت مضجعه وحرمة خدمة الجامعة والعلم ، و اشار عليه الاطباء بالراحة وملازمة العلاج فاضطر الى ترك الجامعة بعد خدمة ستين والعودة الى فلسطين »

هذا ما يقوله الاستاذ انيس المقدسي استاذ الدائرة العربية في الجامعة الاميركية - وكان ابراهيم طوقان يعمل معه - والاستاذ المقدسي في غنى عن ان يمالء ابراهيم طوقان . ولو كان سلوك ابراهيم العلمي او التعليمي يحتمل الغمز لأغفل الاستاذ المقدسي ذكر سلوكه هذا جملة ولما ورط نفسه في شيء قد يحتاج يوماً الى ان يحاسب فيه نفسه .

(١) نابلس ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٢) دائرة المياه في نابلس .

(٣) الجامعة الاميركية في بيروت .

(٤) استاذ التربية في الجامعة الاميركية ومن المتصلين بدارتها ، فقد كان زمناً « مسجلاً » فيها .

(٥) الاستاذ انيس المقدسي .

(٦) الامالي المجلد الثالث ، العدد الرابع ، ص ٣ .

وعلى كل ، فان هذا طرف من الاحوال التي احاطت بابراهيم طوقان في الجامعة الاميركية . اما الطرف الآخر فيحسن السكوت عنه الآن ، لأنه لا يتصل اتصالاً كبيراً بشعر ابراهيم .



لا ريب في ان ابراهيم رغب في العمل في الجامعة الاميركية في اول الامر لما في مثل هذا المركز من الواجهة ومن الفرص العلمية والادبية . على ان هنالك سبباً آخر كان اعظم اهمية في رأي ابراهيم : حبه لبيروت وكرهه لنابلس ، كانت نابلس لا توافقه صحياً . قال في صدد امكان عودته الى الجامعة الاميركية ما يلي^١ :

« وانا - على كل حال - اذا اردت ان اعود الى الكلية فعودتي اليها مطلوباً لا طالباً . . . انا يا عمر لم اكون جسمي في نابلس بل في القدس خمس سنوات وفي بيروت ثمان ، من سن ١٣ - ٢٧ ، وهذا أثر في صحي العامة . فلو تراني اليوم في حال من الحالة الصحية لعجبت لي كيف ارضى بالاقامة في نابلس . واليك مثلاً صغيراً : غبت عن نابلس في لبنان وفي الشام خمسة عشر يوماً . فلما رجعت ، واقسم لك بالله ، ما شربت الشربة الاولى من مياه نابلس حتى ابتدأ معي مغيص المعدة الذي فارقني طيلة غيابي عن نابلس ! فما رأيك ؟ فاذا كان لي ان ارجع الى بيروت فذلك فراراً من وضعيتي في نابلس » .

وتعليل هذه النفرة من نابلس سهل : ان مياه نابلس كثيرة الرواسب من المواد الكلسية والقلوية ، اضف الى ذلك انها لم تكن قبل عام ١٩٣٦ قد جرت الى البيوت بأنايب ، فكانت دائماً معرضة للتلوث . وبما ان ابراهيم كان مصاباً بالقرحة وكان في امعائه استعداداً لانواع الالتهاب ، فان مياه نابلس لم تكن توافقه قط لما فيها من مواد كلسية وقلوية ولا مكان تلوثها بالجراثيم المختلفة . ويبدو ابراهيم نفرة من نابلس في عدد من رسائله .

وفي بيروت - في هذه الفترة - عرف ابراهيم المستشرق نيكل^٢ . والدكتور نيكل ولد

(١) نابلس ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٢) A. R. Nyki عبد الرحمن نيكل .

عام ١٨٨٥ في بوهيمية ، احدى المقاطعات التي نشأت منها جمهورية تشيكوسلوفاكية بعد الحرب العالمية الاولى . وفي عام ١٩١٦ تخرج من جامعة شيكاغو برتبة دكتور في الفلسفة . ولقد كان منذ ذلك الحين قد استقر نهائياً في الولايات المتحدة .

والدكتور نيكل متوفر على دراسة الآداب العربية ودراسة الصلة بين الموشحات الاندلسية ونشأة الشعر البروفسالي^١ . وقد زار الدكتور نيكل العالم كله وقضى مديداً مختلفة متفرقة في المغرب ومصر ولبنان وسورية ، وهو كاتب خصب فياض القريحة يجيد لغات متعددة منها التشيكية والفرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية والعربية واليابانية وهو يقرأ ويتحدث ويكتب بهذه اللغات كلها . وللدكتور نيكل اهتمام بالاسلام وبالدراسات الاسلامية ، ولقد نقل القرآن الكريم الى اللغة التشيكية فطبع مرتين عام ١٩٣٤ و ١٩٣٨ . وساعد ابراهيم الدكتور نيكل في نشر « كتاب الزهرة » لابن داوود الاصفهاني ، وهو مجموع شعر بارع^٢ . ولقد وفي الدكتور نيكل ابراهيم حقه من الاطراء في مقدمة كتاب الزهرة .

وفي هذا الدور عرف ابراهيم راقصة اسبانية تدعى مرغريتا كانت تعمل يومذاك في مقهى النجار ، غربي ساحة البرج ، في بيروت . ويذكر الدكتور نيكل^٣ انه حضر مع ابراهيم حفلة واحدة من حفلات مرغريتا رقصت فيها رقصاً اندلسياً بالصنوج الصغار . وقد تدلته ابراهيم بهذه الصبية الصغيرة الفاتنة التي كانت تمثل الجمال الاندلسي^٤ ، تمثيلاً صادقاً . وكان ابراهيم يتطلع اليها وهي ترقص مأخوذاً « سكران من غير خمير » . ويبدو انها كانت قد اصيبت في قلبها من قبل فخاها من احبته فكان يسرها ان ترى معجباً

(١) او شعر الشعراء التروبادوز في جنوبي فرنسه السابق على نشأة الآداب الحديثة في جنوبي اوروبية وغربها . راجع مجلة الإمالي ، السنة الاولى : العدد ٤ ، ص ٤ - ٦ ؛ العدد ٥ ، ص ٤ - ٦ ؛ العدد ٦ ، ص ٤ - ٦ .

(٢) نشرته جامعة شيكاغو وتولت طبعه المطبعة الكاثوليكية في بيروت (١٩٣٢) .

(3) Cambridge, Mass., U.S.A., August 14, 1954.

(٤) الاندلس في الاصل مقاطعة في جنوبي اسبانية . وكثر اختلاط اهل هذه المقاطع بالمرب نشأ من هذا الاختلاط الجمال الاندلسي المشهور .

بها مخلصاً . لذلك كانت تخصه - وهي تقوم برقصاتها - بإشارات من مروحتها مقرونة بكلمات تدل على انها تبادل هذا المحب المعجب إخلاصاً باخلاص . وعرفت مرغريتا في بيروت عاشقاً غنياً كانت تُطعمه بنفسها طمعاً بماله ، اما في ما عدا ذلك فقد كانت حذرة يقظة تجسن اختيار الذي تلقي عليهم شباكها - كسائر ابناء جنسها . الا ان صلتها بابراهيم كانت بلا ريب صلة إعجاب صحيح وإخلاص عميق .

واجتمع ابراهيم الى مرغريتا اجتماعات كثيرة وجلس اليها مجالس انس متعددة ينهل من فنتها . ولقد كانت من المنتظر في مثل هذه المجالس ان يتناول المجتمعون شيئاً من الشراب لخلق جو يعيد الى الذاكرة ايام بغداد ووالي الاندلس . وحتى ذلك الحين لم يكن ابراهيم قد أدمن على الخمر .

وتطورت صلات ابراهيم بمرغريتا حتى انتهت الى ما يُنتظر ان تنتهي اليه . ففي مجون ابراهيم قصيدة - او مشهد على الاصح - يُنحي فيه باللائمة على بني عُذرة لأنهم يحبون حباً روحياً ويسفه رأيهم . ثم يختم هذه القصيدة بمقطع تمثيلي يصف فيه وصال مرغريتا . ويبدو ان هذه القصيدة نظمت في منتصف عام ١٩٣٤ ، وبعد ان غادر ابراهيم ومرغريتا والدكتور نيكل كلهم بيروت .

وحمل الدكتور نيكل معه الى الولايات المتحدة صورة ابراهيم المولته بحب مرغريتا . يقول ابراهيم في احدى رسائله (نابلس ١٩٣٤) :

« الدكتور نيكل رجع الى اميركا . و آخر ما بعث به إليّ كرتين بريديين على كل منهما غانية اندلسية ... وكتب لي عليهما باللغة الاسبانية . »

وتوثقت صلة ابراهيم في هذه الفترة ايضاً بعدد من الاصدقاء ارى ان اقتصر منهم على ثلاثة فقط : جمال القاسم وصديقان آخران .

جمال القاسم شاب من ابناء البيوتات المعروفة في نابلس وصديق وفي لآل طوقان ومن المعجبين بابراهيم وبشعره . وجمال القاسم « صديق » بالمعنى العربي الخالص في السعة

(١) الدفتر ١٩٣٣ ، ص ١١-١٣ .

والضيق على السواء ومن ذوي الاخلاق الكريمة . وكثيراً ما كان ابراهيم اذا سُم من نابلس ذهب الى بيارة ١ جمال القاسم في حيلة (قرب قلقيلية من قضاء طول كرم) ، كتب ابراهيم مرة في هذا الشأن ٢ : « كنت في بيارة جمال القاسم اربعة عشر يوماً ثم عدت الى نابلس لأسافر منها الى القدس واقيم اسبوعين ، فانا غائب عن نابلس شهراً بلياليه » .

واما الصديقان الآخران فاحدهما من فلسطين والآخر من سورية . وهذان شاعران تغلب عليهما المجاعة . و ابراهيم نفسه يصف اولهما بالرعونة ايضاً ٣ . واما الثاني فلا يرى الحياة الا في التهلك والفسق ٤ .

عرف ابراهيم هذين الصديقين في عام ١٩٣١ فدلاه على طريق الملدات المستأجرة ودلياه في الشراب وفي مطاردة المحصنات والمتزينات للرجال . يتكلم ابراهيم عن هذين الصديقين في احدي رسائله فيقول ٥ :

« ... ولذلك لم اهتم بالتنقل في الجبل بل فضلت القرار في مكان ٦ اللهم الا (مشوار) للجامعة قضيت فيه مهمة لقدري ٧ ... ومشوار نزلت فيه مع ... في طاعة ابليس . ثم ذهبنا الى الشام من ٢٠ - ٢٥ آب ، وهناك انفدنا ما كنا ادخرناه في الجبل من صحة وقوة ومال دفعناه لبنات امية اكراماً لعيني الوليد بن يزيد وذوابتي حباة ٨ . يا روحي على دمشق ... » .

وقد ترك ابراهيم مجموعة من الشعر في المجون يدور اكثره على هذين الصديقين ووصف اعمالهما في هذا الباب لا ارى ان استشهد منه بشيء .

(١) البيارة بستان برتقال ، وفيه عادة اسباب للسكنى والراحة .

(٢) نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣

(٣) القدس ، ١٣ تشرين الاول ١٩٣٨ .

(٤) نابلس ، ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٥) نابلس ، ٢٣ ايلول ١٩٣٤ .

(٦) في مكان واحد من الجبل (لبنان) .

(٧) قدرتي طولقان .

(٨) يقصد ابراهيم يزيد بن عبدالمالك وكان قد شغف بجاريتين اسم احدهما سلامة واسم الاخرى حباة

(الفخري ٩٥) .

في معارف فلسطين

على ان ابراهيم لم يعد الي العمل في الجامعة الاميركية مرة ثانية ، بل عُين في المدرسة الرشيدية في القدس ، وهي مدرسة حكومية . ولم يجد ابراهيم صعوبة في « نيل منصب معلم في مدرسة رسمية » . وهذا ما حمله على ان يكتب الي فيقول ^١ : « امر استخدامي في المعارف مفروغ منه ، إلا ان المكان لم يعين لي بعد ، وعلى الاغلب اكون في القدس في المدرسة الرشيدية » .

وبعد نحو شهر عاد ابراهيم فكتب الي يقول ^٢ : « لقد تم تعييني في المدرسة الرشيدية



وسأكون انا واحمد معاً في دار واحدة » . وقبيل افتتاح موسم التدريس كتب يقول ^٣ ، « يتدىء التدريس عندنا في الثالث من اكتوبر . ويكون عندي ٢٨ حصة . ومواضيعي قواعد وانشاء وقراءة ومحفوظات ، واربع حصص تاريخ العرب » .

ولم ير اهل ابراهيم بأساً في ان يعود ابراهيم الي صناعة التعليم وان يعيش في القدس بعيداً عن « الدار » ، فقد كان اخوه احمد استاذاً في الكلية العربية في القدس ، وقرر ان يعيش احمد و ابراهيم في بيت واحد كما رأينا . ولكن ابراهيم لم يمكث في المدرسة الرشيدية سوى ثلاثة

اشهر ، هي الاشهر الثلاثة الاخيرة من عام ١٩٣٢ ، ثم ساءت حالته الصحية واضطر الي اجراء العملية الجراحية الكبرى في معدته في اوائل كانون الثاني من عام ١٩٣٣ ^٤ . وفي الثاني من

(١) القدس ، ١٣ تموز ١٩٣٢

(٢) القدس ، ١٠ آب ١٩٣٢ .

(٣) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٤) راجع قصة مرضه ، ص ١٩ وما بعدها .

شهر شباط خرج ابراهيم من المستشفى ومنحته حكومة فلسطين اجازة شهر . ولكن ابراهيم كان قد قرر ان يستقيل مرة واحدة من صناعة التعليم فكتب الي يقول ^١ : « ينقضي الشهر ، وهو شهر شباط ، فاكون قد قدمت استقالي لحكومة فلسطين مطلقاً مهنة التعليم طلاقاً لا رجعة فيه » . فعلاً استقال نهائياً وترك التعليم ^٢ ولكن الى حين .

في هذا الدور القصير اكتسب ابراهيم عداوة احمد سامح الخالدي .

احمد سامح الخالدي مؤسس الكلية العربية في القدس ومن رجال التربية والتعليم الذين كان لهم اكبر الاثر في توجيه المعارف في فلسطين . وتوثقت الصلة بين آل طوقان وآل الخالدي لما تزوج احمد طوقان ، اخو ابراهيم ، في اوائل شهر آب من عام ١٩٣٢ ^٣ بنت نظيف الخالدي الذي كان مهندساً لسكة حديد الحجاز وساكناً في بيروت حيث توفي في منتصف الحرب العالمية الاولى . ومن طريق هذا الزواج اصبح احمد طوقان « عديلاً » للدكتور حسين الخالدي وصديقاً ل احمد سامح .

وكانت الصلات بين احمد سامح وبين ابراهيم دائماً حسنة اذ كان احمد سامح معجباً بابراهيم وصديقاً له منذ كان ابراهيم في بيروت ، وكان احمد سامح يتردد عليها لأنه متزوج في آل سلام . ويبدو ان النفرة بين الرجلين بدأت مع دخول ابراهيم في معارف فلسطين ، مع العلم بان احمد سامح كان قد ساعد ابراهيم على تحقيق هذه الرغبة . كان احمد سامح ^٤ - كما يبدو - رجلاً يحب السيطرة ويرى فرض آرائه في جميع الاعمال التي يتولاها . ولا غرو فجميع الرجال الذين يتولون مناصب ذوات تبعة يفعلون ذلك . وكان ابراهيم ذاهباً بنفسه في كثير من الامور لأنه لم يطلب منصب معلم في المدرسة الرشيدية - ولا في الجامعة الاميركية من قبل ^٥ - ليكسب معاشه ، فقد كان في غنى عن ذلك كله .

(١) القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٢) نابلس ، ١٠ آذار ١٩٣٣ .

(٣) القدس ، ١٣ تموز ١٩٣٢ والقدس ١٠ آب ١٩٣٢ .

(٤) احمد سامح الخالدي من كبار المربين في العالم العربي ، كان رئيس الكلية العربية في القدس واحد

مساعد مدير المعارف العام في فلسطين يتولى الناحية الفنية ، اما الناحية الادارية فكان يتولاها جبرائيل كاتول . وكان للشؤون اليهودية في وزارة المعارف مساعد آخر يهودي .

ولكنه آثر ان يعمل دائماً كيلا يبقى عاطلاً من العمل لا يدري كيف ينفق وقته . من اجل ذلك لم يكن كثير المداراة للاشخاص الذين كان يتصل بهم في نطاق وظيفته . ثم انه كان .- اذا تحركت آلام معدته - سريع التأثر تثيره الامور العادية وتغضبه الملاحظات اليسيرة . ونامت النفرة بين احمد سامح وبين ابراهيم حتى عام ١٩٣٤ حينما جرت الانتخابات البلدية في انحاء فلسطين ثم عين الدكتور حسين الخالدي في مطلع ١٩٣٥ رئيساً لبلدية القدس . ويفصل ابراهيم في احدى رسائله^١ السبب الذي ادى الى تلك الاستفاقة والمناسبة التي لابستها فيقول :

« اخي عمر !

« اسمع . الجديدة حامية بيننا وبين احمد سامح الخالدي . هنالك كتاب المحفوظات تقدم الى لجنة اختيار الكتب وهو باسم ابي سلمى^٢ واسمي . وكفى ان يكون اسمي عليه لتبذل المساعي في رفضه ولو كان فيه خلود معارف فلسطين . والاسباب سياسية (. . . .) ، من عهد الانتخابات البلدية وبضعة ابيات من الشعر قيلت في الموضوع^٣ فلم تكن على مزاج الفائزين بالبلدية اولاد الخالدي . حتى اخونا احمد طوقان لا ينظر الينا بعين الرضى ، وكرمال عين^٤ فكيف وهذه العين خالدية (احمد عديل الدكتور الخالدي رئيس بلدية القدس الآن) . انا ارى ان يحذف اسمي من الكتاب ولا يبدو عليه اثر منه لأنه سيكون مقضياً عليه لا محالة » .

ووقف احمد سامح في وجه ابراهيم وقاوم تقرير كتاب المحفوظات المذكور في معارف فلسطين . فلم يثر ابراهيم هذه المرة بل ظل هادئاً وعدت القضية - قضية الكتاب -

(١) نابلس ، ١٩٤٠ شباط ١٩٣٥ .

(٢) عبد الكريم الكرمي .

(٣) لم استطع ان اعرف الابيات التي نظمها ابراهيم في هذه المناسبة .

(٤) مقطوعة من المثل العامي : كرمال عين (اكراماً لعين واحدة) تكريم مرجعون (اسم بلد) كناية عن الكثرة .

متهمية . اما النفرة فتحولت الى عداوة كان ابراهيم يرى انها لا تضره هو لأنه غير محتاج الى الكتاب ولا الى احمد سامح . وهكذا كتب يقول ¹ :

ليس الامر بيني وبين احمد سامح بالامر المهم عندي انا ولكن عنده هو (وانت لا تعرف اخلاقه) وهو يسيء الظن في مسائل ابعدها ما تكون مناسبة عن حقيقتها وعمما يفسرها ويجتهد فيها . والله في خلقه شؤون ، كتاب محفوظات صغير لي ولأبي سلمى يقول صراحة : « لن يمشي » فتأمل . ويمر اول امس بنابلس فيشيخ بوجهه عني »
وبعد ان خرج ابراهيم من المستشفى واستقال من معارف فلسطين استجم بضعة اشهر ثم عمل في دائرة المياه التي كانت تابعة لبلدية نابلس . ولقد حملته الفرحة من التخلص من التدريس على ان يكتب الي ² : « انا اشتغل الآن . شغلي يتعلق بأول الاشياء التي تنفي عن القلب الحزن ³ : اشتغل بدائرة المياه في نابلس . الشغل لا يوجد فيه تصليح دفاتر والسلام . . . المعاش مليح » . على ان اعمال دائرة المياه شغلته فيما بعد كثيراً ، ذلك لأن مشروع المياه كان لا يزال في اوله ، فنابلس الى ذلك الحين لم تكن تتمتع بمياه تجري الى البيوت . ومنذ شباط ١٩٣٥ شعر ابراهيم بكثرة العمل وخصوصاً بعد ان جعل ينظم حسابات المصنبة التي يملكها والده عبدالفتاح آغا وعمه في نابلس . من اجل ذلك لا يستغرب احد اذا رآه يقول في احدي رسائله ⁴ : « شواغل ، شواغل ، شواغل ، يا عمر ! دائرة المياه ، وطوفان الامطار في نابلس (ولعلك قرأت عنه) والمصنبة » .

وفي رسالة تالية ، بلا تاريخ ⁵ ، يخبرني ان نجاح مشروع المياه في نابلس مطرد

(١) نابلس ، ١٣ نيسان ١٩٣٥ .

(٢) نابلس ، ٣١ تموز ١٨٣٣ .

(٣) من ابيات الشعر السائرة :

ثلاثة تنفي عن القلب الحزن : الماء والحفرة والوجه الحسن ا

(٤) ١٩ الشهر الملعون ١٩٣٥ .

(٥) هذه الرسالة يجب ان تكون قد كتبت في حزيران او تموز من سنة ١٩٣٥ لأنه يذكر فيها انني رشعته للتلاميذ مكاني في كلية المقاصد ويمتد عن قبول النصب ، وانا غادرت بيروت الى المانية في اواخر آب ١٩٣٥ . ولكنه يذكر فيها ايضاً انه على وشك الفراغ من نظم قصيدة « الشهيد » التي يفهم من الديوان انها كتبت في ١٩٣٣ (للذكرى الرابعة لثلاثاء الحمراء في تموز ١٩٢٩) . ولا ريب في ان ١٩٣٥ اصح من ١٩٣٣ هذه الرسالة ولقصيدة الشهيد .

اطراداً حسناً بعد ان تم ورأت البلدية ان تستغني عن المهندس الذي سيّر المشروع . يقول ابراهيم في هذه الرسالة : « ومعنى ذلك انني انا مدير الدائرة فعلاً وان كنت كاتباً فقط ... وربحُ المشروع المنتظر يحتمل ان يزيد راتي (منه) . وما ذلك على رئيس البلدية بعزير^١ » . غير ان ابراهيم ما لبث ان استقال من دائرة المياه وانصرف الى تنظيم حسابات المصنبة . ولقد اخبرني في ١٧ تشرين الاول ١٩٣٥ انه كان قد استقال من دائرة المياه وانه « يداوم على المصنبة كل يوم من الساعة السابعة حتى الواحدة بعد الظهر ويرجع عند العصر الى نحو الثامنة مساءً ، عملاً بحكمة زعيم الخلفاء الراشدين عمر رضي الله عنه حين قال : التجارة ثلث الامارة ، ولا بأس من مزاوله بعض الاعمال التجارية الآن فيها تسلية وفيها فائدة ايضاً ، ولعلي اخبرتك انني استقلت من عملي في بلدية نابلس فاصبح ضرورياً ان املأ الفراغ المضجر المفسد^٣ بما ينفع ويحفظ فينا القوة على العمل والاتاج » .

في الاذاعة الفلسطينية

وفي اواخر عام ١٩٣٥ كانت الحكومة تعد العدة لانشاء محطة اذاعية وتبحث عن اشخاص يتولون امورها . وكان ابراهيم احد هؤلاء الاشخاص ، قال في رسالة له^٤ : « حكومة فلسطين جادة في انشاء محطة اذاعة لاسلكية يذاع منها باللغات الرسمية الثلاث العربية والانكليزية والعبرية . والبرنامج يحتاج الي موظفين جدد . وكل لغة يحتاج برنامجها الى مدير . والمدير يجب ان يكون شخصية ادبية معروفة في البلاد ومن اصحاب المكانة فيها . ولا ادري كيف تم الامر ، ولكنني لم اجد نفسي الا في جلسة غير رسمية مع

(١) كان رئيس البلدية في ذلك الحين سليمان بك طوقان احد اقارب ابراهيم .

(٢) الرسالة مؤرخة في ١٦/١٠/٣٥ نابلس . ولكن نصفها الثاني الذي يقص فيه هذا الخبر مؤرخ في ١٧/١٠/٣٥ .

(٣) اشارة الى بيت من ارجوزة ابي العتاهية :

ان الشباب والفراغ والجدة . مفسدة المرء اي مفسدة

(٤) نابلس ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

المستر فيرنس^١ الانكليزي مدير المطبوعات ، في فندق الملك داوود بالقدس ، ومعه آخر هو مدير استخبارات الجيش وقسم الطيران منه . الجلسة عادية لا رسميات فيها مطلقاً ولا سؤالات تتعلق بعمل او باي شيء سوى ما كان من استغراب الرجل وزميله من ان يكون ابراهيم طوقان ، صاحب القصائد المهيجة بهذا الجسم الضئيل ، وكان يُظن قوي العضل ضخم الجثة على رأسه عمامة . فقلت ما معناه : ترى الرجل النحيف فتزدريه . . . الخ^٢ . وذكرنا كلمة يوليوس قيصر في كاسيوس النحيف وبروتوس الجسيم !!^٣ .

انقضت الجلسة واصبح الصباح واذا بمستر فيرنس يوعز لاحسان هاشم؛ كي يحملني على تقديم الطلب لمركز « مدير برنامج الاذاعة العربي » ورتبته (Senior K) وهو درجة اولى بيتديء براتب قدره ٢٩ جنيهاً شهرياً . وقدمنا الطلب حسب الاصول ، وهانحن ننتظر شيئاً جديداً في عالم السعي في طلب الرزق ، والباب الذي يفتحه الله لا ينبغي للعبد ان يغلقه ، ولعل الله ييسر ، فالمركز طيب والمبالغ لا يستهان به والمسؤولية فيه لا تكبد حاملها كبير تعب وعناء .

وسكت القائمون على « مصلحة الاذاعة » . نحو شهرين ثم عادوا الى ابراهيم . يقول ابراهيم في رسالة بعث بها الي من عمان ° . -
« لا يوجد شيء أعض على المرء من الانتظار . ولا يوجد ما يعرقل العمل والبرنامج

(1) Furness.

(٢) ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي اثوابه اسد مزير
مطامع مقطوعة تتألف من تسعة ابيات للعباس بن مرداس ، وهو شاعر مخضرم وصحابي جليل . وقد اختار ابو تمام هذه الابيات في ديوان الحماسة .

(3) Tragedy of Julius Caesar, I, ii:

Yond Cassius has a lean and a hungry look ; He thinks too much : Such men are dangerous.

ان لكاسيوس الواقف هنالك وجهاً مسنوناً (اعجب ، نحيلاً) ونظراً ضارياً (جائعاً ، طامحاً) . انه يفكر كثيراً : والناس الذين هم مثله خطرون .

(٤) احسان شاكر هاشم ، كان من ١٩٣٤ - ١٩٣٦ السكرتير الخاص للندوب السامي في فلسطين

A U B Directory 1953, p 201

(٥) عمان ، ٤/٢/٣٦ .

كالانتظار . اقول ذلك على اثر ما حصل مما حدثك عنه ، اعني (الاذاعة العربية لحكومة فلسطين) . فهذه بعد ان قابلت الجماعة المسؤولين وحصل القبول استولى عليهم نوم عميق كنت انا خلاله ساهراً وبعد مضيّ ما يقرب من اربعين يوماً عادوا وطلبوني للمقابلة وسألوني هذا السؤال البارد : هل انت مستعد لقبول هذا المركز ؟!! فأنصفتني ، يا اخي ، من هؤلاء السخفاء ! ولا بد من القول أنني كنت اتحسس الاخبار فأجد انهم على اتصال مع اناس آخرين يفاوضونهم في المشروع ذاته ويقابلونهم ويقارنون بيننا أينما الاصلح ، فيرجعون ويرون اني الاصلح لولا اني مهذب بحالات صحية يخافون من عواقبها على العمل ان يتعرقل ، ومن السخف ان اقول يخافون من عواقبها علي انا وكان قد تقدم اليهم طلبات عديدة منها ما هو موعز به من قبل دائرة المعارف !! واخيراً - على ما ظهر - قر قرارهم على اخذني وحولوا اوراقني للمندوب السامي ليوافق عليها ، وها انا اتوقع ان ادعى الى العمل في كل وقت . وقد تركت في فلسطين التعليمات اللازمة حين يحصل ما يستوجب استدعائي من عمان حيث انا الآن عند اخي احمد اقضي اياماً لا بأس بها .

وفي آذار ١٩٣٦ تسلّم ابراهيم إدارة برامج اللغة العربية في الاذاعة الفلسطينية ، وقد سر بعمله الجديد كثيراً لأن «مثل هذا العمل يوافق ذوقه ويمشي مع ميوله ٢» ، وبلغ من سروره ان كتب الي يقول ٣ ،

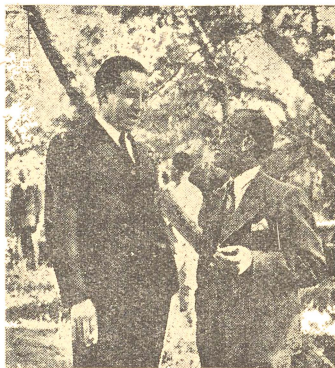
«أسرعت بالكتابة اليك غير مفصل لكي ألحق بك في باريس قبل سفرك منها ويصلك كتابي قبل مغادرتها . انا الآن مدير البرنامج العربي في مصلحة الاذاعة اللاسلكية بفلسطين .

(١) الصواب نحو شهرين .

(٢) اخي ابراهيم ٧٥ .

(٣) هذه الرسالة بلا تاريخ . وهو يذكر فيها عنوانه الجديد : بانديون المازي ، القدس ، صندوق البريد ٦٦٢ . ان محطة الاذاعة الفلسطينية افتتحت في الثلاثين من آذار ١٩٣٦ (المتدى المجلد الاول ، العدد الثامن ، الجمعة ٢٩ آذار ١٩٤٦ ، ص ١٣٤٨٠٦) . وفي هذا العدد نفسه من «المتدى» قالت فدوى طوقان : « ففي مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات نقل الاثير على امواجه لأول مرة في تاريخ اذاعة القدس ، اول صوت عربي الى فلسطين خاصة ، والى الاقطار العربية عامة ولم يكن ذلك الصوت الحبيب الا صوت اخي ابراهيم - رحمه الله - (ص ١٠) فالرسالة اذن يجب ان تكون قد كتبت في نيسان ١٩٣٦ .

وقد بعثت اليك بكتاب في ذلك الى عنوانك القديم ببرلين ولم ارك اشرت إلا الى كتابي الذي بعثت به اليك من عمان قبل ان استلم عملي . العمل لذيذ وان كان لا يزال كثيراً



ابراهيم طوفان (الى ابن القاري) يتحدث الى يحيى البايدي وهما موظفان في الاذاعة

متعباً باذىء ذي بدء ، وعسى ألا يمضي وقت طويل حتى يكون كل شيء جرى مجراه وهان الصعب فيه» .

(زواج ابراهيم)

لم يتزوج ابراهيم باكرآ . وذلك راجع بلا ريب الى ان حالته الصحية كانت دائماً سيئة ويخشى ان يزيد بها الزواج سوءاً - مع العلم بأنه كان ينهك قواه احياناً كثيرة . على ان والده حينما كان يعارض زواجه كان يحتج لمعارضته تلك بأن ابراهيم لم يكن قد استقر مادياً بعد . كتب ابراهيم مرة يقول :

« لا ادري كيف فهمت من تحريري انني اسعى لأتمم مسألة الزواج . اظن ان هذا

(١) القدس ٧ اغسطس ١٩٣١ .

بعيد . والوالد ، كما قلت لك مرة ، لا يوافق عليه ما دامت مادياتي غير مكفولة . ويزيد هذه الفكرة^١ رسوخاً في ذهنه (وذهني ايضاً) ما شجر بيننا في الجامعة من الخلاف وترك مسألتي معلقة لا يعرف لها مصير . »

ولكن في عام ١٩٣٦ استقرت حالة ابراهيم الصحية وحالته المادية ايضاً ، فاخذ يفكر في الزواج . كان يعمل في ذلك الحين في الاذاعة الفلسطينية (الاذاعة العربية للحكومة فلسطين) . وكانت تتردد على الاذاعة آنذاك فتاة تلقي الحديث بعد الحديث فاعجب بها ابراهيم جداً وعزم على الزواج بها وكتب ذلك عن اهله وعني ايضاً حتى تمت جميع المقدمات . قال في احدي رسائله^٢ :

« ... وعولت على الزواج باذن الله تعالى وتوفقت جداً في الوقوع على نصفي الجميل الذي اتمم به نصف ديني . ومنذ ثلاثة ايام ، اي مساء الخميس الموافق ٤ آذار الجاري ، قدمت هدية الخطبة الرسمية . وفي خلال الايام الباقية من هذا الشهر يكتب كتابي . المدموزيل هي شقيقة روجي بك عبد الهادي . وانت ترى ان اليمانية (نحن) والقيسية (بيت عبد الهادي) قد عقدوا الاكف على نسيان خصوماتهم التي يرجع عهدها الى حرب بكر وتغلب ، والنزارية واليمانية .

« وانت تعلم انني ارفض كل الرفض ألا اكون شاعراً في اختيار عروستي . وانا اؤكد لك انني كنت شاعراً كل الشاعر ، وان العروسة لا تقبل ابدأ عن عادة هيفاء حسناء يتتبعها خيالي الغزلي . اما العيون فهي من النوع الذي قيل فيه (منصورة الاجفان بالانكسار) ، واما الخصر فهو في غاية الاختصار . »

اما العروس فهي ساميه بنت قاسم عبد الهادي ، واخت روجي باشا^٣ عبد الهادي (ت ١٩٥٤)

(١) الاضراب آتياً عن الزواج .

(٢) القدس - هذه الرسالة بلا تاريخ ، ولكنها كتبت في ٧ آذار ١٩٣٧ لأن ابراهيم يذكر فيها قوله : منذ ثلاثة ايام ، اي مساء الخميس الموافق ٤ آذار الجاري ... ثم ان هذه الرسالة وصلت الي وأنا في قرية فليسبيرغ بالمانيه في ١٢ آذار ١٩٣٧ .

(٣) نال روجي بك عبد الهادي ايضاً رتبة الباشوية من اماره شرقي الاردن .

كما مر . وهي فتاة مثقفة تلقت علومها في كلية البنات الانكليزية ودار المعلمات في القدس . وكانت مدرّسة في المدرسة الحكومية للبنات في القدس ايضاً .

وعارض والد ابراهيم في اول الامر هذا الزواج لسببين اساسيين ثم لسببين ظاهرين . اما السببان الاساسيان فاولهما حالة ابراهيم الصحية التي كانت - علي الرغم من استقرارها الظاهر - عرضة لتقلبات مفاجئة . واما ثانيهما فهو ان آل عبدالهادي خصوم لآل طوقان منذ الفتح العثماني - او منذ الفتح العربي كما يقول ابراهيم ، أو منذ أيام بكر وتغلب في الجاهلية .

واما السببان الظاهران فهما ان مركز ابراهيم في « الاذاعة » لم يكن كثير الثبات ، بل كان قلقاً جداً . ثم ان ابراهيم لم يخبر والده بمشروع الزواج هذا قط ، ولكنه جاء من القدس الى نابلس قبيل كتابة الكتاب (العقد) وقال لوالده : غداً موعد عقد زواجي فارجو ان تحضره . فاستغرب الوالد ذلك وقال لابراهيم : هبني رجلاً غريباً ، يا ابراهيم ، ألا تخبرني إلا قبل عقد قرانك بيوم واحد ؟ فقال ابراهيم انا لم اخبر احداً قط وهذا ، ما تم الآن فارجوك المَعذرة . ثم ان لي عليك ديناً ايضاً . فسأله الوالد مستغرباً : وما هذا الدين الذي لك علي . فقال ابراهيم : لما تزوج اخي احمد اعطيته مائتي جنيه ، وانا اريد مثلها . وبعد ان كان الوالد قد امتنع عن حضور عقد زواج ابنه عاد فقبل ، بما له من الحكمة والتعقل وبما في نفسه من المرح والعطف على ابراهيم ، ان يحضر وان يعطي ابراهيم ما اراد .

ورزق ابراهيم من هذا الزواج السعيد صبياً سماه جعفر وأبنة سماها عريب بالتصغير خطأ . ولما قلت لابراهيم ان هذا الاسم يضبط عريباً بالفتح قال : هو كذلك ، وقد عرفت فيما بعد انني وهمت في قراءة هذا الاسم في كتاب الاغاني . اما الاسم قد عرف بلفظ هذا فلا سبيل الى تغييره الآن .

☆

(١) عريب بالضم تصغير لكلمة « عرب » ؛ وعريب بالفتح معناه الانسان المرح .

وكان ابراهيم عظيم النشاط في مصلحة الاذاعة، قال لي في احدي رسائله^١ : « لعلمك تلاحظ في روح التصيد للاذاعة^٢ . هو كما تري ، لقد اصبح دأبي ان اجعل هذا البرنامج تحفة من التحف بحيث ابرز به برنامج مصر . وقد توفقت في ذلك الى حد بعيد . وقد جاءني الشاء العاطر على البرنامج من مصر نفسها ومن العراق وسوريا والهند والرياض ، فأمل كم يدعو ذلك الى النشاط وكم يتسع العذر معه للتصيد » .

واستمر نشاط ابراهيم في الاذاعة استمراراً كان يقوى كل يوم ويتسع ويؤدي الى الاذاعة الخدمات العظيمة^٣ حتى ان ذكر هذه الخدمات جاء في البيان الذي اعلن فيه القسم العربي لمصلحة الاذاعة وفاة ابراهيم ، كما سيرد في آخر هذه الترجمة .

غير ان هذا التقدم لم يكن يسر القائمين على المحطة، فالمحطة في جميع البلاد المستعمرة يجب ان تكون للدعاية للحكام لا لتثقيف الشعب وذكر مفاخره وأمجاده . ولم يكن بإمكان اسياذ المحطة ان يقولوا لابراهيم انك « بلغت بالمحطة الذروة » ، وان البرنامج الذي تعده رفيع جميل ، وأنتك تنبه اهل البلاد الى حقيقة حالهم ، ولذلك يجب ان نثقلك من المحطة، بل حاولوا ان يقعوا منه على هفوة تصالح عنذراً في اعين الناس . فكان اول ما فعلوه ان جعلوا يراقبون رسائله ، فكتب الي مرة يقول^٤ في رأس الرسالة : « ارجو ان تضع لفظة « خصوصي » على مغلفاتك كيلا تفتح وتقرأ قبل ان استلمها - ابراهيم طوقان » .

وبعد قليل اشتدت الحملة على ابراهيم وعلى ما يعده هو للاذاعة او على ما يقبله ليذاع في البرنامج العربي . ولقد اتخذت هذه الحملة ثلاث صور^٥ :

- (١) القدس (٧ آذار ١٩٣٧) .
- (٢) لمناسبة اذاعة حديث عن العباس بن الاحنف كتبه استاذي المشرق يوسف هل Joseph Hell ، كان له كما يقول ابراهيم « رنة وطنة ولفنت والصف الى النظر وحثت على الاستزادة منه » فارسل يطاب بواسعتي حديثاً آخر للمشرق نفسه .
- (٣) اي البرنامج الايدي .
- (٤) راجع عدداً من رسائل ابراهيم ؛ ثم مجلة المنتدى (العدد الآنف الذكر) س ٥ - ٦ : كلمة القيم العربي . ثم س ١٠ - ١١ : ابراهيم بقلم الآنة فدوى طوقان، وراجع ايضاً كتاب « اخي ابراهيم » لفدوى طوقان ، س ٧٥ وما بعدها .
- (٥) القدس ، ٣٨/١٠/١٣ .
- (٦) راجع « اخي ابراهيم » س ٧٧ - ٨١ .

١ - كانت الجهات اليهودية ترى ان القسم العربي كان موجهاً توجيهاً «عريباً» يمكن من اعداد القوى العربية في المستقبل لمقاومة اليهود .

٢ - ورأى الانكليز القائمون على المحطة ان « توجيه المناهج » كان يمنع توطيد الاستعمار . انهم كانوا يريدون - فيما يريدونه مثلاً- إحلال العامية محل الفصحى ، وملء البرنامج بأشياء طريفة خفيفة لئلا يلهاء الناس « وتمييعهم » لا لايقاظهم وشد عزائمهم .

٣ - ثم كان هنالك خصوم ابراهيم الشخصيين في الاذاعة نفسها وفي خارجها . على ان هذا وامثاله ، كما سبق لنا القول فقلنا ، لا يمكن ان يتخذ عندي راسماً لاقالة ابراهيم . لقد كان هذا كله مزعجاً لابراهيم ولكن لم يكن مضرأً به .
واخيراً سنحت الفرصة لايضاحة ابراهيم :

قدم ابراهيم للاذاعة قصة من وضعه هو باسم عقد اللؤلؤ ، تدور حول الامانة . وقد رأى المشرفون على الاذاعة ان « الامين » ، بطل القصة ، انما هو رمز الى الحاج امين الحسيني . وبما ان الاذاعة حكومية ، والحاج امين مناوئ للحكومة ، فان عمل ابراهيم يعد خروجاً على « العرف المسلكي » ، وذلك مما يؤاخذ به ابراهيم . على ان السبب الاساسي لاقالة ابراهيم كان قصيدة نظمها ابراهيم في ذلك الحين ، مطلعها :

وردٌ ومحن وغيد في البجمات ؛ يا شهر ايار . يا شهر الكرامات !

هذه القصيدة في المجون ، وهي عجيبة من العجائب في حسن التصوير والسبك وفي الشاعرية . ولقد لاقت هذه القصيدة رواجاً كبيراً وانتشرت بالرواية والاستنساخ اكثر من شعره الذي نشر في الصحف والمجلات . غير ان في هذه القصيدة تعريضاً شديداً بأحوال دينية معينة وباشخاص كانت تحتضنهم السلطة الانكليزية ذكرهم ابراهيم باسمائهم .

وحرص ابراهيم على ألا تحل هذه القصيدة قرائن مادية تكشف عن شخصيته فنسخها على الآلة الكاتبة ، ولكنه ترك نسخة منها في جردار مكتبه ، بدائرة الاذاعة . ويبدو ان بعض خصومه في الاذاعة عرف بأمر القصيدة وعرف بأمر النسخة التي في الجردار فدل عليها رؤساءه .

وقامت الحجة على ابراهيم في ذلك ، « ومن مأمنه 'يؤتى الحذر' » . وهكذا أقيل ابراهيم من منصبه بدار الاذاعة في اول تشرين الاول عام ١٩٤٠^١ . ولقد كانت اقالته هذه مفاجئة لكثيرين حتى قال الاستاذ انيس المقدسي^٢ : « لأمر لم نطلع على خوافيه استقال من منصبه (في الاذاعة) وقصد العراق ... » على ان خوافي الامر كانت قصة عقد اللؤلؤ وقصيدة شهر ايار وسياسة استعمارية واضحة .

ولما اخبرني ابراهيم قصة عقد اللؤلؤ بقصة القصيدة - وكنا نسير معاً في الكرادة ببغداد - قال لي : « ولكن الجماعة كانوا طيبين . لقد دفعوا لي تعويض الصرف كاملاً وقيمة الضمان على الحياة . فالاقالة من الناحية المادية كانت رابحة جداً » .

في بغداد

لما اقبل ابراهيم من عمله في مصلحة الاذاعة الفلسطينية فكر في العمل في محل آخر لاسباب مختلفة . انه اولاً رب اسرة يجب ان يعمل لتعيش اسرته من كسب يمينه هو ، مع ان والده كان قد اغناه عن هذا كله . ثم ان ابراهيم اراد ان يفقأ حصرماً في عيون اعدائه في مصلحة الاذاعة فيريهم ملء اعينهم ان ابراهيم طوقان يستطيع ان يعمل حيث أراد ويكون مكرماً ، وانه لا يبقى عاطلاً عن العمل - لو اراد - ساعة واحدة . على ان ابراهيم كان ايضاً قد أثار حفيظة المستعمرين والسائرين في ركاب المستعمرين أثارة جعلته - بعد ان خرج من الوظيفة الحكومية مغضوباً عليه - يخشى على حياته . من اجل ذلك اراد ان يعمل في خارج فلسطين اذا امكن .

واستطاع ابراهيم بوساطة صديقه طالب مشتاق - قنصل العراق في القدس يومذاك - ان يجد ترحيباً لدى وزارة المعارف العراقية بقدمه الى العراق للعمل في التدريس - من غير تعيين لمواد التدريس او مكانه . ولا ريب في ان ذلك دليل كبير على رغبة الحكومة العراقية في تأدية خدمة للاديب المبدع ابراهيم طوقان .

(١) اخي ابراهيم ٨٢ .

(٢) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ص ٣ .

ولكن والد ابراهيم خشي مغبة الذهاب الى العراق . ان جو العراق القاسي في الصيف وفي الشتاء شديد على ذوي الجسوم الصحيحة ، فما قولك بجسم مثل جسم ابراهيم . على ان الحيلولة بين ابراهيم والعراق في ذلك الحين كان جَرْحاً لكرامة ابراهيم . وفكر الوالد الرحيم طويلاً بين حجز ابراهيم في نابلس للمحافظة على صحته وبين الرضى عن ذهابه الى العراق حفاظاً على كرامته . واخيراً استسلم الوالد الى ما لا خَيْرَةَ له فيه ثم ابتعد عن عيون ولده ليزدرف دمعة حملت جميع معاني الحنو الابوي .

وسافر ابراهيم الى بغداد ونفسه مملوءة بنشوة الظفر على خصومه ، فقام له ذلك مقام الغذاء المفيد والعلاج الناجع والراحة التامة . ولكن ابراهيم لم يكن يدري بأن الخصومات الصغيرة والحزبية الضيقة قد سبقته من فلسطين ، بل من نابلس ، الى بغداد .

وكان المفروض والمفهوم ان يكون ابراهيم استاذاً في دار المعلمين العالية في بغداد نفسها فيكون عمله حينئذ اسهل واقرب الى اختصاصه في اللغة والادب ، ثم يكون بامكانه ان يعيش في وسط ادعى للراحة وعلى مقربة من اخوانه من اهل بغداد ومن المدرسين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين في مدارس بغداد . ولكن احد خصوم ابراهيم السياسيين والشخصيين في نابلس^١ كان يومذاك في بغداد . وكان ابراهيم رحمه الله يعتقد بان هذا الخصم يكيد له .

ويبدو ان المكيدة قد نجحت فعين ابراهيم في دار المعلمين الريفية في الرستمية على بعد اربعة كيلومترات من الكرادة وعلى بعد سبعة كيلومترات من الباب الشرقي في بغداد . من اجل ذلك اضطر الى السكنى في الكرادة^٢ . وبعد مدة يسيرة لحقت بابراهيم أسرته المؤلفة من زوجته وابنه جعفر وابنته عريب ، وجاء معهم اخوه رحمي ليظل الى قربه وليصرف شؤون الاسرة المنزلية لأن اهتمام ابراهيم وطاقته كانا يقصّران عنها . وان من يرى حمية رحمي ونشاطه في ذلك كله يرى عجباً .

(١) راجع نابلس ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .

(٢) تبعد الكرادة عن بغداد نحو خمسة كيلومترات (موجز تاريخ اليلدان العراقية ٤١) . اما الباب الشرقي فهو الطرف الجنوبي للوسط التجاري في بغداد .

والى سكنى ابراهيم في الكراة وتعليمه في الرسمية يعود السبب الاول في انتكاس صحته . ان نجاح المكيدة قد حز في نفس ابراهيم الى حد بعيد . ثم انه لم يكن بين الكراة وبين الرسمية مواصلات عامة ، فكانت سيارة دار المعلمين الريفية تأتي في الصباح الباكر من كل يوم لتجمع المعلمين من بيوتهم فيضطر ابراهيم الى مغادرة البيت باكراً وقبل ان تكون عملية الهضم بعد طعام الصباح قد تمت) لما عرفناه من حال معدته بعد اجراء العملية فيها عام ١٩٣٣). وكذلك كانت تلك السيارة تعيد المعلمين الى بيوتهم مساء . واذا اتفق ان كان ثمت اجتماع لبعض المعلمين او اذا اتفق ان تأخر احد المعلمين في واجب ما فان ابراهيم ايضاً كان يتأخر في الرجوع الى بيته . ولقد سمعت ابراهيم مراراً يتأفف من ذلك كله .

ثم هجم الحر في بغداد مع نيسان . وفي صباح احد الايام ، من اوائل شهر نيسان ، ارسلت ام جعفر الي ان ابراهيم مريض ، وذهبت الى الكراة وعلمت منها ان ابراهيم لما خرج في الصباح الى مجلسه الاول برز مقدار من امعائه .

واستدعينا على الفور الدكتور محمد روح غندور^١ ، وكان هو ايضاً في ذلك الحين في بغداد ، فقال : ان هذا الامر لا ينطوي على خطر مباشر ، ولكن ابراهيم - على كل حال - يجب ان يغادر بغداد الى نابلس تجنباً للحر الهاجم . ان الحر الشديد يزيد امثال هذه الحالات سوءاً .

ولقد استنفدت انا والطبيب وام جعفر والحاج رحمي جميع وسائل الاقناع قبل ان رضي ابراهيم بالعودة الى نابلس . ثم عاد فتعلل بان اثاث البيت يجب ان يجمع ويحزم ، وهذا يقتضي وقتاً . ولكننا اقنعناه بأن يذهب هو اولاً مع الاسرة الى نابلس ثم يتبعه اثاث البيت مع الحاج رحمي كما فعل في مجيئه الى بغداد . وهكذا كان .

اما ما حدث بعد ذلك لابراهيم فأرى ان آتي به مقصوداً حرفاً حرفاً من رسالتين وردتاني منه الى بغداد في السابع ثم في السادس عشر من نيسان عام ١٩٤١ . ولا ريب في ان هاتين الرسالتين هما آخر ما كتب .

واحب من قارىء هاتين الرسالتين ان يلاحظ ان مرح ابراهيم وظرفه لم يفارقه حتى

(١) الدكتور محمد روح الغندور ، من بيروت ، وهو طبيب الدائرة البلدية .

في آخر ايامه ، وان الاستزادة من المعرفة الاديية كانت ديدنه حتى في أحلك ساعات حياته .

الرسالة الاولى : نابلس - فلسطين ، ٧ نيسان ١٩٤١

اخى عمر !

اسفت كثيرأ لعدم امكاني وداعكم قبل سفرنا . وجاء الحاج رحمي فمتاني بأنك كاتب الي كتابأ سرعان ما اتلقاه ؛ لكنه لم يصل بعد ، وليس لي صبر على انتظاره فرأيت ان اكتب انا بادئأ .

كانت الطريق مريجة ، لم يمض اربع وعشرون ساعة حتى كنا في الناصرة ، ومنها الى نابلس ساعة واحدة . هذا وام جعفر وولدانا جعفر وعريب على احسن حال وانا ازداد نشاطأ كلما دنوت من ارض الوطن وفي النفس شيء^١ لبغداد .

يومان في نابلس ثم الى القدس حيث اجريت الفحوص اللازمة . المسألة (بحمد الله) ليست ذات بال . الراحة والتقوية هما كل ما في الامر . وانا الآن اتقدم نحو العافية بأذن الله بخطوات محسوسة ، سيما وبركات السيدة الوالدة قد شامتنا ، وطعامها النفيس المختار قد جرى في جسمي مريثأ هنيئأ .

لا نفتأ نذكركم خصوصأ عند سهراتنا على لعب الورق . سقيأ ورعيأ لا يام لنا سلفت ، وحبذا تراورنا ومسيرنا على الضفاف ضفاف دجلة . لا تستطيع ام جعفر ان تقدرَ جمال بغداد كما اقدره انا او انت . فهو (عندنا) جمال مستمد من التاريخ والادب الذي عشنا فيه عشرين سنة على الاقل . بغداد في نظرنا غير باب الشرجي والمعظم والكرادة وشارع غازي وغير ذلك من المسميات^٢ ، ولكنها بغداد العباس بن الاحنف وابي نواس وصريرع الغواني واضراهم من احبائنا شعراء بني العباس !! من اجل ذلك تستطيع ان ترى كيف

(١) من الحب ، راجع الامطر التي ستلي .

(٢) كرادة ، كلب ، باب الشيخ ، باب شرقي ، شارع غازي : اسماء كان سائقو البصات (سيارات النقل) يصبحون بها لتنييه الراكبين الى الاماكن التي تمر بها سياراتهم .

كانت الحال مع ام جعفر عند بلوغها فلسطين! اما انا فوالله لقد كنت أسفاً ولا أزال ،
وبودي لو أسعدتني^١ صحتي فاقمت واقمت واقمت .

عمر ، بلغ سلامنا واشواقنا الى السيدة آمنة. ام جعفر ليس لها في بغداد ذكرى سواها.
عريب وجعفر يقبلانكما . سلامي و سلام الخاتون^٢ الى رفيق^٣ وزوجته وعساها الآن بخير
وعافية . كذلك للسيد زكي^٤ وزوجته . اكتب الي اذا كنت لم تكتب بعد . مركزي نابلس
وفيهما مستقر ومتاع الى حين! واي حين؟ لا اعلم^٥ ، فقد اختلف المفسرون في قوله تعالى :
« هل اتى على الانسان (حين) من الدهر »^٦ .

ام احمد على عهدنا بولدها عمر^٧ وهي تهديك التحية وتضيف اليك السيدة آمنة مباركة
لك داعية بالرفاء والبنين .

الجميع : قدرتي ويوسف والحاج رحمي يهدونكم السلام ، واسلم ل اخيك .
ابراهيم طوقان

الرسالة الثانية : نابلس ، الاربعاء في ١٦ نيسان ١٩٤١

اخي عمر

وصلني كتابك ليومين مضياً على ارسالي كتابي الاول إليك ولم أشأ ان أعدّ كتابي
جواباً مسبقاً ، في من الشوق الى التحدث اليك ما لا يحتمل هذه المقاصرة . وجدت بين
اوراقي بطاقة كتب عليها هذان البيتان :

« عجباً من دم يعود فقيراً
لا تظنّ البخيل احسن حظاً
كنت نغفي ببذله الغانيات .
رُبّ فقر لم يتصل بهبات ،

(١) أسعد : ساعد .

(٢) الخاتون (في العراق) : السيدة ، الزوجة . ويقال الزوج الاقندي .

(٣) رفيق العتي ، وهو اليوم مندوب سورية الدائم في هيئة الامم .

(٤) السيد زكي النقاش . وهو اليوم الدكتور زكي النقاش مدير كلية المقاصد الاسلامية في بيروت .

(٥) هذا الحدس يدل على خوف من المستقبل .

(٦) آية من اول سورة الانسان (رقم ٧٦) .

(٧) ان صاتي الوثيقة براهيم جملت والدة ابراهيم تهتم باموري - حينما كنت معلماً في مدرسة النجاح في

نابلس ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - كأنني أحد أولادها .

وتاريخهما المسجل تحتها ١٨/١٠/٣٤ ! فلن اليتان؟ وما مناسبتها؟ أنا وأنت
سواء الآن، كلانا متزوج، فلا تخش من ذكريات الغزوة شراً!! وليعلم كل متخرّص
ان « الذكريات صدى السنين الحاكي »^٢ ... فيا لهف قليبنا او يا لهف قلبي وحدي اذا
كان لايسرك التعاون معي في اللهف .

لديّ كتاب غريب عجيب مؤلف قديم يلوح لي انه لم يَخْلُق الله لها شبيها في سعة
الاطلاع ورسوخ القدم في علم الباه . ولعل جميع من عرفتُ وما عرفت في هذا الباب
كانوا عيالاً عليه في علمهم وادبهم ... عنوانه « جوامع اللذة » واذا شئت ، فهو قاموس
الالفاظ الفنية، ومختارات الشعر، والنوادر والتفلسف . حصلت عليه منسوخاً على الآلة
الكتابة نسخاً فيه كثير من الغلط ، وحسبك ان تعلم بعد هذا كيف اقضي وقتي في نابلس
حيث اقيم اليوم ما اقام صبرها وكناقتها^٣ .

الحالة الصحية او تقريري الطبي

اشعر بتحسن يبشر بان العودة الى الصحة الطبيعية توشك ان تكون ملك يدي . ان
الراحة والدوام على المعالجة المنظمة هما ركنان اساسيان في الخلاص من هذه الرُمانة .
وبهذه المناسبة - على هامش هذا التقرير - اقول انني اجتمعت في المصنبة الى رجل فاضل
اعرفه ، وبعد السلام والكلام اخذ من جيبه (سامحه الله) اوراقاً مطوية فاختر منها اثنتين
فتح اولاهما وانشدني لولده - حفظه الله له لا للادب والشعر - قصيدة . ثم - وبلا هدنة -
فتح الثانية وتلا غضيبتها . يا عمر ، لا أراك الله مكروهاً ، لم يكذب ينهي حتى اخذت البرداء
تعص في صلي . قمت الى البيت معتذراً ، ثم انطويت على نفسي في الفراش ، وانا احسب
الملازيا قد عاودتني . واخذت المحرار واذا الدرجة (٣٩ ١/٢) ! لا حول ولا . ودعوت
الطبيب ففحص وجس وطببطب هنا وهناك ثم قرر انها انفلونزا ! سليمة . ثلاثة ايام في

(١) بيتان كنت تركتهما لابراهيم لما جاء الى بيروت للعلاج من فقر الدم . راجع ص ٢٥ .

(٢) شطر من قصيدة لشوقي في مدينة زحلة .

(٣) الصبر : الصبر ، التين الشوكي . والكنافة النابلسية حلوى تشتهر بها نابلس ، وكذلك الصبر (التين

الشوكي) فيها كثير .

الفراش وسيل من العرق بعد اتخاذ التدابير . . . وُصرف العارض - والحمد لله - بسلام .
لاتسلي عن القصيدتين ، ذاكرتي اضعف من ان تحمل منهما بيتاً ، وهل سمعت بذاكرة
تحمل رصاصاً وحديداً ؟ الموضوع سل عنه اعالي جبال صنين والله حسي وحسبك
ونعم الوكيل

ابو جعفر
ابراهيم طوقان

وفاته :

غير ان درجة الحرارة (التي اشار اليها ابراهيم في رسالته السابقة) لم تنخفض انخفاضاً
محسوساً فيما بعد ، بل ظلت مرتفعة . وقد رافقها شيء من الانحطاط العام والضعف فنقل
الى المستشفى الفرنسي في القدس ليكون تحت المراقبة السريرية لمعرفة سبب تلك الحرارة
المرتفعة . وظن الاطباء ان الامر قد يكون مرحلة اولى من مراحل الحمى التيفوئيد فاخذوا
شيئاً من دمه للفحص المجهرى . ولكنه توفي - رحمه الله - قبل ظهور نتيجة ذلك الفحص .
غير ان الذي تناولته الملاحظة في ذلك الحين ان انحطاطاً عاماً كان يعمل في جسمه
كله ولم يكن ثمة سبب من مرض واحد معين .

تشيعه^١ :

« وعند الساعة الواحدة من بعد ظهر السبت في الثالث من ايار نقل جثمانه إلى مدينة
نابلس في سيارة تغمرها الاكاليل والزهور ، ورافقها عدد كبير من رجالات المدينة في مقدمتهم
اصحاب السعادة والفضيلة رئيس البلدية وبعض اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى للاشتراك
في تشيع الجنازة في نابلس . . . وفي الساعة الثالثة والنصف (من يوم السبت نفسه) شيعت
جنازته في نابلس . وقد صلي على الجثمان في المسجد الكبير ثم سارت الجنازة على الترتيب

(١) راجع « فلسطين » ، جريدة يومية (يافا) ، الاحد ٤ ايار سنة ١٩٤١ ، ٧ ربيع الثاني ،
١٣٦٠ ، السنة ٢٥ ، العدد ٥٦ - ٤٦٩٦ ، الصفحة الاولى والرابعة .

التالي : الجثمان محمولاً على الأكف يتقدمه كشافة كلية النجاح الوطنية ثم طلاب المدارس الوطنية ثم حملة الاكالييل وعددها عشرون اكيلاً قدمتها هيئات وطنية وكلية النجاح الوطنية (نابلس) ، ثم اعضاء المجلس البلدي والوجهاء والعلماء ووفود البلاد . وقد سار الموكب في خشوع وإجلال حتى المقبرة الشرقية . وهناك آتته عدد كبير من الخطباء تأيئاً مؤثراً ابكى الحضور . ثم ووري الفقيد التراب مأسوفاً على شبابه .

ونعت مصلحة الاذاعة الفلسطينية ابراهيم الى العالم العربي ، بعد ان كان قد نال ابراهيم من هذه المصلحة اكبر العنت والارهاق وبعد ان أقيل منها اقالة لمواقفه الوطنية المشرفة . وها هي هذه المصلحة نفسها تنعي ابراهيم ذاكرة خدماته الجلى وان موته كان خسارة كبرى . ذلك هو نفاق الاستعمار يقتل المخلصين ثم يقف متأسفاً على وفاتهم . وعلى كل فان نعي ابراهيم من الاذاعة الفلسطينية كان كما يلي ' :

« يؤسف القسم العربي في هذه المحطة ان يعلن نبأ وفاة الاستاذ ابراهيم طوقان الليلة الماضية في المستشفى الفرنسي ، ولا يسعه إلا ان يذكر خدماته الطيبة التي قام بها في هذه المصلحة فأدى بها خدمات جلى الى اللغة العربية وآدابها . على ان وفاة هذا الشاعر الممتاز هي في الواقع خسارة كبرى على الادب واللغة . وان القسم العربي يكرر الاسف ويقدم اصدق التعزية الى ذوي الفقيد ، رحمه الله رحمة واسعة ، ولا حول ولا قوة الا بالله . »

رثاؤه

ولما ووري ابراهيم في مضجعه الاخير ألقى صديقه جمال القاسم كلمة موجزة . ولقد اقيمت حفلة الاربعين في مدرسة النجاح فتكلم ابو سلمى (عبدالكريم الكرمي) وجلال زريق وحسني فريز واسكندر الخوري الجبالي . وكذلك اقام له اصداؤه حفلة تأييين في القدس في نادي جمعية الشبان المسيحيين . وفي العام التالي اقيمت لذكراه حفلات متعددة في حيفا ويافا وغيرهما .

(١) فلسطين ، العدد المذكور آنفاً .

ورثاه الاستاذ فؤاد قاسم^١ بكلمة قال فيها^٢ :

« وكان في هذه الفترات من حياته مخلصاً لقوميته اشد الاخلاص ، مؤمناً بعدالة قضية العرب ، ورسولاً من رسل وحدتهم ونهضتهم فلم يغفل عن تأدية رسالته استاذاً في بيروت وبغداد ، ولم يَهَبِ التبعات في محطة اذاعة القدس . فكان قرآ في آذان اعداء العرب وقذى في عيونهم حتى آل الامر به الى موئل شابنا بمن تضيق بهم سبل الحرية فيرحلون الى بغداد» .

وكتب الاستاذ انيس المقدسي^٣ في ابراهيم كلمة تحليلية طيبة استشهدت بشيء منها في ترجمة حياته وفي خصائصه . ولكنني اعيد هنا بعض ما جاء فيها^٤ :

« طوى الجزيرة حتى جاءني خبره فزعت فيه بآمالي الى الكذب ؛ حتى اذا لم يدع لي صدقه كذباً شرفت بالدمع حتى كاد يشرق بي^٥ .

ذلك ما شعرت به بالامس اذ وقعت عيناى فجأة على خير هز منى الاعصاب واوقد في القلب ناراً ذات التهاب .

صديقي العزيز ابراهيم طوقان قد مات ! يا أفجيعة العربية . يا لخسارة الوطنية . مات فطوى معه في التراب شباب أناره الايمان وصقله الذكاء ، وحلاه الوفاء للاخوان والاخلاص للوطن .

نشأ الفقيد في بيت نابلسي كريم رضع منه الاخلاق الشريفة والمكارم العالية ... وفي

(١) فؤاد قاسم من الادباء والكتاب المبدعين المتكثرين وخصوصاً في المشاهد التمثيلية القصيرة اللاذعة . وهو اليوم مدير البرامج العربية في الاذاعة اللبنانية .

(٢) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ (الخميس ١٠ جادى الاول ١٣٦٠ = ٥ حزيران ١٩٤١) ، ص ١ . في ترقيم هذا العدد خطأ مطبعي السنة ٤ مكان السنة ٣ .

(٣) الأستاذ انيس المقدسي استاذ اللغة العربية والادب العربي في الجامعة الاميركية (١٩٠٦-١٩٥٠) . ولد في طرابلس ١٨٨٥ وتخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة بكالوريوس علوم (١٩٠٦) وبرتبة استاذ في العلوم (١٩٠٨) . له بحوث ادبية كثيرة ، وله من الكتب : امراء الشعر العباسي في الادب العربي ، تطور الاساليب النثرية ، العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (جزءان) .

(٤) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ، ص ٢-٤ .

(٥) اليتان مطلع مرثية قالها المنني في رثاء اخت سيف الدولة .

سنة ١٩٣٠ عينته الجامعة (الاميركية في بيروت) مدرساً في الدائرة العربية فكان مثال الاجتهاد والامانة. وقد استطاع برفيع ادبه وحسن سجاياه ان يكتسب محبة الطلاب وثقة الرؤساء والزملاء. وكان يرجى ان يكون له شأن كبير في حقـل التدريس الجامعي حتى توجهت الانظار الى ترشيحه للتخصص العالي في احدى جامعات اوروبة واعداه لمستقبل علمي زاهر ...



ابراهيم طوقان استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت

كان الفقيه شاعراً ملهماً متوثب العاطفة صادق الوطنية رقيق حواشي العبارة . اذا كتب سال الكلام من قلمه كما يسيل الزلال الصافي من منبعه الفيض ، واذا خطب او حدث جذبك مسحوراً الى ما له من الاغراض ، وله نفوذ الى المعاني لا تكلف فيه وعرض للعواطف دون جمعجة او تمويه ...

على ان نبوغه الادبي لم ينحصر في الشعر ، بل كان الى ذلك بحاثة ذا نظر صائب في

الامور ، عرفته بذلك منذ كان طالباً في الصفوف العليا بالجامعة وبعد ان نفع اده خارجها بالتنقيب والمطالعة .

اما وطنيته فأبرز من ان ادلك عليها هنا ، فهو من اصدق المدافعين عن الحقوق الوطنية في فلسطين وفي البلاد العربية ... »

وقال الاستاذ محيي الدين النصولي^١ في الفجيجة بابراهيم كلمة بعنوان « الشباب لن يكبل »^٢ امتلأت عاطفة وتقديراً وأملاً^٣ :

في نابلس البلد العربي الفلسطيني شباب كالزهر توضع اريجه في الدنيا العربية وطاب شذاه وعم خيره في وطنه الصغير ووطنه الكبير فأثاره العلمية والادبية والوطنية تدل عليه وتم عنه وتشهد ان في نابلس يقظة تنبض بالحياة ونهضة تناولت كل شيء .

ما هبطت نابلس يوماً من الايام الا وأكبرت فيها نهضتها الفتية واعجبت بشبابها الميامين وراعي ان اتحدث الى هذا الشباب المثقف الراقي وان المس مآتهم في كليتهم الناشئة وناديهم الصغير وحرارة الكشفية عندهم ، وان اجد فيهم الشباب العربي البررة الذين يتذوقون الحياة ويعرفون ان عليهم رسالة يجب ان يؤدوها وان يجاهدوا في سبيلها لايبغون من وراء ذلك الا وجه ربهم وصالح وطنهم .

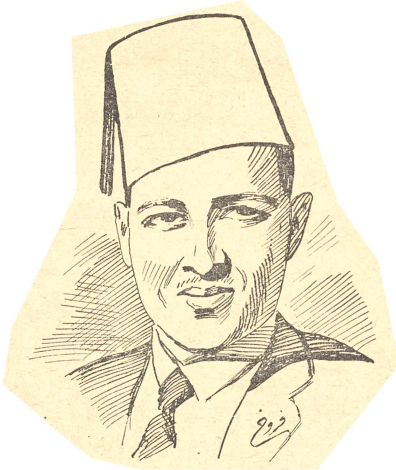
من هذا الشباب الذين كنت اسكن اليه في نابلس شاب اسمر اللون حلو الشمائل رقت نفسه ورق شعوره فاذا به هزيل الجسم شاحب اللون يذوب لطفاً وأدباً واذا به رغم مرضه طلق المحيا يرسل النكتة أثر النكتة ويبسم للحياة رغم عبوسها ويضحك في وجهها رغم تقطيعها له وازورارها عنه .

(١) الاستاذ محيي الدين النصولي صحافي قدير وصاحب جريدة « بيروت » (بيروت) ورئيس تحريرها . ولد في بيروت ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) . تخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة بكالوريوس علوم (١٩٢٠) ثم برتبة استاذ في العلوم (١٩٢١) . اشتغل بتجارة الاجواخ (١٩٢١ - ١٩٣٦) وكان نائباً في مجلس النواب اللبناني (A U B Directory 1953, p. 132, cf. 136 . وولي الوزارة في لبنان مرتين : مرة وزيراً للانباء ومرة وزيراً للعال والانباء معاً .

(٢) احد مصاريع نشيد ابراهيم طوقان ؛ « موطني » .

(٣) الامالي ، السنة الثالثة العدد الخامس عشر ، ص ٤ .

اما هذا الشاب فهو الشاعر الملمم ابراهيم طوقان خريج الجامعة الاميركية وريب بيت من ارفع البيوتات العربية وصاح النشيد الخالد « وطني ! » الذي أودع في كل كلمة من كلماته روحه العالية وما يلتهب بين جانحيه من وطنية صادقة وعقيدة عربية رفيعة .



ابراهيم طوقان عام ١٩٢٤ حينما دخل الى الجامعة الاميركية في بيروت

ما اجتمعت اليه يوماً الا وسكرت بشعره الذي يسيل عنذوبة ورقة وحباً وما سمعته ينشد « موطني ! » الا وأحسست انه يجب ان يستقل العرب : وشعرت ان هذا الشاب الهزيل تحول الى رماد جبار ينفث ناراً ويرسل حمماً :

الشباب لن يكل همهم ان يستقل او يبيد
نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعييد
لا نريد لا نريد ذلنا المؤبدا وعيشنا المنكدا
لا نريد بل نعيد مجدنا التليد ، موطني !

(١) « وطني ، انت لي والحصم راغم » .

لقد اطفأ الردى تلك العينين السوداوين الهادئتين اللتين شع منهما نور اضاء الدنيا العربية ونفذ الى قلب الشباب العربي فايقظ همماً كانت راکدة وبعث نفوساً كان ميتة وحرك امة كادت تبيد .

رحمة الله عليك يا صديقي الحبيب وبلبل ثراك بطلّ رضاه فانت شاعرنا الشاب وانت رائد من روادنا الابطال وانت العربي الصادق الذي وان لم يتح له القدر ان يرى وطنه « سالماً منعماً وغانماً مكرماً » الا ان الاجيال المقبلة ستراه فتذكرك يا ابراهيم وتحجج في نابلس العزيزة الى مثواك الطيب حيث ترقد بامان .

وداعاً يا ابراهيم والى الملتقى

ورثاه الاستاذ زكي المحاسني^١ في مجلة الاحد الدمشقية^٢ بكلمة عاطفية رقيقة ختمها بالآيات التالية :

يا ويح قلبي ، حين جاء نعيه	ناديت : يا دمعي ، فرد عصبيته .
يا آل نابلس ، استبيحوا عبرتي	ففتاكم المحبوب جف جنيته .
حزني عليه اذا سمعت نشيده	« يا موطني » ، ليني إذن لشجيته .
ورثاته قلب الشباب صدى لها	تدعو لمجد سالف عربيته .
يا فاتح الاجفان تنظر كوكباً	قد لاح في اعلى السماء ، قصيته ،
هو نجمك الخفاق في افق العلى ،	وبشعرك المعسول بان سنيته .
لهفي ، ابا سلمى ^٣ ، وانت خليله	مذ كنت في يوم الصبا وصفيه ^٤ ،
ما حال طرفك ^٥ ؟ هل يكفكفه العزا	أو هل يظل على البكاء نديته ؟
طوقان ، يا ابراهيم ، يا حلو الهوى	يا جعيد الدهر الكثير رديته ،

(١) الدكتور زكي المحاسني ، وهو اليوم الملحق الثقافي في المفوضية السورية في القاهرة .

(٢) السنة الثالثة ، العدد ٩٤ (٢٢ ربيع الثاني ١٣٦٠ = ١٨ ايار ١٩٤١) . في التاريخ خطأ مطبعي ١٣٦١ مكان ١٣٦٠ .

(٣) ابو سلمى هو عبدالكريم الكرمي .

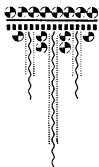
(٤) صداقة ابراهيم لاني سلمى لم تكن منذ ايام الصبا ، بل منذ ١٩٣٣ .

(٥) الطرف : جانب العين ، العين ، النظر ، وهي مستعملة هنا مجازاً مرسلًا : يقصد الدمع .

يا بسة الحسناء ، يا زهر الربى يا ضيعة الحظ القريب شبيه ،
ان مت فالاشعار منك خوالد^١ وعلى الزمان يضمها ابيده .
ونظم الشاعر الرقيق انور الجندي^١ قصيدة عنوانها : اجك ، وهبها الى روح
ابراهيم ، هي^٢ :

أجبك ، انت الليل والشعر والهوى
أجبك ، والدنيا بعيني هجعة ...
أجبك سكران الاماني^١ ذاهلاً
أجبك ، يا زهو الندامى وضحوة^٢
أجبك ، والكاسات ملأى وليلنا
أجبك ، انت الروض في همساته
أجبك ، يا طيب الرود ، نديّة ،
أجبك ، يا كف الشعاع على الربى
اضحك من وهج الهوى فكأنني
وتفرّق عينا ، وللجفن رفة^٣
وللقبّل الحمراء همس منعم^٣
نغيب فلا تدري أكنا سلاقة^٣

ووشوشة الاحلام في الفنن التضرير .
معطرة الاشواق طيبة النشر .
أكب عياء ما يفيق من السكر .
هي الامل المراح لوّنه شعري .
شهبي ونجوانا معتقة العطر .
نعميم من الآباد يعبق بالبحر .
ويا حمرة الذكرى وباحلم الفجر .
وعينك في عيني وتغرك في تغري .
اضم لذات الحياة الى صدري .
ارق من الانداء في شفة الزهر .
تنهد مخوراً على قبّل حمر .
من الجر ام كنا لهيباً من الجر .



(١) من سلفية في سورية .
(٢) قصيدة ارسلها الشاعر الى المرحوم الدكتور محمد خير النويري (ت ١٩٥٢) احد اصحاب مجلة الامالي
للنشر في المجلة. وتاريخ الرسالة اول تشرين الاول ١٩٤١ .
(٣) كذا في الاصل بالعين المهملة .

خصائص شعر ابراهيم

- ١ -

في الوقت الذي اعد فيه انا هذه الدراسة ينصرف الاستاذ احمد طوقان الى اعداد « ديوان ابراهيم » للطبع . ولا أعلم اي الكتابين سيصدر اولاً ، وان كان المعقول ان يسبق الديوان هذه الدراسة في الصدور^١ . على ان ديوان ابراهيم لن يضم كل شعره ، فان ابراهيم نفسه كان قد اختار ما يريد نشره من شعره ونسخه بيده ، ثم عاجلته المنون فحالت بينه وبين تحقيق غايته . هنالك قصائد اسقط منها ابراهيم ابياتاً ، وهنالك قصائد اسقطها ابراهيم جملة . وفي هذه القصائد التي اسقطها جملة جميع ما قاله في الهجاء والمجون ، وهو غير قليل .

من اجل ذلك ينتظر القارىء ان تكون الخصائص المثبتة في هذا الفصل خصائص شعر ابراهيم المنشور لا جميع خصائصه ، وان كنت انا اعطف احياناً بين المقطع والمقطع فاثبت خصائص تتعلق بشعره المحذوف من ديوانه .

☆

تعودت انا و ابراهيم - يوم كنا تلميذين في الجامعة الاميركية - ان تنتزه بعد ظهر كل خميس^٢ عند الجانب الغربي من بيروت^٣ . ولقد كنا نتحدث في اثناء تلك النزاه احاديث العلم والادب اللذين كنا نعرفهما يومذاك . وتفاوضنا مرة حديث الطلاب الذين كانوا

(١) لم يصدر ديوان ابراهيم بعد .

(٢) نابلس ٥/١٤ / ٣٣ ، نابلس ٥/١٤ / ٣٤ .

(٣) على شاطئ البحر ، قرب المنارة .

ينظمون الشعر في الجامعة ، فقلت له : « إنك ، يا ابراهيم ، تأخذ المعاني من متناول يدك » .
واقر ابراهيم هذا الرأي وعزاه الى نوع مطالعته . والواقع ان ابراهيم لم يكن يغوص على
المعاني بل كان يتقبل منها ما يرد على طبعه ولكنه كان يطبعه بالطابع الوجداني ثم يسبكه
في لغة متينة جميلة عذبة .

وشعر ابراهيم متفاوت جداً في خصائصه اللغوية وخصائصه المعنوية . لقد نظم في
عام ١٩٢٤ - بعد ان تخرج من الدائرة الاستعدادية مباشرة وقبل ان يدخل الدائرة العلمية
في الجامعة الاميركية - قصيدته الرائعة : « ييضُ الحمائمِ حَسْبُ هُمَّةٍ » فأتى فيها بكل
احسان وبلغ ذروة الشاعرية من حيث الاسلوب والموضوع والعبقرية . ثم كان له بعد
ذلك قصائد لا يرضاها فلم يشأ ان تظهر في ديوانه . اما تحليل هذا التفاوت في شعر ابراهيم
فيسير . ان ابراهيم شاعر وجداني - في صف عمر بن ابي ربيعة وبشار وابي نواس وابن
الرومي وابي فراس - والشاعر الوجداني لا يجيد إلا اذا انفعلت نفسه انفعالاً شديداً . اما
اذا « أراد » ان ينظم فانه يبطن في نظمه كثيراً ويتعثر ثم لا يرضى بعد ذلك كثيراً مما
تأتي به قريحته . وكذلك كان ابراهيم ، فمن الامثلة البارزة على شعره الوجداني الرائع
قصائده « ملائكة الرحمة - الفدائي - الثلاثة الحمراء ' - رثاء فيصل - غادة اشيلية » .
اما شعره الذي لم يرض عنه - وان كان قد أجاد فيه - فمنه قصيدته في مهرجان المتنبي ،
مثلاً ، ثم قصائد او اقسام من قصائد لم ير ان يضمها ديوانه . وشعره الضعيف ليس من
عهده الاول بنظم الشعر فحسب ، ولكنه مفرق في جميع حياته الشعرية .

وهناك تفاوت لغوي في شعر ابراهيم . كان ابراهيم طالباً في الجامعة الاميركية ، في
الجيل السابق يوم اجتمع فيها نخبة من احسن الطلاب طبعاً في اللغة العربية ، حتى لقد
ألقى الاستاذ انيس المقدسي ذات يوم كتابه على المنضدة ثم قال : ان الجامعة الاميركية
لا تأمل ان يعود اليها « صف » يشبه هذه الصف في مقدرته العربية قبل خمسين عاماً .
وها قد مضى الآن على هذه الكلمة ثلاثون عاماً كاملاً .

غير ان التفاوت في لغة ابراهيم كان تابعاً للتفاوت في خصائصه المعنوية ، فحيث اتسقت لغته مع وجدانه كان لغة قوية . اما اذا جانب طبعه في النظم فان لغته كانت تترك أحياناً . على انه من غير الانصاف ان نقول ان لغة ابراهيم المتينة الجميلة كانت نتاج الجامعة الاميركية في بيروت او نتاج مدرسة المطران في القدس . وانما هي في الحقيقة نتاج مطالعته الواسعة التي لم تنقطع^١ . كان ابراهيم دائم القراءة للقرآن الكريم منذ فتح عينيه على عمته كريمة التي كانت لا تعرف القراءة الا في مصحفها مهتدية بعلامة من الورقة تنقلها بين صفحاته . فاذا تخابث ابراهيم مرة واخرج هذه العلامة من موضعها اقامت عمته الدنيا وأعدتها لأنها تضلُّ طريقها حينئذ في المصحف ثم لاتحسن القراءة بعد ذلك . وكان ابراهيم يقرأ القرآن تَفْقَهُاً وَتَلْدُذاً وَصِقَالاً للغته . قال^٢ : « الجميل في رمضان عندي خاصة اني اقرأ القرآن فيه ، واقراءه كله . هذا ما اصنعه في كل سنة وأتلذذ به فاصقل به لغتي ، ونعم صقال اللغة القرآن . وتستوقفني بعض التراكيب فأرجع الى كتب البلاغة فانفقته بكشف أسرارها ، وتشكيل عليّ بعض المعاني فارجع الي سيد المفسرين استاذ الدنيا جار الله محمود الزمخشري فاصدرُ عنه رِيَانَ شعبان . وأتبه الى طريفة تاريخية فارجع الى ابي جعفر محمد بن جرير الطبري فأنسى نفسي بين احاديثه ورواياته . هذا هو فضل رمضان علي ، وهكذا أحسنُ استغلال شهر كامل في مدينة نابلس ... »

وكذلك كانت مطالعته واسعة في كتب الحديث ولا سيما صحيح البخاري . كتب الي يوماً في شأن مقال في العباس الاحنف كتبه المستشرق الالماني يوسف هل (١٨٧٦ - ١٩٥٠) . وليوسف هل بنت واحدة اسمها عائشة ، فحملته هذه الاشارة الغريبة الى الاستطراد الى العوائش فذكر عائشة بنت طلحة ثم قال^٣ : « واما عائشة ام المؤمنين وزوجة

(١) يقول الاستاذ انيس المقدسي (الامالي ، السنة ٣ ، العدد ١٥ ، ص ٤) : « عرفته بذلك منذ كان طالباً في الصفوف العليا في الجامعة الاميركية وبمد ان نصح اديه خارجها بالنقيب والمطالعة » . هذه الكلمة من استاذ ابراهيم في الادب العربي لا تدل فقط على حقيقة بل تدل ايضاً على الانصاف والخلق السمح الذين يتمتع بها استاذنا الاستاذ انيس المقدسي .

(٢) نابلس ، ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ (١٤ رمضان المبارك ١٣٥٤) .

(٣) نابلس ، ١٦ تشرين اول ١٩٣٥ .

سيد المرسلين وابنة اول الخلفاء الراشدين فتلك يرحم الله روحها ما كان اشدّ مرحها
واكثر تيمها على رسول الله ودلائها . وحديث الافك - كما روي على لسانها في البخاري -
قطعة خالدة من الادب الحي الرّاف . . . »

وكان أحبّ امهات الادب اليه كتابُ الاغاني فاكثر من مطالعته^١ وبلغ من اعجابه ان
قال^٢ : « اذا ضاع كتاب الاغاني - لا سمح الله - فقدنا ثلاثة ارباع الادب العربي . » وكانت
مطالعته عاقلة يقرأ فيحفظ ويتثقف . لما صدر كتاب « تاريخ حياة معدة » لتوفيق الحكيم
وقراه ابراهيم - فضولاً على الاقل لأن اسمه يجتذب من اصيب بمعدته - قال^٣ :

« ... تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم أثار فيه على ما انتثر من نوادر اشعب وطرائفه
فساقها كما يسوق المغيرون امامهم قطع الماشية وسماها كتاباً لا فضل له فيه إلا انه عنوان
خيّل اليه انه جذاب . اما وقد (أثار) على كتب الادب فانه لم يحسن الغارة فقد أعمى الله
قلبه عن ذخائر اشعب المودعة في بنك (الاغاني) عند مولانا ابي الفرج الاصفهاني . وعندما
استراح الى مرابعه واخذ يصنف المنهوبات وجدته يخلطها بما لابي دلامة ويحمل اشعب
من احضان بني امية وسكينة بنت الحسين ويلقي به بين يدي المأمون ... فتأمل واعجب . »
وكذلك كانت له مطالعات واسعة في كتب التواريخ كما ترى في المقطع التالي من
احدى رسائله^٤ ، قال :

« بعث اليّ الاستاذ المقدسي^٥ بديوان ابن الساعاتي هدية وإثر رسالة بعثت بها اليه
اشكره على التنويه باسمي في سلسلة المقالات التي نشرها تباعاً في المقتطف حول حركة
الادب الحديث . والديوان كما قلت^٦ فيه^٦ ، جهد يذكر رأيت ان اخصه باذاعة^٧ انوه فيها

(١) القدس ، ؟ آب ١٩٣٢ .

(٢) نابلس ، ١٣ آذار ١٩٣٤ .

(٣) القدس ، ٣٨/١٢/١٠ .

(٤) القدس ، ٣٩/٢/٣ .

(٥) الاستاذ انيس المقدسي .

(٦) كنت انا قد تقدمته في مجلة الامالي (السنة الاولى ، العدد ٢٠ ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨) .

(٧) يريد ان يذيع عنه كلمة من محطة الاذاعة الفلسطينية .

بالاستاذ وعمله . انما احب ان اقول لك شيئاً - ليس للنشر ^١ - وهو ان المصادر التي رجع اليها الاستاذ قد اهمل من بينها مصدرين هامين، احدهما كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (دولتي نورالدين وصلاح الدين) وهو لشهاب الدين ابي شامة الدمشقي . وقد ورد فيه ذكر ابن الساعاتي مراراً واثبت له فيه قصائد ومقطعات في صلاح الدين لم يُشر اليها في الجزء الذي اصدره الاستاذ واخشى ألا يرد ذكرها في الجزء الثاني ، ذلك لأن في (الجزء الاول الذي صدر قصائد مبتورة رأيت تمامها في (كتاب) الروضتين او لأن هذا القسم المبتور ليس مما تستسيغه نفس [الذين هم حول] الاستاذ لما يحتويه من ذم للحركة الصليبية ، لقول الشاعر :

وبكت جفون القدس ثانية دمماً لترنم الناقوس في افئائه

وما هو على هذا الطراز ، وانت ادري بالحال ^٢ .

« هذا ، وهنالك التاريخ الكامل لابن الاثير . ولا إخال ان الشاعر قد خلا ذكره منه ولو كان التاريخ بين يدي لصدق ظني ^٣ . وسترى عند المراجعة في الاذاعة انني سأمس هذه النقاط ما رقيقاً - رفقاً بالقوارير ^٤ . »

ولم يكن ابراهيم حافظاً للادب فقط ، بل كان ناقداً بصيراً ايضاً ^٥ . لما نظم شوقي قصيدته في زحلة :

-
- (١) كان لهذا التحفظ قيمة قبل وفاة ابراهيم .
 (٢) يظهر ان ابراهيم طوقان قد قرئ جزء الاول من ديوان ابن الساعاتي ومس النقاط التي اشار اليها مساً رقيقاً . لذلك رأيت ان الاستاذ المقدسي قد عاد الى كتاب الروضتين واستدرك في الجزء الثاني من الديوان كل ما لم يذكره في الجزء الاول . فذكر كتاب الروضتين بين المصادر المستدركة (الجزء الثاني من ديوان ابن الساعاتي ، ص ١٢٤) ، ثم جمع من الابيات التي وردت في كتاب الروضتين ، ما لا يوجد في مخطوطات الديوان (راجع الجزء الثاني من ديوان ابن الساعاتي ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ مع الحواشي) .
 واستاذنا الاستاذ المقدسي منصف جداً في دراساته الادبية .
 (٣) راجعت انا كتاب ابن الاثير (طبع ليدن) فلم اعثر على اسم « ابن الساعاتي » في فهرسه .
 (٤) رفقاً بالقوارير حديث قاله الرسول للحادي الذي كان يسوق الغافلة التي فيها نساؤه . ويقصد ابراهيم أنه سيرفق حينها يصل في نقد ديوان ابن الساعاتي الى قضية إغفال هذين المصدرين او الغفلة عنها .
 (٥) راجع مثلاً بيروت ، ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٨ ، نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ ؛ رام الله ، ؟ تموز ١٩٣١ ، نابلس ، ٢٩ آذار ١٩٣٣ .

شيعت احلامي بطرفِ باكٍ ولمت من طرق الملاح شبكي
ورجعت ادراج الشباب وورده امشي مكانها على الاشواك
ومنها :

وتأودت أعطف بانك في يدي واحمرّ من خفرها خدك
كتب إلي رسالة ١ يقول فيها في تعليق على البيت الثالث خاصة : وهنا اريد ان اقول
كلمة لعلي استطيع ان اعبر بها عما يجول في فكري . إن تأود اعطف البان شيء ذكره منذ
هلهل الشعر وبقي ينسج على منواله حتى تكاد لا تمر بديوان الا وترى فيه عطف البان .
ولكن جمال الشيء يبدو ويخفى بزيادة عليه او اخذ منه . وقد يحسن الشيء بزيادة شيء عليه
أو اخذ شيء منه ، وقل مثل ذلك في الحسن اذا قبح . وقد تبذل الفكرة ثم يقال عنها طريفة
مبتكرة بمثل ذلك . هذا ما فعله شوقي حين زاد كلمتي (في يدي) على فكرة عطف البان
المتأود المبتذلة . الحق ان شوقي توفيق في هذه القصيدة . ولا بأس بها ابداً .

وكان ابراهيم قد قال في هذه الرسالة نفسها وقبل بضعة اسطر : « قصيدة شوقي فيها
غزل رقيق جميل سيما نظره الي ايام الصبا ، وهنا الابداع . غير ان هنالك بيتاً وددت لو لم
يقع في القصيدة وهو قوله :

خرزات مسك او فصوص الكهرا

... وما ادري ، يا اخي ، كيف يغيب عن ذوق شوقي بالكلمات وعلمه بمواضعها ان
يتنكب الخوز والفصوص . انا لا اريد ان اقول ان هذه الكلمة قبيحة . كلا ، ولكن اصبح
لها عند الناس شخصية بارزة ؟ والذي اعجبني في القصيدة هذه التعبيرات : لم الشباك من
طريق الملاح والرجوع ادراج الشباب ، وقوله : فتأودت اعطف بانك في يدي .

ويجب ان نعلم ان هذه الملاحظات ابداه ابراهيم وهو تلميذ ، وقبل ان يتخرج في
الجامعة الاميركية بعامين اثنين .

هذا التذوق الادبي مكنه من ان يعمل في دراسة المخطوطات وتحقيقها فقد ساعد

المستشرق الدكتور نيكل في تحقيق كتاب الزهرة ونشره^١ كما حقق وحده ديوان العباس ابن الاحنف^٢ ، ولكنه لم ينشره، فعسى ان يتاح لاهله واصدقائه نشره قريباً^٣ . وكذلك كان ابراهيم مطلعاً اطلاقاً وافيّاً على التوراة. حينما كان ابراهيم يعد قصيدته للرد على رؤويين الشاعر اليهودي الذي عبر العرب باصلهم من هاجر وهي جارية لسارة ام اليهود :

هاجر امننا ولودّ رؤوم لا حسود ولا عجز عثم

كتب الي يقول^٤ : « واراني ساجعل كل بيت من هذه القصيدة ماخوذاً عن مصدر تاريخي ، بل من التوراة نفسها فانها تفيض بخبثهم » .

ولابراهيم مشاركة طيبة في التاريخ^٥ فلقد درس التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت ، ولكنه لم يكن كثير التعمق فيه^٦ لأنه لم يدرسه للاختصاص .

وامتاز ابراهيم - كسائر اخوته وكابناء اعمامه - بذكاء فطري . ولكنه اتجه بذكائه هذا الى النواحي الادبية عازفاً عن ميدان العلوم الطبيعية والرياضية حتى اصبح مع الايام يكره هذه العلوم ، مع ان اخاه احمد^٧ وابن عمه قدرى^٨ خاصة من الذين يشار اليهم في هذا الباب . وهكذا غلبت على ابراهيم الاحاديث الادبية في جلساته ورسائله ومقالاته . ولقد كان اعظم اعجابه بالشعراء العباسيين وبابي نواس خاصة ، حتى طبع شعره على منواله .

(١) راجع ص ٤١ .

(٢) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ ؛ نابلس ، ١٠ آذار ١٩٣٣ ، راجع نابلس ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٣) يرى المستشرق نيكل ان فدوى طوقان خليفة بان تنشر هذا الديوان احياء لذكرى اخيها .

(٤) نابلس ، ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٥) راجع رام الله ، ٣ ايلول ١٩٣١ .

(٦) نابلس ، ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .

(٧) تخرج في الجامعة الاميركية برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٢٥ A U B Directory 1953, p 163

وكان متخصصه في الرياضيات ، ثم تابع دراسة الرياضيات في جامعة كمبردج بانكلترة .

(٨) قدرى حافظ طوقان عضو الجمعية الرياضية في لندن ، وعضو الجمعية الرياضية الاميركية واستاذ

للرياضيات وله فيها تأليف كثيرة .

ان الشاعر الوجداني لا يستطيع ان يقول الشعر في كل مناسبة ، بل هو محتاج الى جو خاص يحيط به حتى تنشط قريحته ، كما ان الانفعال النفسي والتأثر بالمشاهد والاحوال يساعدان على الرغبة في قول الشاعر . وكذلك كان لابراهيم طوقان مواسم يقول فيها الشعر ويجيد قوله . وقد اتفق ان ابراهيم لم ينظم شيئاً يرضى عنه في بعض النصف الثاني من سنة ١٩٢٩^١ وكذلك كان في النصف الاول من عام ١٩٣١ ، قال^٢ : « لا ادري يا عمر ، شاعريتي قاحلة ولا استطيع ان انظم شيئاً ذا بال في هذه الايام . بل قل منذ ستة اشهر لم انظم ما يستحق النشر . وكذلك كان في اواخر ١٩٣٣ كسلان عن الشعر^٣ . اما في مطلع ١٩٣٥ فكانت قريحته فياضة . يقول^٤ : « ليس لديّ من جديد سوى انطلاق القريحة في هذه الايام على السياسات ولا اعلم السر في ذلك . خلال عشرة ايام نظمت خمس قطع (سبعة ابيات الواحدة) والحبل على الجرار كما يقولون . وهذه القطع تظهر اسبوعياً في جريدة الدفاع عندنا وفي صوت الاحرار عندكم . وقد ثبت لي انها تثير اهتماماً في الاوساط الحزبية لأنها قائمة على مناوئة المسمّون بيننا زعماء ورجال الحركة » . وهكذا نرى كيف تثير الاحداث عبقرية الشاعر . ان الكوارث تلهب الشاعرية وتدفع الشاعر الوجداني الى نظم الشعر ، واكثر شعر ابراهيم من هذا الباب .

اما المرض فانه يصرف عادة عن قول الشعر لأنه يصرف عن كل شيء . قال ابراهيم^٥ : « لعلك تعجب من قعودي عن النظم في هذه الفرص الطويلة . فعذري يا عمر بين وهذا هو : اظن انك لا تجهل ان باحدى اذني صمم . ولقد ازعجني ألمها كثيراً في الايام الاواخر ... »

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٢) رام الله ؟ تموز ١٩٣١ .

(٣) نابلس ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .

(٤) نابلس ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥ .

(٥) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ .

واحياناً يمتنع هو عن النظم لأن الشعر الوجداني يحتاج الى اجهاد . فاذا اتفق ان كان مريضاً فان اجهاد الفكر للمجيء بالشعر الجيد يزعجه جداً . قال ١ : « حركتي بقصيدتك هذه الي القول ، ولكن انازع نفسي هذه الايام فلا اود ان اقول شيئاً لانني الى الراحة احوج . والمعدة الى الدم افقر من الدماغ اليه » .

ومع ذلك كله فان ابراهيم كان يرتجل الشعر احياناً ، ولكن ارتجاله كان قاصراً على الاشعار الخفيفة التي تكثر فيها المداعبة او تكون في الغزل الصريح او الهجاء المملوء بالتهكم . اما القصائد الكبرى عنده فكان ينظمها في اوقات متطاولة ومتباعدة احياناً .

والشعر الجيد عند ابراهيم يجب ان يقترب بخصائصه اللفظية من النثر ، او هو - كما قال ابراهيم ٢ - عبارات نثرية اتفق ان تقع موزونة . « اريد ان اقول او ان اضع تعريفاً للشعر السهل الممتنع فلم اجد احسن من تعريفه بعبارات نثرية موزونة لا أثر لكذ الخاطر عليها ، بل اتفق لها هي ولم يتفق لك انت ان تكون موزونة » .

اما من الناحية الفكرية فابراهيم يجب « الفكرة البسيطة » تخرجها عاطفة معقدة ٣ .

ولم يكن ابراهيم يحب الصناعة : لا يحب ان يقرأ الادب المثقل بالصناعة ولا ان ينظم شعراً فيه مثل ذلك . يقول ٤ : « . . . مرت علي كل هذه المدة من الحياة الادبية وانا استثقل دم الكتاب العرب اصحاب الرسائل والمقامات وابطال السجع والبديع . ولكن في المدة الاخيرة منذ شهر او شهرين اخذت اضغط على نفسي بالمطالعة في كتاب الدررة اليتيمة ° وارهقها في قراءة نماذج النثر الموجودة فيه فلم يتغير رأبي في النثر العربي القديم الا بمقدار . . . وهكذا فقد (استحلطت) لبديع الزمان الهمداني هذه القطعة الآتية وقد بعث بها الي من كتب اليه : لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالادب ؟ قال : لا قرابة

(١) نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) نابلس ١٩٣٥ .

(٣) نابلس ١٩٣٥ .

(٤) نابلس ١٣ آذار ١٩٣٤ .

(٥) لعله يقصد : يتعبه الدهر للثعالي .

بين الذهب والادب ، فليمّ جمعت بينهما ؟ والادب لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفه
ثمن سلعة . . . »

واذا اراد ابراهيم ان ينظم في مناسبة ، او اذا اضطر الي النظم فيها ، فانه عادة ينصرف
عن تلك المناسبة الى موضوع عام من الادب او الوطنية او الاخلاق والتاريخ . لما رثي
ابراهيم موسى كاظم باشا الحسيني قال له احدهم : « اراك اتكأت على الرجل ثم انصرفت
عنه الى بحث آخر » . وقال له نفر آخرون مثل هذا ايضا . فعقّب ابراهيم على هذه الاقوال
بقوله : لا انكرك يا عمر اني سررت بهذه الشهادات وعلمت منها انني لم أعد الغرض الذي
اردته في تأيّن الباشا ^١ . و ابراهيم يحب البحث لا الدعاية ^٢ .

وكان ابراهيم حسن الالتقاء جداً : كان فصيح الكلام صحيح اللفظ جميل الأداء ،
يتمهل في انشاده ، جهوري الصوت فخم المخارج بما يضيفي على قصائده حينما ينشدها رونقاً
وروعة . ولقد كان هو مدرّكاً لهذه الخصائص فيه ومدرّكاً موقعها من الناس .

في عام ١٩٣٣ اقامت مدينة نابلس حفلة تكريم للاستاذ قدرتي حافظ طوقان مناسبة
منحه عضوية الجمعية الرياضية في لندن ، فاراد ابراهيم ان يكون لي ابيات تلقى في هذه
الحفلة فارسلت اليه ابياتاً منها ^٣ :

أن قدرتي أهلٌ لأن يخدم العـلم م ويُجزى عن سعيه بالشكور
نال في العلم رتبة لم ينلها غير اهل لها وغير جدير
رتبة لا تُنال بالجاه والاهـل ولا تشتري بمال كثير . . .

وكانت الابيات موافقة جداً للجو الذي اقيمت فيه الحفلة او على الحقيقة للجو الذي
كان السبب في اقامتها. فكتب الي ابراهيم بعد الحفلة يقول ^٤ : « . . . فجاءت قصيدتك قبلة على

(١) نابلس ١٤ مايس ١٩٣٤ .

(٢) القدس ١٩٣٨ (في الاصل بلا تاريخ ولا اسم مكان) .

(٣) الجامعة الاسلامية ، يافا ، السنة الاولى ، العدد ٢١٣ .

(٤) نابلس ٢٩ آذار ١٩٣٣ .

الرؤوس كما اثلجت صدور قوم آخرين . واذا علمت ان هذا العاجز كان ملقيها ادركت ما اضيف الى تأثيرها .»

— ٣ —

بين يدي صفحة من مجلة فيها مقال في خصائص ابراهيم الفنية عنوانه : « هذا شاعر »
للاستاذ عبدالحميد ياسين ، احد اصداق ابراهيم الحميمين المخلصين ، آثرت ان انقله هنا
لما فيه من اصابة وتوفيق . قال الاستاذ ياسين :

«... ولعلنا نحسن صنعاً حين نقيس شاعرية ابراهيم بالمقياس الذي وضعه ، وندلل
عليها بأمثلة من شعره . فقد جرت له مناظرة ادبية ، عرّف الشعر فيها بأنه قول ذو ميزات
خمس : أولها حسن تخير الالفاظ ، وثانيها موسيقى الوزن والقافية ، والثالثة خطاب
الحس مباشرة وفي اقتضاب ، والرابعة اتساع أفق الخيال ، والاخيرة توهج العاطفة . وقال :
« ان الشاعر ، حين ينظم البيت ويعز عليه وجود الكلمة المختارة ، يشعر انها تراوغة
وتماطله وتدانيه وتباعده ، حتى اذا هبطت في مكانها الذي اختاره لها ، تنفس الصعداء ،
ومشى في قصيدته مضاعف النشاط . الشعر اذن هو الجمال مقتنصاً بالالفاظ .» . رحم الله
ابراهيم ! فقد كان شاعراً حتى في نثره ! .

كان شاعرنا يحسن تخير الالفاظ ، اذ كان يضم الى ثروته اللغوية ذوقاً ادبياً مصقولاً .
وثروته اللغوية جاءت من ادمان قراءة عيون الادب ، كما تعاونت هذه القراءة مع الهبات

(١) ليس على هذه الصفحة اسم للمجلة التي قطعت منها ولا تاريخ . ويغلب على ظني انها مقطوعة من مجلة
« المنتدى » (القدس) . اما تاريخها فيجب ان يعود الى عام ١٩٤٥ لأن على ظهرها نعي لفرانكبان
روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة ، ولأن المقال نفسه يبدأ هكذا : « ابراهيم عبد الفتاح طوقان شاعر مجيد
فقدناه قبل اربع سنوات ... » . اما رقم الصفحة فهو على كل حال ١٢ .
وكذلك على ظهر هذه الصفحة ، مع نعي روزفلت (ص ١١) ، مقال عام في ابراهيم كتبه « صديق » .

الطبيعية على صقل ذوقه . ولذلك كانت الالفاظ تنقاد له في سلاسة ورقة ، كما يتبين في
الايات التالية ، وهي من قصيدته (معين الجمال) :

ضجعتي في الرياض بين الريحين قريباً من ماء عين معين
فتناولت اقصواناً ندياً ونداه كالؤلؤ المكنون
ونزعت الاوراق عنها تباعاً أنحرمي شكى بها ويقيني
فاذا وافقت منامي تفاءلت والا كذبت فيها ظنوني
ذاك لهو فيه العزاء لنفسي فاضحي من تعللي وحنوني

والموسيقى في شعر ابراهيم وفيرة مطربة ، وما كان أوفرها حين ينشد شعراً يعجبه ،
من نظمه او من نظم غيره . وفي الايات التالية شاهد على ذلك ، وهي من قصيدته
(واحنيني!) :

ذاكرتُ أنت عهدنا يا غديرُ
يوم كنا والعيش غض نصير
وعلى ضفتيك كنا نسير ،

فرويتَ الحديثَ عنا شجوننا وأخذنا عليك ألا نخونا؟
فأعد لي ذاك الحديث ، فأني أذهلتني النوى عن التذكار .

أما في الخطاب المباشر المقتضب للحس ، فقد قال شاعرنا : « الشعر نكتة . قد يحسن
الشاعر قولها وقد لا يحسن ، وقد (يلقطها) القارئ او السامع ، وقد تفوتها . » والمقصود
بالنكتة هنا وثبة الفكر ، او انطلاقه الخيال ، الى القول البارع او الجامع ، لا مجرد الدعاية
او محض التظرف والتندر . ومن الامثلة على ذلك قوله في (رثاء فيصل) واصفاً ذاك
الفقيد العظيم :

راقد ينعم في ضجعتيه خلت الدنيا به في شغل
ثم مشيراً الى نجله المرحوم (غازي) وما عمله في غيبته :
غضبة من رجل في أمة جعلته أمة في رجل

ومنها (في هذا الباب) قوله في (الشهيد) :

لا تسأل أين جسمه واسمه في فم الزمن

أو قوله مخاطباً مصر :

شقوا (القناة) عساها عنك تبعدني أنتى ومن لغتي جسر سيدنيني

.... لمسنا ، في الايات التي اوردها من قصيدة شاعرنا : (معين الجمال) قدرته على اجادة

التصوير . والتصوير قد يكون نقلاً عن واقع ، وقد يكون من ابداع الخيال . فمن ابداع

الخيال قوله في وصف معركة (حطين) :

تطير الارواح فيه من السنات الى السنات

ووصفه لعميدة المسرح فاطمة رشدي بقوله :

بين ابتسامتها وزفرة صدرها جند من الأفراح والأحزان

وأخيراً نأتى الى عنصر العاطفة ، وهي عند شاعرنا جد مشبوبة . رأينا مثلاً منها في

الآيات المقتبسة من قصيدته (واحيني !) ، ونورد مثلاً آخر من قصيدته (عند شباكي) :

وأخشى أن يرف الجفن بجرموني محياك

مررت وقيل مرّ الناس هل أبصرت إلاك

وقد كان قوي العاطفة الدينية ، فقال في دور نقاهته من مرض :

اليك توجهت يا خالقي بشكري على نعمة العافية

تباركت أنت معيد الحياة متى شئت في الرمم البالية !

وكان يولي العاطفة النصيب الأوفر من العناية في الشعر . فقال عن قصيدة نظمها سنة

١٩٢٥ بعنوان (نحن) ، انها « قصيدة باردة العاطفة ، مفككة الأوصال ، رخوة المعنى

والمبنى . وهل أدل من هذا العنوان عليها ؟ شعرت ان زمناً طويلاً مر بي دون ما نظم .

لماذا لا أنظم ؟ يجب ان انظم ! هذه هي النتيجة . حذلقه ! » إذن كان ابراهيم أديباً

ناقداً ، الى جانب كونه شاعراً مجيداً . وقد كان نزيهاً جريئاً في النقد ، حتى على نفسه ، كما

كان مبدعاً في الشعر ، رحمه الله !

اغاريد الهوى

لاستطيع ان نفهم غزل ابراهيم عامة إلا اذا عرفنا طرفاً من صداقته ووجه لطالبة كانت تدرس في الجامعة الاميركية اسمها ماري فلنرجع اذن الى الايام التي قررت فيها الجامعة الاميركية ان تفتح ابوابها للفتيات يتلقين العلوم والفنون مع الشبان جنباً الى جنب .

وهذا « التعليم المختلط » الذي نقص خبره هنا لا يتناول انشاء مدرسة التمريض عام ١٩٠٥ التي بدأت بتخريج طالباتها عام ١٩٠٨^٢ ، ولا التجارب الاولى بقبول الفتاة اليهودية ساره ليفي في دائرة الصيدلة حيث تخرجت عام ١٩٢٥^٣ . وكذلك لا نعد الآنسة هنريت حكيم ، او هنريت حكيمان على الاصح ، وكانت قد دخلت الجامعة عام ١٩٢٣ ثم تخرجت برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٢٧^٤ ، ولا سنية حبوب ° التي بدأت دراسة الطب في الجامعة الاميركية في بيروت ثم ذهبت الى الولايات المتحدة لمتابعة دراسة الطب هناك .

على ان التعليم المختلط بالمعنى المقصود هنا لم يبدأ قبل العام المدرسي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ حينما سجلت سبع طالبات اسماءهن في الدائرة العلمية منهن مسلمة واحدة هي السيدة

(1) Penros 252.

(2) A U B Directory 1953, p. 67.

(3) Penrose 253, A U B Directory 1953, p. 160.

(4) A U B Directory 1953, P. 175.

(٥) الدكتورة سنية حبوب ، القابلة والطبيبة القديرة المشهورة .

احسان احمد القوسي المصرية . وكانت تتلقى العلم هي وزوجها معاً . وفي العام المدرسي التالي دخل الى الدائرة العلمية ثلاث عشرة فتاة اثنتان منهن مسلمتان ^٢ .

هذا الاختلاط اطلق هزةً شديدة بين الفتیان ، ولكنها هزة كانت منتظرة على كل حال ، ولم يكن ثمت بد للجامعة من ان تدفع ثمن هذه التجربة مشاكل متعددة . وأنا لا استطيع ان أزعم ان هذه المشاكل قد زالت الآن . ولكن نظر الناس الي « المشكلة » قد تبدل . ان وقوف الطالب والطالبة اليوم في بعض أنحاء الجامعة الاميركية يدرسان او يتسامران اصبح امرأ مألوفاً ، ولكن الطالب في ايامنا كان يعرض نفسه للتأنيب او للطرده ايضاً لو حاول ان يستوقف طالبة ليسألها عن عدد الصفحات التي فرض الاستاذ قراءتها . على ان هذا التزمت من قبل الجامعة الاميركية كان ظاهرياً ، فالجامعة يوم أقرت التعليم المختلط كانت عالمة بالنتيجة التي سيصل اليها الطلاب والطالبات بعد حين - وقد كانت تقصد ان يصلوا إليها - ولكنها كانت تقصد ان يتدرج إليها الجنسان تدرجاً حتى يتم الاختلاط على مقاعد الدرس وفي مياه البحر وفي حلقات الرقص على ما اصبحنا نرى منذ أمد .

ولتعد الآن الى حديث ابراهيم طوقان . ان ابراهيم قد نظم معظم قصائده الغزلة وأروعها في ماري هذه ، وهي فتاة فلسطينية من الناصرة كانت طالبة في السنة الثانية من الدائرة العلمية في العام المدرسي ١٩٢٦ - ١٩٢٧ .

ولفتت هذه الفتاة الفارعة الانيقة انظار عدد من الطلاب فأضاعوا قسماً كبيراً من وقتهم في تتبع حركاتها وتتبعها هي . من هؤلاء الطلاب ابراهيم طوقان . وجعل ابراهيم يقول فيها الشعر الرائق والغزل الصادق منذ بدء ذلك العام المدرسي . وكان ابراهيم يسكن في الجامعة الاميركية ، وكان غرفته في الجهة الجنوبية من بناية الدائرة العلمية المطلة على المدخل الرئيسي . وكانت الفتيات يسكنن في خارج الجامعة . فكان ابراهيم يقف كل

(1) Penrose 253.

(2) Penrose 253.

صباح في نافذته يترقب مجيء فتاته . وفي ذلك يقول قصيدته : « وقوفي عند شباكي » ، عام ١٩٢٦ . غير انه حينما رتب ديوانه قبل موته جعل المطلع « بكوري عند شباكي » ^١ :

بكوري عند شبّاي لأنشَقَ طيب ريباكِ .
 ولا سلوى سوى نجوى أسرُّ بها لمغناكِ .
 أسرح نحوه طرفاً أمنّيه بمرآكِ ،
 وطرفاً في قرارِ الدارِ موعوداً بلبقياكِ ٢ .
 تمرُّ عليّ ساعاتٌ أُشيعُها بذكراكِ ؛
 وأخشى ان يرفَّ الـ جفنن يجرُمني مُحيتاكِ !

*

طلعتِ ، فما لقلبي شا يفضحني فستاكِ .
 صباحُ النور من دَنفِ تنهد ثم حيتاكِ ؛
 سلامُ الرّوح والرّيحانِ أنتِ نعيمُ دنياكِ .
 مررتِ ، وقيل مرّ النا س ! هل شاهدتُ إلاكِ ؟

*

وداعاً ، يا مُعدّتي ، وعين الله ترعاكِ .
 وداعُ سُويعةٍ قمضي على جمرٍ وألقاكِ .
 وأنسى ليلةً سلّفت وطرفي ساهرٌ بياكِ ،
 ومضجعٍ اضلعٍ مُنيتِ بنيرانٍ وأشواكِ .

*

شكرت الله أنِ الدارِ تجمعني وإياكِ ،
 وتلقين السؤالِ عليّ في أمرٍ تعدّكِ

(١) نشرت في العدد ٣٩ من الاحرار الصورة (عام ١٩٢٦) .

(٢) الدار هنا تعني الجامعة الاميركية لأنها طالبان في معهد واحد . ويمكن ان تعني « الوطن » لأنها كليهما من فلسطين .

وحين أُجيب تمنّيتُ إر تسم الشكر عيناك

*

هجرت الدار أضرب في فضاء الله لولاك ١ .
ولولا رحمة العينين قلباً بات يواك ٢ ،
وعطف من لدنك على أسي في النفس فتاك ،
إذ رأيتني يوماً صريعاً عند شباكى .

وقبل ان ينصرم عام ١٩٢٦ اخذ ابراهيم يقترّب من فتاته ويتقرب إليها . ولذلك نرى في قصيدته الثانية جرأة أكبر ووصفاً أدق وأشد تفصيلاً لها ولجلوسها وهي تطالع في مكتبة الجامعة الاميركية :

وغريرة ٣ في المكتبة يجالها متنقبه .
أبصرتها عند الصباح الغض تشبه كوكبه ٤ .
جلست لتقرأ او لتك تب ما المعلم رتبته .
فدنوت أسترق الخطى حتى جلست بمقرّبه .
وحسبت ، حتى لا أرى ، أنفاسي المتلهّبه .
ونبت قلبي عن خفو ق فاضح فتجنّبته .

*

راقبتها ، فشهدت ان الله أجزل في الهبه .
حمل الثرى منها على نور اليبدين وقلّبه ،
وسقاه في الفردوس مخ توم الرحيق وركّبه ،
فاذا بها ملك تنزّل للقلوب المتعبه ٥ .

(١) لولاك لهجرت الدار ...

(٢) قلباً مفعول به من المصدر « رحمة » المضاف الى فاعله « العينين » . ولولا ما في عينك من رحمة

لقلبي ومن عطف علي لرأيتني ...

(*) نشرت في العدد ٤٠ من الاحرار المصورة (عام ١٩٢٦) .

(٣) الفرير : الفرور المعبج بجاله ، والجبل والذي لا تجربه له .

(٤) كوكب الصباح .

(٥) نزل لتراه القلوب المستريحة فتتعب .

يا ليت حظاً كتبها لضلوعي المتعذب :
 حضنته قرأ ما حوى ، وحنث عليه وما أنتبه .
 فاذا أنتهى وجهه ، ونا ل ذكاؤها ما استوعبه ،
 سمحت لِأَنملها الجيب ل بريقها كي تقلبه ١ .

*

وسمعت ، وهي تغمغم الـ كلمات ، نجوى مطربه .
 ورأيت في القم بدعةً خلاصة مستعذبه :
 إحدى الثنايا النيرا ت بدت وليس لها شبه
 مشلوبةً من طرفها لا تحسبها مثله ٢ .
 هي ، لو علمت ، من المحا سن عند أرفع مرتبه
 هي مصدر ، السينا ت ، تكسبها صدى ما أعذبه !

*

وأما وقلب قد رأت في الساجدين تقلبته ،
 صلى لجبار الجبال ولا يزال معدّبه .
 خفقانه متواصل ، والليل ينشر غيبه .
 متعذبٌ بنهاره حتى يزور المكتبه .
 وأما وعينك والقوى الـ سعريه المتعجبه ،
 ما رُمتُ أكثر من حدي ث طيبٌ تُفرك طيبه .
 وأرومُ سنك ضاحكاً حتى يلوح وأرُقبه ٣ .

وصلة ابراهيم بفتاته هذه لم تنقطع بعد خروجها من الجامعة الاميركية ، بل إن صلته
 بها زادت فيما بعد وثوقاً وخصوصاً في فلسطين . إلا انه كان يتذكر ايامه معها فيذكر تلك

- (١) في الغاموس : الائمة : طرف الاصبع مؤنثة وجمها أغمات وأنامل . أما أنمل بمعنى الائمة فلم ترد في
 اللمة . وكان يمكنه ان يقول : لأصبعها ، ولكن ربما تمنعه من ذلك معرفته ان أصبع مؤنثة .
 (٢) الطرف (بسكون الراء او بفتحها) : الجانب . المثلية : العيب .
 (٣) السن مؤنثة ايضاً وتذكيرها خطأ .

بالخير او يشكو صباة ويرسل زفرة بعد زفرة . فمن الذكريات الجميلة التي تنطوي على مرح
وعبت ما ضمنه في موشح عذب جميل قاله في بيروت بينما لم تكن هي في بيروت ١ :

حملتني نحو الحمى اشجاني

فتهيبتُ من جلال المكان .

وإذا فوق مُقلتيَّ يدان

فتلهستُ نَضرةً ونعياً وتعرّفتُ ما لثمتُ قديماً .

قلت : «يا مرحباً» ، وقبلتُ كفاً أنزلتني ضيفاً بأكرم دار .

خَطَرَاتُ النسيمِ في واديكِ

صبحتني بقبلةٍ من فيك .

ثم عادتُ بقبلةٍ تشفيك .

فسلاماً ، يا واديَ الرُّمانِ ، 'فزتُ بالرُّوحِ منك والرَّيحانِ .

واحتيني الى ديارك والرُّما نُ دانٍ يُظِلُّ أهلَ الديارِ !

ولكنه بعد بضعة اشهر طغى به الحب فزفر زفرة حرّى حينما قال ٢ :

أطفئي 'غلتني بقبلة نغري كوثري اللمى برودِ الثنايا .

وأبسمي لي ، لعلّ فيضاً من النور رُيريني من الضلالِ هدايا .

أنتِ لا تعلمين ما لوعةُ الوجـ... دٍ ؛ ألا إنها نذير المنايا .

أنتِ لا تدركين ما يضعُ الشوق إذا هبّ عاصفاً بالخنايا .

إن في أضلعي كناراً تلتظي طار من هولها فؤادي شظايا .

وبعد عام كامل عاد ابراهيم فزفر زفرة شديدة اخرى من ألم الشوق الى فتاته بلاريب
عما ترى من الايات التالية. ومع ان هذه الايات ليست من النمط العالي، فانها صادقة العاطفة

(١) البرق ٢١ ايار ١٩٢٨ .

(٢) نابلس ٢٧ آب ١٩٢٧ .

عذبة الكلمات ، ولا غرو ، فهي مقطوعة مرتجلة . في ثنايا رسالة في آب من عام ١٩٢٨ كنت اشكو ضعفاً في عيوني من اثر الاجهاد ، فكتب الي ابراهيم رسالة فيها هذه الايات ^١ :

كيف عينك ، يا عمر ؟ أنا أدماهما السهر ،
وعصبي من الدموع طفى الهم فأنهر ،
وخيال ألم بي من حبيب لدى السحر :
طاف حيناً بمضجعي وتوارى عن النظر .
أنتعته جوانحي مهجتي عندما نفر ^٢ .

أين ليلى على شوا طيء بيروت ، يا عمر .
كان من «قرعها» الظلا م ومن «وجهها» القمر ^٣ .
ومميري 'مقبَل' طيب اللثم والسمر ^٤ .
ومدامي ، وقد ظفِرُ ت بها ، نشوة الظفر .

من 'معيد' مسرتي والزمان الذي غير ^٥ ؟
حين لم افكر بهجـ ر ولا الهاجر افكر .
ولقد قيل في الحيا ة هي اللوح بالبصر .
هكذا يذهب السرو رُ سريعاً إذا حضر .

وفي تموز من عام ١٩٢٩ ذهب ابراهيم الى القاهرة للاستشفاء في الدرجة الاولى وللقاء اخيه احمد الذي كان راجعاً يومذاك من انكلترة بعد إتمام دراسته في جامعة كمبردج ^٦ . ويظهر بوضوح ان ايام الجامعة الاميركية التي كان قد ودعها في ذلك العام

(١) نابلس ٣١ آب ١٩٢٨ .

(٢) جوانحي فاعل اتبعته . مهجتي مفعول به .

(٣) فرعها : شعرها .

(٤) مقبل : فم . السمر : الكلام .

(٥) غير : مر ، مضى .

(٦) نابلس ٢٨ تموز ١٩٢٩ .

نفسه، اذ تخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم، كانت لا تزال تملأ قلبه من هوى الغريرة التي نظم فيها بضع قصائد. وفي هذه القصيدة عتاب واضح لأخيه احمد وتعريض جلي. ان ابراهيم لم يكن يريد ان يترك هوى فتاته على الرغم مما كان به من السقم والنحول. ويبدو ان ابراهيم قال (في آب ١٩٢٩) بعد رجوعه من مصر ١ :

أعيدي الى المُضنى - وان بَعُدَ المدى -

بلهنيّة العيش الذي كان أوغدا ٢ .

تباركَ هذا الوجهُ ما اوضحَ السنَى وما اطيبَ المُفترَ والمتوردا ٣ !
فقدتكَ 'فقدانَ الصبي؛ وهل أمرؤُ' تولى صباه اليوم يَرجعه غدا ؟
فقدتكَ لِكُنِيّ فقدتُ ثلاثةً سواك : فؤادي والامانيّ والهدى .
وأبقيت لي - غير القنوطِ - ثلاثةً : هواكِ وسقمي والحنينَ المؤبدا .

* * *

أيا وادي الرّمّانِ ، لا طِبتَ منزلاً إذا هيَ لم تنعمَ بظلك سرمداً ؛
ويا وادي الرمان ، لا ساغَ طعمهُ إذا أنا لم أمددُ لهذا الجنى يدا ؛
ويا وادي الرمان ، واهَا ! وعندهم حرامٌ على المحزون ان يتنهّدا ؛
كأنّي لم أنزلُ دياركَ مرةً ولم ألتقَ في أهليك حباً ولا ندى ،
ولم تسقني كأسَ المُدّامِ حبيبةً ورَدتُ ثناياها مع الكأسِ موردا ،
ولم تُوح لي شعراً ، ولا نمتُ منشداً ، ولم يروِ شعري عندليبك منشدا .

* * *

أخي° وحببي، كنت أوجوك مُسعِداً ؛ يُساعِحكُ الرحمن لم تكُ مُسعِدا .
ألم ترني في مصر أطلب شافياً وراعكُ إشفائي على هوة الردى ؟

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ ؛ الامالي ٣ : ٢٣٩ .

(٢) بلهنية العيش : طيبه ورخاؤ .

(٣) ما اوضح السنَى : ما أشد صفاه بياضك . المفتر : الغم . المتورد : الحد .

(٤) وادي الرمان عند كفر كنة قرب الناصرة من شمالي فلسطين .

(٥) يخاطب الشاعر اخاه احمد طوقان .

ألم تترني في مَضْجَمِي مقلَّباً أَقلِّبُ في الأفلاكِ طرفاً مُسهِّداً .
 ومِنْ عَجَبٍ أَنَا شِبْهَانُ فِي الهوى ؛ بِمَنْ أنتَ هوى ، هل أَطقتَ التجلداً .
 وتقلبت الاحوال بفتاة ابراهيم ففسيا او اضطر الى ان يتناساها . فاراد صديقه ابو
 سلمى^١ ان ينكأ جراحه ويستثير حبه القديم فنظم على لسانه قصيدة مطلعها :
 يا صبايا كفركنة ، آه من اعينكنة !
 وذيلها باسم ابراهيم طوقان . وسارت القصيدة على الالسن . قال ابراهيم طوقان^٢ في
 رسالة له إلي^٣ .

« ابو سلمى : آخر ما فعله ان نشر قصيدة مطلعها : (يا صبايا كفركنه : آه من اعينكنه)
 وذيلها باسم هذا العاجز . فقام شاعر آخر وخاطبني بايات يتشوق فيها ويتوجع ويث هواه
 لكفركنة . والايات مذيلة بامضاء ابي الخطاب . فاضطرت ان اكذب الخبر شعراً فنشرت
 قصيدة اولها :

« احبس يراعك ، يا ابا الخطابِ قد حل بي ما لم يقع بحساي . *
 « تلك القصيدة لم أقل آياتها لكنها لمزور (نصاب) *
 « هذا ابو سلمى ، ولا والله ما نكأ الجروح سواه من اصحابي *
 « هيات ان يخفى علي وكله قلب بلا باب ولا بواب ، *

إلى ان أقول :

« هل كفركنة مُرْجِعٌ لِي ذَكَرُهَا ما فاتني من غفوان شباني ، ° ؟

(١) الباء في « بن » للقسم .

(٢) « ابو سلمى » امضاء مستعار للشاعر عبد الكريم الكرمني من طولكرم بفلسطين . وهو اليوم في دمشق ، وقد اخرج مجموعاً صغيراً من شعره سماه « المشرّد » (دمشق ١/١/١٩٥٣) .

(٣) رسالة فقدت صفحاتها الاولى ، ولعلها كتبت عام ١٩٣٤ .

(*) الايات المحصورة بين الالهة الصغار وردت في رسالة ابراهيم إلي . والايات المطلقة اخذتها من ديوان ابراهيم . على ان الايات الاربعة الاولى غير موجودة في هذا الديوان .

(٤) في هذا البيت تورية : قلب بلا باب ولا بواب : كنوم للسر او مذيع للأسرار (من رسالة ابراهيم) .

(٥) مرجع خطأ والصواب راجع . « ما » مفعول به .

« ام في صباياها وفي روماتها
 « لو تنفع الذكرى ذكرتُ عشيةً
 « فيهن آصرة القلوب بحسبها
 روح أخف من النسيم وخاطرُ
 غرُّ ثنابها ، وأشهد أنها
 نلقي أحاجيَ بيننا فتشيرنا
 ونزودُ الأطلان بين شجيرة
 ولقد نعرض باللقاء لموعِدِ
 تمنا وقد سقط الندى وتراحفت
 تخفي حيا البدر ثم نيينه
 وجفت مضاجعها الجُنوبُ وملؤها
 يتنا على صفوي وخوفٍ تفرُّقِ
 نسان هان عليَّ حكمك بالنوى

واصف تلك الليلة بدقة^٣ ثم اختتم القصيدة بـ :

« يا ليت من فجعتُ فؤادي بالني لم يُبق لي ذكرى تطيل عذابي » .
 على ان هذه الفتاة التي اوحى الى ابراهيم فنون الغزل لم تسد على قلبه سبل الهوى ،
 فلقد احب ابراهيم بضع مرات بعد ذلك .

حينما كان ابراهيم استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت^٤ كان يتردد على قهوة النجار ،
 في الجانب الغربي من ساحة البرج ، ليحضر ليالي راقصة اسبانية من اشيلية تدعو نفسها
 مرغريتا^٥ . وشغف ابراهيم بمرغريتا الحسنة وبمرغريتا الراقصة معاً فأوحى اليه ألواناً

(١) تمري ادمنا : تسليها . العذاب بكسر العين جمع عذب : حلو .

(٢) مضطرم الهوى وثاب : القلب .

(٣) وصف الليلة يجب ان يكون الأبيات السابقة .

(٤) في العامين المدرسين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ .

(٥) (القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ ؛ نابلس ١ تشرين الاول ١٩٣٢) .

جديدة من الغزل ، واوحى اليه رقصها مشاهد نظمها شعراً جميلاً جديداً .

ولكن يبدو ان هذا الشعر الجديد لم يثر في نفس ابراهيم الا بعد ان ترك ابراهيم بيروت وانقطعت صلته بمرغربتا هذه . كتب الي من القدس ^١ يقول : طيه قصيدة لا بأس بها بعنوان « حسرة وأمل » ^٢ اقرأها واعطني رأيك فيها . هذه القصيدة موشح جميل .
صائق عذب :

أفدي بروحي غيداً إشبيلية وإن أذقنَ القنبَ صابَ العذاب

عَلِقْتُ مِنْهُنَّ بِتَرِبِ النَّهَارِ وَجَهَا ، وَصَوِّ اللَّيْلِ فِرْعَاوَيْنَ ٣ .
في مثلها يَجْلَعُ مثلي العِذار ولا يبالي كيف أمسى وأبن .
أشربُ من فيها وكأس العُقار معاً ، فكيف الصحو من سكرتين ؟
لهفي عليها يومَ شَطِّ المزار وساقها البينُّ الى النيرين ٤ .

*

ودَعَّهَا ومهيجتي 'مَشْفِيَةً' لم يشفني رشفُ الثنايا العذاب ٥ .
وودَّعتُ بالنِظرةِ المُغرِبةِ تصحبُ 'لبِّي' معها في الرِكابِ .

يا أعصرَ الاندلسِ الحالياتُ قد فاز من عاش بتلك الربوع ٦ .
أهكذا كانت هناك الحياة متروفةً الأيامِ ملء الضلوع ؟
أهكذا الفتنة في الغايات ونشوةُ الوصل وحرُّ الولوع ؟

(١) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ .

(٢) لما اعد ابراهيم ديوانه جعل عنوان هذه القصيدة « غادة اشبيلية » . هذه القصيدة نظمها ابراهيم في نابلس والقدس وانتهى من نظمها في ١٢ تموز ١٩٣٢ ، راجع الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ١-٣) وارسلها الي في اليوم التالي ، ١٣ تموز ١٩٣٢ .

(٣) الفرع : الشعر .

(٤) النيرين - النيرب اسم قريتين قرب دمشق : احدهما قرب دمشق والاخرى قرب حلب . يلح من البيت ان الراقصة سافرت بعد مكثها في بيروت الى دمشق .

(٥) مشفية : قرية من الهلاك .

لئن مضى عهدُ ذوينا وفات ١ ولم يعدْ من أملٍ في الرجوع ،

*

فدميتي بعهدهم موفيهٗ أُرِدُّ ماضيهم بيذل الشبابُ
انا « ابن زيدون » ٢ ، وتصبو ليه « ولادة » ، في دهما والاهاب .

** *

أولُ عهدي بفنون الهوى بيروتُ ؛ أنعمُ بالهوى الأولِ .
وقيل : هل يرشدُ قلبُ غوى ؟ والرشدُ غيٌّ في الصبي المُقبل ٣ .
مددتُ ، لما قلتُ قلبي أرتوى ، يدي فردته عن المنهل .
بيروتُ ، لو شئتُ دفعتُ النوى طوعاً ولم أهجرُك ، فالويلُ لي ؛ !

*

في ذمة الله مُنى موديهٗ باسقة خضراءُ لدن رطاب ٥ .
لعلَّ في أختِكَ ، يا سوربه ، حُسنَ عزاءٍ عن جليل المُصاب ٦ !

** *

يلدُّ لي ، يا عينُ ، أن تسهدي وتشترى الصفو بطيب الكرى .
لي رقدة طويلة في غد لله ما أعقها في الثرى .
ألم تترى طير الصبي في يدي أخشى مع الغفلة ان ينفرا .
طال جناحاهُ ، وقد هتدي إلى أعالي دوحه مبكرا .

*

أرى الثلاثين ستعدو بيته مغيرةً أفراسها بأقتراب

(١) اشارة الى وجود العرب في الاندلس .

(٢) ابن زيدون شاعر كان مغرباً بولادة بنت الخليفة المستكفي . الاهاب : الجلد . انا اشبه ابن زيدون

بجي وشعري . ومرغريتا تشبه ولادة بجها وجسمها .

(٣) في الصبي المقبل : في زمن الاقبال (عنفوان الشباب) .

(٤) كنت استطيع ان ابقى في بيروت ولا اتركها .

(٥) مودية : هالكة ، زائلة . لدن : طرية .

(٦) ...؟

وبعد عشرٍ يلتوي 'عوديه' وينضب الزيت ويجبو الشهاب^١ .

* * *

لا بد لي إن عشتُ أن أعطفاً على ربي الاندلس الناضرة^٢ .
وأجتلي أشباح عهد الصفا راقصةً فتانةً ساحره .
هنالك لا أملك أن أذرفاً دمعي على أيامنا القابره .
عساك ، يا دمعَ محبٍ وفي ، ترُدُّ جناتِ المُنَى زاهره !

*

يومئذ ألقني على 'عوديه' لحن الهوى أمزجُه بالعتابُ :
أفدي بروحي غيد إشبيلية وإن أذقنَ القلبَ صاب العذاب .

وكان ابراهيم قد اعطى الاستاذ الفنان مصطفى فروخ صورة صغيرة لمرغريتا وطلب منه ان يكبرها باللون المائيه^٣. وانهى مصطفى فروخ الصورة وارسلها الى ابراهيم فاعجب بها ابراهيم فقال: « ولا زالت انامل مصطفى تخرج المبدع^٤ ». واوحت اليه الصورة ما كانت توحي اليه السيورة^٥ ، فنظم فيها مقطوعة جميلة. ولكن نسي ان يرسلها الي في حينها فارسلها بعد مدة^٦ :

برّح بي الشوقُ ، فلما طغى فزعتُ للرسم فكبرتهُ .
وما شفى داءً ... ولكننا قلبي شكاً البعدَ فعللته .

(١) ولد ابراهيم طوقان عام ١٩٠٥ ونظم هذه القصيدة عام ١٩٣٢ يوم كان عمره ٢٧ عاماً . وتوفي عام ١٩٤١ فيكون قد توفي بعد تسع اعوام من نظمها مما يعد اتفاقاً عجيباً ، سواء اكان ذلك حساً صحيحاً بدنو الاجل او اتفاقاً عادياً .

(٢) كان ابراهيم يريد ان يزور اسبانية وكان يجب ان تزورها معاً. وقد بدأ يتعلم اللغة الاسبانية (راجع : القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ نابلس ١٠ آذار ١٩٣٣) .

(٣) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ ؛ ١٠ آب ١٩٣٢ ؛ ? آب ١٩٣٢ .

(٤) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ نابلس ١ تشرين الثاني ١٩٣٢ .

(٥) لما كلفني ابراهيم بأمر الاهتمام بارسال الصورة المكبرة قال (القدس ١٠ آب ١٩٣٢) : لك اجر وثواب عند الله لقاء احسانك لهذا الغريب المظوع الذي اصبح يتعمل بالخيال عن الحقيقة وتكفيه الصورة بدلاً عن (السيورة) .

(٦) نابلس ٢٣ اغسطس (آب) ١٩٣٣ .

ولم أجد في الرسم أخلاقها جربتها حيناً وجربته .
مُنْتَظري في مضجعي دهره : جودٌ بجِئيلٍ ما تعوَّدته .
ظل ، وقد كَامته ، باسماء ، ولم يمانع حينَ قبَلته .

...

عرفتُ للرسم إبداعه وعدتُ للرسم فأنكرته :
قد فاته دلٌ تمنّيته منها ومُطلٌ كم تذوّفته .
لو جاء في الرسامُ بالمُشتهى كفرتُ بالله وأشركته !

ولكن بما يؤسف له ان هذه الصورة مفقودة الآن كما اخبرني الاستاذ احمد طوقان.
ومنذ اواسط عام ١٩٣٢ بدأ ابراهيم ينظم مشهد « البلبل الصريع » ، وهو مشهد
مستوحى من احدى رقصات مرغريتا، ومن قصيدة البلبل والوردة للشاعر الانكليزي اوسكار
وايلد^١ . هذا المشهد يمثل الشاب الساذج يدخل المدن ممتلئاً صحة وثروة واملاً بالمستقبل
فيزلق في مزلق اللهو فيخسر صحته وماله ومستقبله . فالشاب يمثل البلبل ، والوردة ترمز
الى بائعة اللهو والعبث ، والروض رمز للحانة او الملهى . اما مطلع هذا المشهد فهو :

قدرٌ ساقه فأواه روضاً لم يكن طار فيه قبلُ وغنى .

ومن اقسام هذا المشهد :

صارت الوردة الخليفة للبلد بل همّاً ومأرباً يُشقيه .
حسرتا للفرير ، اصبح كريباً ما يلاقيه من دلال وتيه .
سفه السهد فاعتراه من الحب سقامٌ مبرحٌ يُضنيه .
من رآها ، وقد تحامل هفو نحوها ، كيف أعرضت تغرية ؟
من رأى روحه تسيلُ نشيداً لاهباً لوعة الأسي تُذكيه ؟
هي حواء ذلك الخلد . فاحذر ، لا تكونن أنت آدم فيه !
لا تهب قلبك الكريم لثيماً تحت رجليه عابثاً يلقيه .

(١) المنتدى ، احد اعداده ١٩٤ (راجع ص ٨٠ ، الحاشية الاولى) ص ١٢ .

Oscar Wilde كاتب وشاعر انكليزي (١٨٦٦-١٩٠٠) .

ولقد نقل الاستاذ عبد الحميد ياسين هذه القصة الى اللغة العربية باسم الغندليب والوردة (اقاصيص ، ص ٥-١٨) .

(٢) القدس ١٠ آب ١٩٣٢ . عنوان هذا المشهد في الديوان الذي اعده ابراهيم « مصرع بلبل » .

وينتهي مشهد البلبل الصريع بالمقطع التالي :

ضمها الطيرُ مطبقاً بجناحيه ه وهمت بشغره شفتها .
لم يُنسعُ بنشوة الحب حتى أشرعت شوكةً تلطسُ شباها .
أوردتها قلباً ، إذ ارفَّ يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها .
كرعتُ في الدم البريء ، فلما عكسته وهاجةً وجنتها ،
نظر الطيرُ نظرةً أعقبها روحه طيَّ شهقةً معناها :
وردة ، تبهّرُ العيون .. ولكن كثرةُ الشم قد أذاعت شذاها .

ومن اللواتي وجدن سيلا الى قلب ابراهيم فتاة مسلمة يسميها فوزَ كان يلقاها في غدوه ورواحه ثلاث مرات كل يوم ، فيما يقول . ثم إنها مرضت فلم يرها اياماً . وبعدئذ شفيت فعاد الى الالتقاء بها في طريقه . ولقد اوحى اليه هذا « اللقاء » في « الطريق » مقطوعة هي :

يا فوزُ ، ربي منك يا قاسيه ؛ عذبّيني ظلماً ، كفى ما بيه .
أراك في اليوم ثلاثاً ولا أنال إلا النظرة الجافية .
والله ، لو تدرين ما قصتي ما كنت عن حالي إذن راضيه .
بل كنت لي عوناً على غربتي ، وكنت لي راحةً آسيه .
مرضت اياماً فلم تطلعي ظللتُ فيها مهجتي داميه .
أسأل عنك الناس مستخبراً وهانَ ادعو لك بالعافيه .
حتى إذا أبلت ، يا منبتي ، خفف عني الله بلوائيه .
بُشراك ، يا قلبي ، فقد أصبحتُ تغدو إلى ملعبها ثانيه .
مليكةٌ ما بين أنراهما ؛ يا ليتني كنت مع الحاشيه .
يا وردةٌ ترسل أنوارها فيضاً على الكون من الرابيه .
يا ربّة المنديل من تحتيه نبعهٌ حُسنٍ تَوّرهٌ صافيه ،
ناشدتُك الاسلامَ ، لا تقبلي أخاك في دينك يا قاسيه .

اما فوز هذه فيجب ان تكون من المصطافات في بحمدون لأن هذه المقطوعة نشرت

في السابع من تموز ١٩٣٥ . في ذلك الحين كان ابراهيم في بحمدون بلا ريب فقد كتب الي بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٣٥ يقول : انا هنا اقضي اوقا تاً لا بأس بها مع عبد الله مشنوق وليف من الاصحاب منهم الجديد وفيهم القديم . اما متى اعود الى فلسطين فالمرجع فيه الى الطبيب . ثم كتب الي رسالة بتاريخ ٦ آب ١٩٣٥ من بحمدون ايضاً وذكر لي انه ما زال يتردد على الدكتور خياط^٣ . والبيتان الثالث والرابع يدلان على انه لما نظم هذه المقطوعة كان غريباً (في غير فلسطين) وكان يتداوى .

وكذلك فتن ابراهيم بمرضة روسية يبدو انها كانت في نابلس في عيادة احد الاطباء . وكان ابراهيم يتردد على ذلك الطبيب ليصير حقنه بابر تتعلق محتوياتها بمرض القرحة في المعدة^٤ . والظاهر من المقطوعة ان هذه الممرضة الروسية هي التي كانت تتولى امر حقنه بتلك الابر . قال ابراهيم يتشوق الى تلك الممرضة ويبشها شكواه :

يا حلوة العينين يا قاسية ، سرعان ما أصبحت لي ناسية .
 أما أنا فلست أنسى يداً ناعمةً تجود بالعافية .
 لئن شفى الطبُّ ضيَّ عارضاً فمهجتي أنت لها شافية .
 وذبرة الآسي ، على نفعها ، أفللُ منها نظرةً ساجية °
 تبعثها عيناك في أضلعي فياضةً بعطفها آسية .
 تلامُ قلباً نكأت جرحه فعاد يهوى مرةً ثانيه ؛
 وتطفىء النار التي حررت فأرجعتها زفرةً حاميه .

* * *

قبصرة الحسن ، ألا أستكي إليك من جورك يا طاغية :

(١) جريدة فلسطين .

(٢) جعل عنوانه في هذه الرسالة : بحمدون - المحطة - لوكنة ثابت .

(٣) جورج خياط .

(٤) نابلس ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

(٥) الآسي ، الطبيب ، الشافي . الساجي : الساكن ، الهادي . ويقصد الشاعر هنا : المين الفاترة الفاتنة

المملوءة بالدلال .

هل كان نسيانك لي هفوةً أم خبطةً أشراكها خافيه ؟
سيدتي ، ذنبك مها يكنُ تفغيره أذارك الواهيه .

وغزل ابراهيم عفيف ، واكثره نسيب فيه ذكر للايام الماضية وتشوق الى المحبوبة ، كما ان فيه تحليلاً بارعاً لنفسه في تلك الميادين . ولكن له ايضاً مقطوعات عليها نفحة من الصراحة والجرأة . وسأكتفي هنا بقطعتين فقط : اما الاولى ففيها وصف حسي وتحليل نفسي معاً ، وهي من شعره الاول قيلت عام ١٩٢٩ ، ويبدو انها في م.ص :

ما كنت أرغب ان أسمى قاسياً فأنقرَ الأحلامَ من عينها .
والشوق يدفعني الى إيقاظها ، وبدي تحاذرُ أن تُمدَّ اليها .
وكانما شعرَ الرقادُ بنعمةٍ فأقام غيرَ مُفارقٍ جفنيها .
ويلُ قلبي ، كيف لم يفتك به مرأى تغلبها على جنبيها .
وتنهدتُ بما تُكنُّ ضلوعها ؛ ياشوقُ ، ويحكُ لا ترعُ نديها !
حسي جوىً أني نظرت لشعرها ينكبُ مرتشفاً ندى خديها .
وأغارُ منه إذا اطمان به الكرى ، ويثيرني متوسداً زنديها .

...

أذنو بلهفة عاشقٍ لم يبق من صبرٍ لديّ وقد حنوت عليها ،
فيصدُّني أدبي وأبعدُ هيبهً ، وأودُّ لو أجتو على قدميها .
فالنفسُ بين تهيبٍ بما ترى وتلهبٍ ، فاحترت في امرها ٢ .
ولعلَّ أشواقِي بلغنَ بي المدى فوقعتُ لا أصحو على شفتيها .

اما القطعة الثانية فهي ايضاً من اول شعره ، قيلت عام ١٩٢٩ . ولكنها ابعدي المجون :

لم ألقَ بين لبالي التي سلكتُ كليلهٍ بتبها في ديرِ قديسٍ .
ضممتُ حسناء لم يُخلق لها مثلُ بين الحسان ، ولا حورُ الفراديس .
ما عرشُ بلقيس في إبان دولتها ، ولا سليمان مزفوفاً لبلقيس ،

(١) راجع ايضاً مجلة الاحد (دمشق) السنة الثالثة ، العدد ١٠٩ ، ٢ شباط ١٩٤١ .

(٢) احتوت من احتار لم ترد في اللغة ، يقصد حرت من حار بحار .

يوماً بأعظم منّا في السرير وقد دام العناقُ الى قرع النواقيس !
وهناك مقطوعة ثالثة في هذا الباب قالها يوم كان يسكن في رام الله (قرب القدس) .
قال : « ولي جارة اسمها بهية وتسمي نفسها بهاء ، وهي بهاء حقيقة ... » ولقد كانت
بهاء هذه فلاحه في رام الله وكانت جميلة جداً ، ولم يذهب غزل ابراهيم فيها سدى .
قال ابراهيم :

« بهاء ، يا جنةَ الحسن ويا كثره الصافي ،
ويا أفضلُ بين الغيـد من عشرة آلاف ،
فديتُك 'حق' للهمز ة ان توضع في الكاف ٢ .

المجون :

يبدو من مراجعة رسائل ابراهيم واشعاره انه ظل ينزه نفسه عن العبث وينزه شعره
عن المجون حتى اواسط عام ١٩٣١ . فبين دفاتر ابراهيم دفتر فيه قطع موسومة بالشرارات :
الشرارة الاولى ، الشرارة الثانية . الخ نظمها بالاشتراك مع وجيه البارودي بين ٢٥
تشرين الاول ١٩٣٠ و ١٨ ايار ١٩٣١ ٣ . هذه الشرارات في الغزل المؤنث وفي فتيات كن
في الجامعة الاميركية ومن خارج الجامعة الاميركية . غير ان في هذا الدفتر اربع قطع في
الغزل المذكّر استقل بها وجيه البارودي وحده . وظل ابراهيم الى آخر حياته لم ينظم في
الغزل المذكّر قط .

في اواسط عام ١٩٣٢ كانت صلات ابراهيم قد توثقت بالصديقين اللذين اشرت

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

(٢) ك - رسم الحرف هكذا ابراهيم نفسه بعد كلمة « الكاف » . اما الاشارة فواضحة « سوى صورة
حرف الكاف بالهمزة » : الهمزة مقطوعة من اول كلمة ، والكاف مقطوعة من أول كلمة اخرى .

(*) ص ٣٠-٣١ .

(٣) الشرارة الخامسة اشترك في نظمها ابراهيم طوقان ووجيه البارودي وغالب عرفات (ولد غالب عرفات
في نابلس سنة ١٩١٠ وتخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة B.B.A. بكالوريوس في الادارة التجارية
سنة ١٩٣١ . 1953, p 212 (A U B Directory) .

اليهما في ترجمته^١ وكانت المياه قد عادت بينه وبين وجه البارودي الى مجاريها فبدأ يتأثر باتجاه هؤلاء الأصدقاء في المجون والنظم فيه .

ولم يلبث ابراهيم في اعقاب ١٩٣٢ أن سلك سبيل الهوى والكأس فذكر ذلك في قطعة له عنوانها مغامرة^٢ :

ربَّ يومٍ كأننا كرع البحر فغطى السماء بالمعصرات^٣
يتزاحن في الفضاء الهويننا مُسبَلات الذبول منمهرات .
جمد القُرُ معشر الطير حتى بكمت في الوكون مرتكبات^٤ .
عصف الشوق يومذاك بأض لاعبي فأزرى بثورة العاصفات .
لم يزلْ بي ° حتى تجشمت هول السير عدوًّا الى الحبيب المؤاتي .
انقرى بين الضباب طريقي مستنيراً مقادح الزفرات^٥ .
أترعت لي كأس المدام وقالت : هاك ، لا ترفضنها بحياتي .
قلت : منها اشربي قليلاً . فلما فرعتها^٦ بريقها قلت : هاتي .

وابراهيم لم يسم هذا الصديق الذي دلّه على طريق الهوى في هذه « المغامرة »، ولكنه ذكره باسمه الصريح وبكنيته في قطع اخرى ، ثم هو يذكر اساليب ذلك الصديق نثرًا ايضاً ، قال^٨ ،

« جاءني ... عصارى يوم وقال لي بلهفة : انها اجتازت من هنا قبل دقائق معدودة !

(١) ص ٤٣ .

(٢) دفتر المخطوط ١٩٣٢ ، ص ١٣ .

(٣) المعصرات هي السحب التي امتلأت بلاه وحان لها ان تمطر . جاء في سورة النبا : « وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » (٧٨ : ١٤) .

(٤) بكم : خرس . الوكون : المواضيع التي تمشش فيها الطيور . مرتكبات : مجتمعات بعضها على بعض (طلباً للدفء) .

(٥) الضمير في « يزل » يعود على احد صديقيه .

(٦) زفراتي الشديدة (من الشوق) كانت تقدح ناراً فتنبير طريقي .

(٧) هنا : مزجتها .

(٨) دفتر المخطوط ١٩٣٢ ص ٦ .

ولك إمشي معي بتلحقها... فتبعته...» ثم يذكر ابراهيم شعوره بعد هذه الحادثة في ثمانية آيات^١.

وفي عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٤ نظم ابراهيم شيئاً كثيراً من المجون مما ينطوى على صور شعرية صحيحة ولكن لا يصح اثبات شيء منها في هذه الدراسة. على ان آخر ما نظمه في المجون قصيدته المشهورة «شهر ايار». ولا شك في انها رائعة في صورها الشعرية.

☆

وبما يدخل في غزل ابراهيم قصيدة مشهورة جداً، ولكنها ليست لابراهيم وحده. هي قصيدة «ياتين ياتوت» او حدائق الشام. هذه القصيدة نظمها ابراهيم طوقان وحافظ جميل ووجيه البارودي في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٨^٢.
اما القصيدة تامةً فهي^٣:

ياتينُ ياتوت يارمان يا غنبُ يا درُّ يا ماس يا باقوت يا ذهبُ .
اللهُ اللهُ ، ما هذا الدلالُ؟ وما هذا الصدودُ؟ وما للقلب يضطربُ؟
ياتين ياتوت يارمان يا غنبُ !
الشمسُ ما الشمسُ، إن الشمس تنكفُ؛ البدرُ ما البدرُ، إن البدر ينخسف .
والدمع ياتين، إن الدمع يندرف، يامنية القلب، هل وصلٌ وأنصرف !
ياتين ياتوت يارمان يا غنبُ .
ياتين ، ياليت سرح التين يجمعنا؛ ياتوتُ، ياليت ظل التوت مضجعنا؛

(١) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ص ٨ .

(٢) الدفتر ١٩٢٦ ، الصفحة ١١ .

(٣) كتب الي الدكتور وجيه البارودي (حاة ٧ ايلول ١٩٥٤) ان ابراهيم وحافظ جميل عادا ذات يوم من البحر وهما ينشدان المقاطع الثلاثة الاولى من هذه القصيدة فاشترك معها فأكملوا كلهم القصيدة على ما هي مشيئة هنا .

... والدكتور وجيه البارودي لا يرى هذه القصيدة بارعة جداً . قال : « وما يؤكد نظريتي هذه ان حافظ جميل ، بعد مضي سنوات ، عارضها بنفسه (وحده) فهدب وشذب وازاف وجدد فيها فجات احلى واشهى وارق معنى ومعنى » .

وأنت ليتك، يا رمان، 'ترضعنا ؛ والكرم، ياليت بنت الكرم تصرعنا .
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 يا يومَ أقبلنَ امثال التائيلِ . مكاتلاتٍ بهالات الأكاليلِ ،
 تبعث ليبي ، وليبي ذات تضليل . ليبي فديتُك ما أقساك ، يا ليبي .
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 يا جارة القلب يا 'قمرية الوادي يا غادة لا عداها ربيقُ الغادي ،
 لئن ظفرت بقرب بعد إبعاد يوماً فإني من الزلفى بيمعاد .
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 يا نفحة الآس يا ورد البساتين ، ويا شذا نرجسٍ غضٍ ونسرين ،
 ويا هزاراً شدا بين الأفانين ، أراحل انت أم باقي الى حين ؟
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 يا كوكب الحسن يزهو في العشيات ، ويا ربيبة اتراب السماوات ،
 يا مطلع الفجر وتصح الثنابات ، طوفي علينا بأكواب الحُميمات
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 باكرت ، يا تين ، نحو التين أجنبيهِ وأذرف الدمع من عيني وأسقيه ؛
 أسندت رأسي الى فرع أناجيه فرجع الطير نوحى في أعاليه .
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 هل نظرةٌ لعبيد القلب مفتون ام نهلةٌ من لَمَّاك العذب ترويني .
 أو اه ، أبكي على من ليس يبكي . يا من رأى نرجساً يبكي على تين !
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
 حدائق الشام ، عين الله ترعاكِ ولا سرت نسمة إلا برَيَّاكِ .
 يا مرتع العُرب الأتراب، نعماك ؛ تفتو عن بهجة الدنيا ثناياك .
 يا تين يا توت يا رمان يا عنب !

تجار السياسة والوطن

ان الشعراء الذين قالوا في فلسطين وفي الكفاح العربي في وجه العدوان البريطاني اليهودي كثار جداً . فليس في العالم العربي من لم يشعر بالكارثة التي هضمت العرب حيث كانوا في وطنهم المترامي الأطراف . ولا غرو « فلسطين تعد قضية قومية عامة ، ولذا نرى الأدب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرها . ولو جمعت الأقوال التي قيلت فيها منذ بدء الانتداب البريطاني إلى هذا العهد للمأت مجلدات ^١ » .

اما في فلسطين نفسها فهناك نفر وقفوا معظم شعرهم في الأكثر على هذه الناحية القومية الوطنية السياسية، منهم ابراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود^٢ وعبد الكريم الكرمي^٣ وبرهان الدين عبوشي^٤ وعبد المنعم الرفاعي^٥ وفدوى طوقان اخت ابراهيم^٦ . على ان

-
- (١) الاتجاهات الادبية ١ : ١٤٧ ؛ راجع العوامل الفعالة ١٠٧ ، ١٠٩ ؛ الفلطينيات .
 - (٢) عبد الرحيم محمود يأتي في المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان في هذا الباب من القول . ولكنه فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المجاهدين وقد سقط شهيداً في معركة الشجرة في ١٣ حزيران ١٩٤٨ . (راجع بعض قصائده الوطنية في مجلة الأمالي : الشهيد ، موت البطل ، ذكرى الزمان ، ١ : ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٤٠٤) .
 - (٣) راجع مجموع شعره « المشرّد » ، وهو يضم قصائد وجدانية يمتزج فيها الغزل بحب الوطن والنيب بالحماسة ، ما عدا « الثوب الازرق » (٩٥-٩٧) فانها غزل خالص .
 - (٤) برهان الدين عبوشي من جنين ، ومن الذين جاهدوا باقوالهم واموالهم وانفسهم . نجد عدداً من قصائده الوطنية في مجلة الامالي : المرج الكتيب مرج ابن عامر - امة العرب - أتصفو الليالي ؟ - في ما التجمل يا زمان (الامالي ١ : ١٩٧ ، ٧٩٢ ، ٨٨٨ ، ١٠٥١) . ولبرهان الدين عبوشي « شبح الاندلس » ، وهو مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومركزه جنين الكبرى (بيروت ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م) .
 - (٥) عبدالمنعم الرفاعي ، نجد له ثلاث مقطعات في الامالي (١ : ١٠٧٨) بعنوان : الفردوس الملتبب أو ألحان فلسطين .

(٦) فدوى طوقان (ولدت في نابلس نحو عام ١٩١٤) نجد لها قصيدة في الامالي (١ : ٤٠٣) بعنوان « الله فيك وفي بنبك » . ولها ايضاً مجموع شعر « وحدي مع الايام » فيه خمس قصائد فيها نغمة من الوطني والحماسة : الروض المستباح - اليقظة - بعد الكارثة - مع الاحبة في العيد - رقية (ص ١٢٠-١٣٧) .

ابراهيم كان اوسعهم قولاً وانفذهم بصرأ . ومع انه توفي قبل وقوع الكارثة بسبع سنوات كاملة ، فانه كان يجزم في اشعاره ، وفي رسائله إلي ، بالنتائج المنتظرة من تحاذل العرب وتنازع رؤسائهم على سفاسف الأمور وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح . اما نغمته البالغة فكانت على الزعماء المنافقين كما سزى ذلك في مواضعه . ولم يبالغ استاذنا - استاذي واستاذ ابراهيم - الأستاذ انيس المقدسي لما قال : « ولعل شعر ابراهيم طوقان أصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونفثاته الوطنية الحارة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها . . . ولولا حرج الحال لأثبتنا هنا كثيراً من نفثاته الوطنية المستمدة من شقاء فلسطين وسوء احوالها » .

بدأ الانكليز منذ بدء انتدابهم على فلسطين يُرسون قواعد الوطن القومي اليهودي فarsلوا الى فلسطين مندوباً سامياً يهودياً ثم جعلوا يسنون القوانين حتى يفسحوا المجال امام اليهود بالهجرة وبشراء الاراضي وبالاستقرار ونيل الامتيازات . ثم انهم اخذوا يضطهدون العرب - والمسلمين منهم خاصة كما يحدث في جميع البلاد المستعمرة - او يهملون شأنهم فتبقى قراهم او احياء المدن التي هم فيها على ما كانت عليه ، فنشأ الجيل العربي في فلسطين جيلاً جاهلاً ضعيفاً فقيراً . بعدئذ قام الانكليز بافساد الخلق العربي فنشروا المسكرات - والويسكي على الاخص - بين الشبان وخصوصاً من اهل البيوتات الكبيرة حتى ندر ان نجد بين رجال الطبقة الاجتماعية العليا من لا يشرب الوسكي ولا يلعب البريدج ، لاهين بذلك بعض اللهو او كلاًه عن الاهتمام بحال بلادهم . اما الطبقات الوسطى والدنيا فتولى امرها اليهود يسهلون لها سبل الفسق في كل مكان فيسلبونها صحتها ومالها واخلاقها . ويعود الانكليز واليهود معاً الى جميع الطبقات في فلسطين فيغرونهم بالاموال لبيع اراضيهم ويبدلون لهم فيها اثماًناً جنوبية مئين وآلافاً . فالفلاح الذي كان لا يستغل ارضه الا بوضع جنيتها في

(١) العوامل الفعالة ١٠٩ ، الاتجاهات الادبية ١ : ١٤٧ - يذكر الاستاذ المقدسي (الاتجاهات الادبية ١٤٧ : ١٤٧ ، الحاشية ٣) قوله : « وقد جمعت شقيقته شعره ونشرته في ديوان خاص » . ان ديوان ابراهيم لم ينشر بعد ، الا اذا كان الاستاذ المقدسي يعني بديوانه الذي جمعه اخته فدوى ونشرته في كتابها « اخي ابراهيم » (المكتبة المصرية - يافا ١٩٤٦) .

العام باع ارضه بعشرات الالوف . ولكن هذا الاثمان لم تفد عرب فلسطين كثيراً لأن اليهود كانوا يأخذون منهم بالشمال ما يعطونهم باليمين ، كما يقول ابراهيم . كان الفلاح يبيع ارضه بعشرة آلاف جنيه مثلاً فتعلق به فتاة يهودية ولا تزال به حتى تبتز بدلالها ودهانها منه آخر جنيه منها ثم يعود هو فلا يجد فلساً من ثمن ارضه ولا يجد ارضه . ان هذه السياسة لم تكن قاصرة من جانب المستعمر على فلسطين وحدها، ولكن المستعمر طبقها تطبيقاً واسعاً مستعجلاً على فلسطين . واغرب من هذا كله ان هذه السياسة تطبق الى اليوم في اقطار مختلفة ولما ينتبه مجموع المسلمين بعد الى خطرها الداهم .

ثم ان الانكليز عادوا مرة اخرى الى المسلمين من عرب فلسطين وشغلوهم بالسياسة المحلية التافهة وقسموهم أحزاباً وشيعاً يقاتل بعضها بعضاً على الاستئثار بمركز في المجلس البلدي في القرى . أما رئاسة البلدية في القدس خاصة ثم في يافا وحيفا فكانت البلاء الاكبر . وحديثُ النزاع بين « دار الحسيني ودار النشاشيبي ، ثم تدخلُ دار الخالدي » تدخلاً فرعياً في هذا النزاع امر مشهور الأسباب مشهور المجري مشهور العواقب . ولكن محله في كتب التاريخ لا في هذه الدراسة التي يكفيننا ان نعرف فيها هذا القدر الذي قصصناه مجملًا لنفهم به شعر ابراهيم في هذا الباب .

غير اني أحب ألا يذهب الوهم بالقارىء الى أنني ألوّم المسلمين في فلسطين على ضياع فلسطين . لا ، ان جميع المسلمين في جميع اقطارهم ملومون في ذلك ، ولكني « أصف هنا العمل الاستعماري الذي عمله الانكليز في فلسطين ويعمله سائر المستعمرون في بلاد الاسلام ، ولكن بصورة أهدأ وأبطأ » . وعلى كل فاننا لا نستطيع ان نفهم الشعر الوطني السياسي في ديوان ابراهيم طوقان إذا لم نفهم هذه الأحوال او إذا لم نحيط بتلك العوامل . اما انا شخصياً فأرجو من بني أمتي في كل صقع خاضع للاستعمار الظاهر او الباطن ان يفتحوا أعينهم على وسائل إضعافهم بالسياسة التي كانت تتبع في فلسطين .

هذه الحال التي أبسطها شعر بها كل مخلص نافذ البصر . كتب السيد برهان الدين العبوشي - وقد عرفته تلميذاً متوقداً حمياً وحماسة يوم كنتُ استاذاً في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس في العام المدرسي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - يقول عن الانكليز وعن سياستهم في

فلسطين^١: « فقد خدعوا الوجوه والأعيان وطلاب الوظائف... فجردونا من كل ما 'يهيىء' لنا بناء دولة عربية مستقلة وأيقظوا في العائلات في المدينة والقرية الفتنة النائمة.. ثم اقتحموا مضارب الخيام فأطمعوا أهلها بالذهب وأفسدوا بين العائلات الحاكمة وأغرأوا غيرها (لما أشاروا إليها ان) تهنياً للحكم فأصبحت الرؤوس أطوع لهم من بنانهم. وكانوا قبل ذا قد ابتدعوا وعد بلفور فترعرع على أكفهم بينما العرب مشغولون بالشقاق العائلي والتنافس على العرش الذي يصنعه العدو» .

لم يحتج الإنكليز واليهود الى أكثر من بضع سنوات حتى تمت لهم الخطوة التي ارادوها وتشقق العرب في فلسطين ودخل عليهم الوهن واصبح اليأس اغلب عليهم من الرجاء . لقد خسر العرب معركة فلسطين الاولى عام ١٩٢٨ قبل عشرين عاماً من دخول الجيوش العربية اليها لتخرج منها هي واهل فلسطين الى حين .

في الحفلة الختامية لكلية النجاح الوطنية في نابلس (أيار ١٩٢٨) القى ابراهيم طوقان قصيدة عرض فيها لضرورة التفاؤل ثم استنهض الهمم وحمل على محترفي الوطنية والدجالين حملة شديدة . وها أنا 'مُثبِت' المقطعين الاولين من هذه القصيدة :

كفـكفـ دموعك ليس ينـ فعكـ البكاء ولا العويل^١ .
 وأنـهـضُ ولا تشكُّ الزما ن، فما شكاً إلا الكسول^٢ .
 وأسـلـكُ بهمتك السبيـ ل، ولا تقل: كيف السبيل؟
 ما ضلّ ذو أملٍ سعي يوماً وهمته الدليل؛
 كلا، ولا خاب امرؤ^٣ يوماً ومقصده نبيل .

أفـنيتَ ، يا مسكينُ ، عمـ رـكـ بالتأوُّه والحزن^٤ .
 وقعدتْ مكتوفَ اليديـ ن تقول: حاربي الزمن .

(١) شبح الاندلس ٩ .

(٢) يقصد الكسلان ، لأن « كسول » صفة للفتاة المنعمة التي لا تبرح مكانها كثيراً . و « كسول » عند العرب صفة مدح .

ما لم تقمُ بالعِيبِ أن ت فمَن يقوم به إذن ؟

كَمْ قَلتَ : «أمراضُ البلاد» ! وأنتَ من أمراضِها ؛
والشؤمُ علَّتها ، فهل فتشتَ عن أعراضِها ؟
يا من حملتَ الفأسَ تدمرها على أنقاضِها .
أفعدتَ فما أنتَ الذي يسعى إلى إثمِها .
وأنظرتُ بعينيكَ الذنابَ تَعَبُّ في أحواضِها .

وطنٌ يُباعُ ويشتري وتصبح : «فليحَيِ الوطنُ!»
لو كنتَ تبغي خيرةً لبدلتَ من دمك الثمن .
ولقد كنتَ تضمدُ جرحه لو كنتَ من أهلِ الفطن .

إن هذا العتاب الرقيق وهذا الأمل الغض في شعر ابراهيم سرعان ما تحولا نقمة
مُحذقة على سمسرة الأراضي الذين يبيعون البلاد من غير ان يفكروا في مصير «احفادهم»
فنظم في النصف الأول من عام ١٩٢٩ قبل الثورة (آب ١٩٢٩) ' مقطوعة صريحة جداً
تنضح بالتشاؤم :

باعوا البلاد الى أعدائهم طمعاً
قد يُعذرون لو أن الجوعَ أرغمهم .
والله ، ما عَطِشوا يوماً ولا جاعوا .
وبُلِّغَةُ العار عند الجوع تَلِفَظُها
نفسٌ لها عن قبول العار رداعُ .
لكنهم ، وعذابُ الله يحقُّهم ،
للبطن والفرج دون الخير نزعُ .
لا يفهمون ؛ ودون الفهم أطباع .
أعداؤنا - منذ أن كانوا - صيارفةٌ ؛
ونحن - منذ هبطنا الأرض - زراع .
لمْ تعكسوا آيةَ الخلاق ، بل رجعتُ
الى اليهود بكم قُربى وأطباع .

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٢) هذا البيت غير موجود في الديوان الذي يمهده احمد طوفان للطبع .

يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ولا تذكرت أن الحصم خداع .
 لقد جنيت على الأحفاد ، والهفي ، وهم عبيد وخذام وأتباع .
 وغرك الذهب اللئاع تجرزه ، إن السراب - كما تدر به - لئاع .
 فكتر بموتك في أرض نشأت بها وأترك لقبوك أرضاً طولها باع .

في عام ١٩٣٢ كانت مساحة الأراضي التي انتقلت إلى اليهود بطرق مختلفة قد أصبحت واسعة جداً أرعبت اهل فلسطين. فتنادي نفر منهم إلى وجوب إيجاد وسيلة لانقاذ الأرض من التسرب إلى اليهود، ورأوا ان افضل السبل إلى ذلك ان يؤسس صندوق عام تشتري من الأموال المجموعة فيه تلك الأراضي التي يحاول أهلها ان يبيعوها الى اليهود اضطراراً من فقر او حاجة او طمعاً بمال كثير يدفعه اليهود. وقد أنشئ يومذاك صندوق الامة. ثم اصدرت جريدة فلسطين عدداً ممتازاً لتلك المناسبة نشرت فيه رسوم القائمين على هذا الصندوق وهم الحاج امين الحسيني وموسى كاظم باشا الحسيني مع اعضاء اللجان في المدن الفلسطينية المختلفة، وكان عدد اعضاء هذه اللجان ثمانية وعشرين. ولم يؤمن ابراهيم بمشروع «صندوق الامة» لاسباب منها - كما يقول في رسالة له إلى ٢ - ان ثمانية من هؤلاء جميعهم كانوا سماسرة على الاراضي لليهود. ومنها ايضاً ان اللجان لم تستطع ان تجمع - على الرغم من الخطب والقصائد والانشيد الحماسية - إلا اقل من الف جنيه. يقول ابراهيم في هذه الرسالة:

و « (تيسست) فليت دعوة جريدة فلسطين للمعاوضة بقصيدة . واقسم بالله والرسول والملائكة اجمعين انني لو علمت ان النتيجة ستكون برهاناً على موت اهل فلسطين ما حركت قلبي . ولكن هكذا كان ، ونظمت القصيدة ^٣ وذيلتها بامضاء (ابو جعفر) .
 واليك هي :

حبذا لو يصوم منا زعيمٌ مثل «غندي» ، عسى يفيد صيامه .

(١) في الديوان الذي يمدده احمد طوفان للطبع « تملت » .

(٢) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٣) نظمت هذه القصيدة في ١٤ ايلول ١٩٣٢ (الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ١٣) .

لا يَصُمُّ عن طعامه ... في فلس
لِيَصُمُّ عن مبيعه الارضَ يحفظُ
بارك الله في حريصٍ على الأر
هم حماة الديار من كل سوء ٢
ثم جَوا منهجَ القويِّ وصفُوا
إنما حجةُ الضعيفِ احتجاجُ
كلِّ يومِ حزبٍ وحلمٍ، فحدثُ
مُعترَمٍ بالبلادِ صبِّ ولكنْ
بَطْلٌ إن علا المنابرَ كَرَّ

آزروا القائمين بالعمل الصا
آزروهم بالمال، فالأرضُ صندو
إشتروا الارضَ تشتريكم من الضيم

واشتدت نعمة ابراهيم على باعة الارض وعلى الزعماء الذين كانوا «دلالين». ثم زاد
قبوطه من صلاح حال العرب في فلسطين وازداد تشاؤمه من الايام المقبلة وقرب جلاء
العرب عن بلادهم فذكر ذلك في قصائد ومقطعات مختلفة نظمها كلها في عام ١٩٣٥ :

لا تلهني إن لم اجد من وميضٍ لرجاء ما بين هذا السوادِ .
— أجلاءً عن البلاد تريدون ° فنجلو أم محقنا والازالة ؟
— بني وطني ، هل يقظةٌ بعد رقدةٍ ، وهل من شعاعٍ بين تلك الغياهب ؟

(*) الملاحظات التالية (١-٤) لابراهيم نفسه:

- (١) وفي سوريا ولبنان .
- (٢) هنا التياسة (يقصد انه قال هذا عن حسن نية ، ولكن هذا غير صحيح) .
- (٣) عزة دروزة، واشياعه قاموا حديثاً بتشكيل حزب يسمى « حزب الاستقلال » .
- (٤) تشتريك يجب ان تكون تشتركم (يجزما بجذف حرف العلة لأنها في جواب الامر) ولكنها لم تقع له الا هكذا . ثم يعلق عليها فيقول ان تشتركم غير جميلة ، ولكن هذا عذر فقط .
- (٥) يخاطب الانكابر .

فوالله ما أدري - وللبأس هبة - أنادي «أميناً» أم أهيبُ «براغب»؟
 - يا قوم ، ليس عدوكم من يلين ويرحمُ .
 يا قوم ، ليس أمامكم إلا الرحيلُ فجزّموا !
 - يا حسرتا ، ماذا دهى اهلَ الحمى؟ فالعيش ذل والمصير بوار!

وكان ابراهيم يشكو في ذلك كله قلة المخلصين من الذين يتصدون للزعامات وللمناصب، وقد ردّد شكواه في سنوات كثار . من ذلك ما قاله عام ١٩٣٣ و ١٩٣٥ :

رحم الله مخلصاً لبلادِ ساوموه الدنيا بها فأباها .
 لو أتوهُ بالتبّر وزنَ ثراها لأباهُ وقال : أفدي ثراها !
 صكّتِ الألسنُ المسمعَ حتى لقيتُ من ضجيجكم ما كفاها .
 - وما حسرتي إلا على مُتَعَفِّفٍ يقوم لوجه الله بالنهضة الكبرى !

وفي العام ١٩٣٥ كان العرب قد تناسوا قضيتهم الكبرى في فلسطين واستحال كفاحهم النبيل ضد الانكليز واليهود نزاعاً فيما بينهم هم في سبيل الفوز برئاسة البلديات المختلفة وخصوصاً في القدس بين آل النشاشيبي وآل الخالدي ، وكان آل الخالدي في صفوف الحاج امين الحسيني . فقال ابراهيم يخاطب المتنازعين على رئاسة البلدية :

بَلَيْتُ قُضِيَتُكُمْ فِصَا رت هيكلاً يتهدّمُ .
 ضَمَرَتِ الى بِلْدِيَةِ فيها العدا تتحكّمُ .

وكان في فلسطين مواسم شعبية متعددة يقيمها الناس في اماكن مختلفة . أشهرها موسم النبي موسى في القدس وموسم النبي روبين في يافا . هذه المواسم تعود الى ايام الحروب الصليبية ابتكرها صلاح الدين الايوبي حتى يكون الشعب مجتمعاً مرة بعد مرة في اماكن معينة بعاطفة دينية وطنية تفضل شعلة الدين والوطنية متقدة في النفوس ، كما تكون الجموع نفسها إرهاباً للصليبيين . ولما انقضت الحروب الصليبية زال المعنى المقصود من تلك المواسم

(١) أهاب به : دعاه . امين : الحاج امين الحسيني . راغب : راغب النشاشيبي خصم الحاج امين .
 (٢) « كان الخصام بين الاحزاب العربية وقتئذ على اشده بسبب انتخاب البلديات في فلسطين » (تعليق ابراهيم طوقان) .

ولكنها بقيت اعياداً رمزية . فلما احتل الانكليز فلسطين وبدأ امر اليهود يستفحل عاد لهذه
المواسم شيء من معناها الاول . وكان الانكليز عادة يتخذون لمناسبة هذه المواسم احتياطات
مختلفة غايتها في الاكثر ان يدافعوا عن اليهود لو وقع عليهم اعتداء من جانب الجموع
المحتشدة . وفي عام ١٩٣٥ - عام النزاع الشديد على الانتخابات البلدية - اتخذت الحكومة
الانكليزية احتياطات اوسع .

وكان يصحب موسم النبي موسى موكب يسير على رأسه قائد الموسم يركب جواداً
ويحمل في يده سيفاً مما اصبح مع الايام مظهرأ فارغاً . في هذا العام قال ابراهيم سبعة
ايات يعرض فيها بذلك المظهر الفارغ ويشير الى عنعنات العرب بعد ان يخاطب الحكومة
الانكليزية ويلومها على كثرة احتياطاتها التي لم يبق لها ، بعد استفحال التنازع بين العرب ،
مبر كبير . قال ابراهيم :

علامَ احتراسك ؟ لا أعلم !	وفيمَ احتشادك ؟ لا أفهم !
وهل في فلسطين ما ترهبين	سوى أنه اجتمع الموسم ؟
جوادك براكبه عاثر ؛ ...	وأين له الفارس المعلم !
وسيفك بجامله ساخر ؛	وأين له الكف والمعصم !
وهذا بتهديده يدعي ،	وذاك بتنديده يزعم ...
معاذيل ! إلا من العنعنات	مشاغل عن كل ما يكرم .



مظاهرُ ليس بها ما يخيف ؛ ولكننا خاف من يظلم ...

وابراهيم لا يلوم الانكليز على افعالهم التي تؤول الى تأمين مصلحتهم ما داموا اقوياء ،
فالقوي لا ينحني إلا امام القوة . ولكنه يلوم العرب الذين يخدعون انفسهم حينما يظنون
ان الضعيف يستطيع ان ينال من القوى حقاً من طريق المسالمة و « السياسة » . قال في
عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ :

نبتوني عن القوي ، متى كان رحيماً ؟ هيات ، من عزّ ثاها .

لا يلين القويُّ حتى يلاقي مثلهُ عزَّةً وبطشاً وجاها .
 - يا مَنْ تَعَلَّلَ بالسياسة ظنَّها لَطْفُتْ ولانَ عَصَبُها الجَبَّارُ ،
 ما لطفها ؟ ما اللين ذاك ! وكلَّهم مُستعمرونَ وكله استعماراً .

اما الزعماء في فلسطين ، او المتصدون فيها للزعامة على الاصح ، فقد خصهم ابراهيم من شعره بكلمة قوارص . وكان شعره ، إذا ورى ، أشد من شعره الصريح فيهم . انا موقف ابراهيم من الزعامة والزعماء فصريح في مقطوعته التي مطلعها (١٩٣٥) :

إن قلبي لبلادي لا لحزب او زعيم .

وكذلك كنا رأينا اياتاً كثيراً في شعره السياسي الذي مر بنا تنال من الزعماء نيلاً شديداً ! على ان له قطعة بارعة يسوق انتقاده فيها للزعماء في تهكم مر . قال (١٩٣٥) :

ايها « المخلصون » للوطنية ، انتمُ الحاملونَ عبءَ القضية .
 انتمُ العاملون (من غير قول) ، باركَ اللهُ في الزنود القويه .
 و (بيان) منكم يُعادِلُ جيشاً بُعِداتِ زحفه الحربيه .
 و (اجتماع) منكم يَرُدُّ علينا غابرَ المجد من فتوح أميَّه .
 و خلاصُ البلاد صار على البا ب ؛ وجاءت أعياده الورديه .
 ما ججَدنا (أفضالكم) ؛ غير أننا لم تَرَ في نفوسنا أميَّه :
 في يدَيْنا بقيَّةٌ من بلادٍ ، فاسترحوا كيلا تطير البقيه !

هؤلاء « الزعماء المخلصون » هم في الحقيقة « السماسرة » : « يدعون الحرص على البلاد علناً » وعملهم « بيع البلاد » للمستعمر ولليهود سراً . ومع ذلك فانهم يُدعون زعماء وحماءً . قال ابراهيم فيهم (شباط ١٩٣٥) :

أما سماسرةُ البلاد فعُصْبَةٌ عارٌ على اهل البلاد بقاؤها .
 إبليسُ أعلن صاغراً إفلاسَه لما تحمَّقَ عندهُ إغراؤها .

(١) في مجموعة الشعر « البثرد » لابي سلمى عبدالكريم الكرمي بيت يشبه هذا البيت (ص ١٠٣) :

لا تذكروا حق الضعيف فكلمكم مستعمرون وكله استعمار

يَتَعَمَّونَ مُكْرَمِينَ كَأَنَّمَا
 لَهُمْ أَهْلٌ يُجَدِّدُهَا، وَإِنْ أَنْكَرْتَهُمْ
 وَحَمَاتُهَا، وَهَمَّ يَتَمُّ خَرَابُهَا،
 وَهَمُّ - وَأَنْفَكَ صَاغِرٌ - زَعَمَاؤُهَا؛
 وَلِأَنَّ يَدَيْهِمْ بِبِعْثِهَا وَشَرَاؤُهَا!

من اجل ذلك لا اظنك تعجب اذا قلت لك ان ابراهيم كان جازعاً من المصير الذي
 كان ينتظر عرب فلسطين، وان ما حدث عام ١٩٤٨ كان ابراهيم يراه بوضوح قبل خمسة
 عشر عاماً وقبل عشرين عاماً. قال (١٩٣٥):

أَمَامَكَ، أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ، يَوْمٌ
 وَآتَتْ - كَمَا عَهَدْتُكَ - لَاتِبَالِي
 مَصِيرُكَ بَاتَ يَلْمَسُهُ الْأَدَانِي،
 فَلَا رَحْبَ الْقُصُورِ غَدَاً بِيَاقٍ
 تَشِيبُ لَهْوَهُ سَوْدُ النُّوَاصِي.^١
 بِغَيْرِ مَظَاهِرِ الْعَبَثِ الرَّخِاصِ.
 وَسَارَ حَدِيثُهُ بَيْنَ الْأَقَاصِي:
 لَسَاكِنِهَا وَلَا ضَيْقُ الْحِصَاصِ.^٢

والغريب ان اهل لبنان كانوا يغبطون اهل فلسطين على الاثمان المرتفعة التي
 كان يدفعها اليهود في شراء الاراضي العربية وعلى الترف الذي غرق فيه الفلسطينيون بضع
 سنوات. وكان ابراهيم يدرك ان هذا المال الذي كان اليهود يدفعونه ثمن الاراضي العربية
 كانوا يستردونه من العرب ثمن لهو وفسق او ثمن اسباب ترف لا قيمة لها. قال ابراهيم
 (نابلس ١٩٣٥)^٣:

يَقُولُونَ فِي بَيْرُوتَ: أَنْتُمْ بِنِعْمَةٍ
 شَقِيقَتِنَا مَهْلًا، مَتَى كَانَ نِعْمَةً
 وَبِأَذْلُ هَذَا الْمَالِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ
 عَلَى أَنَّهَا أَوْطَانُنَا... مَا كُنُوزُهُمْ
 وَلَوْ كَانَ قَوْمِي أَهْلُ بَأْسٍ وَنَجْوَةٍ
 وَلَكِنَّهُمْ قَدْ آتَرُوا السَّهْلَ مَرَكِبًا
 تَبِيعُوهُمْ تُرْبًا فَيُعْطُونَكَ تَبْرًا.
 هَلَاكَ أَوْفَ النَّاسِ فِي وَاحِدٍ أَتْرَى؟
 يَسْتَلِمُ بِالْيَمِينِ إِلَى يَدِهِ الْيَسْرَى...
 وَأَمْوَالُهُمْ، حَتَّى تُسَاوِيَهَا قَدْرًا.
 إِذْنُ أَصْبَحَتْ لِلطَّامِعِينَ بِهَا قَبْرًا.
 تَسِيرُهُ الْأَهْوَاءُ، وَاجْتَنَبُوا الْوَعْرًا.

(١) الناصبة: الشعر في مقدمة الرأس. وهو اخر ما يشيب.

(٢) الحصاص بكسر الحاء جمع خص بضم الخاء: البيت من قصب او البيت المسقوف بنخشب.

(٣) جريدة صوت الاحرار، بيروت، يوم السبت ٢٠ نيسان ١٩٣٥.

وما حسرتني إلا على 'متعقف' يقوم 'لوجه الله!' بالنهضة الكبرى .

ان هذا المعنى الواضح المجمل كان قد جاء عند ابراهيم في قصيده تاممة تألف من ثلاث مقاطع نظمها في اوائل ايار ١٩٣٣ او اواخر نيسان على الاقل^١ . في هذه القصيدة يبسط الشاعر رأيه في الزعماء وفي الصحافة بسطاً وافياً .

إخواننا أهلَ الوفاء ، أهل المودّة والولاء ،
من كلِّ قُطرٍ بالعُرو به ذبي أُردهارٍ وازدهاء ؛
أجابتنا ، لا نُخدَعوا عنا بظاهرة الثواء .
ليست فلسطين الرخيّة غير مهدي للشقاء .
عُرِضتْ لكم خلف الزُّجا ج تيمسُ في حِلل البهاء !
هيئاتِ ذلك ، إن في بيع الثرى بيع الثراء^٢ .
فيه الرحيلُ عن الربو ع غداً الى وادي الفناء .
فاليومَ أمرحُ كاسياً ، وغداً سأنبذُ بالعراء .
وأضعتُ صادقةَ الرجا ء فأين كاذبةُ الرجاء ؟
من ذا ألومُ سوى بني وطني على هذا البلاء !

*

للحقّ سطرٌ في صحا فتننا ، وللتضليل نهرٌ^٣ .
قدبٌ صحائفها يطيلٌ م عليك بهتانٌ وهجرٌ^٤ .
للخاملين نَبَاهَةٌ فيها وللأغمار ذكرٌ^٥ .
هذا يقال له الزعي نمُ كما يقال لذلكُ حُرٌ .
وهناك سمسارُ البلا د فإنه الشهمُ الأغرُّ .
فالمُدحُ ، مثل القدح ، تضدّ سنّه لهم خضرٌ وحمرٌ^٦ .

(١) نابلس ١٤ ايار شهر الورد ١٩٣٣ . والقصيدة نشرت كاملة في مجلة المعرض (بيروت) عام ١٩٣٤ .

(٢) بيع الارض خسارة للثروة الحقيقية .

(٣) النهر هو العمود او الحقل الكامل في الجريدة يتألف عادة من نحو ثمانين سطرأ . الصحافة تكتب في الباطل اضعاف ما تكتب في الحق .

(٤) البهتان . الاقتراء على الابرياء . الهجر . الكلام القبيح .

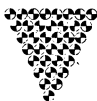
(٥) الغمر ، القليل التجارب . ذكر ، شهرة .

(٦) الحضرة والحجرة من الوان العملة الفلسطينية ، مال .

تلك الصحافة 'كيمياء' ، لها بخلق الله سرٌ .
 تدعُ الكرامة وهي هزٌ لـ والمروءة وهي سُخرٌ .
 أين الصحافيُّ الصريحُ تراه يعلنُ ما يُسرُّ !
 حُلْبٌ فلا قُربى تميءُ لـ به ولا مالٌ يفرُّ .

*

منذُ أحتلالِ الانكليزِ ٢ ونحنُ نبجثُ في السياسةِ * .
 شأنُ الضميرِ معَ السيا سة كالرفيقِ معَ النخاسةِ .
 مرتٌ علينا ستٌ عش رة كُنَّ مجلِبَّةَ التعاسةِ .
 فإلى متى ، يا ابنَ البلا دِ ، وأنتَ تؤخذُ بالحماسه ؟
 وإلى متى (زعماءُ) قو مك يخلبونك بالكياسه ٣ ؟
 ولكم أحنطنا خائناً منهمُ بهالات القداسه .
 ولكم أضعَ حقوقنا الر جل الموكَّلُ بالحراسه .
 والله ، ليس هناك إلا كُلهُ فتأصِ الرئاسه ،
 تأتيه من بيعِ البلا دِ وما إليه من الحُساسه ٤ .
 وإذا اتقاكَ فبالجرا ئد ؛ والنجاسةُ للنجاسه .



(١) تدع ، تجمل .

(٢) في رسالتي وفي الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ٢٠ : الانكليز . في ديوان ابراهيم : الغاصين .

(٣) خلبه : سلبه عقله ، غشه ، خدعه . الكياسة : التظاهر بالتمقل والسلوك الحسن .

(٤) تأتيه الرئاسة ... وما إليه : ما يشبه بيع البلاد كالحيانة والتجسس والرشوة ... الخ .

* الايات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ تأتي (في الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ٢٠) مقطوعاً

مستقلة مع تقديم ٣ على ٢ .

المجاهدون الاولون

وبينما كان عدد عظيم من المتزفين والوجهاء والمتزعمين في فلسطين لا يحلمون من احترام ابراهيم - ولا من احترامنا نحن - مكاناً ، كان ثمت نفر كثار من العامة يأتون ضروباً من البطولة لم يحدثنا عنها التاريخ إلا في باب الخرافات في الغرب او في باب انتشار الدعوة الاسلامية والفتوح العربية الاولى . من هذه الآثار النبيلة الجميلة خبر تلك العجوز التي جاءوا اليها يوماً بابنها مقتولاً بينما كان يحارب اليهود . فلما وصلوا به الى قرب بيتها ورأته كان اول ما سألت عن بندقيته . فقالوا لها : ان اهتمامنا بنقله شغلنا عن بندقيته . فقالت لهم : قد يكون قتل غير مجاهد ، او قد يكون قتل وهو هارب او قد يكون غفل عن سلاحه ، فانه لن يكون حينئذ ابني ولا ادخله بيتي . فوضعوا ابنها ارضاً ثم عادوا الى المكان الذي كان فيه القتال ورجعوا ببندقيته وبمن شهد امام الام بأن ابنها قتل مجاهداً ، ومقبلاً غير هارب . قالت : هو الآن ابني ، ثم ادخلته الى البيت وهي تزغد حوله هي واخواته وجيرانها . كذلك كان يفعل العامة والقرويون بينما كان معظم وجهاء المدن يتنازعون على المناصب البلدية ثم يدوسون في سبيل الوصول اليها كرامة بلادهم ومستقبل احفادهم وابنائهم أو مستقبلهم هم انفسهم .

ومن هذا الباب ، الذي يشبه ان يكون اسطورياً ، بطولة محمد جمجوم : في صيف عام ١٩٢٩ قام اليهود بفتن وبمحاولة للاعتداء على الحرم الشريف في القدس غير مكثفين بالصلاة الهادئة عند البراق^١ . هذا الاستفزاز اليهودي أدى الى حدوث

(١) الجدار الغربي من الحرم الشريف .

اضطرابات في القدس والخليل ويافا وصفد قتل في اثنتائها نحو مائة وخمسين يهودياً وجرح
بضع مائة - أكثر مما سقط من اليهودي في « نزهة الحرب » التي قامت بها الدول العربية
رسمياً عام ١٩٤٨ .

ورأى البريطانيون ان يحملوا الذنب كله على العرب - كعادتهم طوال مدة انتدابهم على
فلسطين - فقبضوا على عدد من الشبان العرب ثم حكموا على ثلاثة منهم بالاعدام هم عطا
الزير ومحمد جمجوم من الخليل وفؤاد حجازي من صفد. وقد رُتّب تنفيذ الاعدام بهؤلاء
في ثلاث ساعات متوالية من يوم ١٧ حزيران ١٩٣٠ على ان يكون اولهم فؤاد حجازي
وثانيهم عطا الزير وثالثهم محمد جمجوم . ولكن محمد جمجوم حطم قيده وزاحم رفيقه
على دوره حتى شقّق ثانياً .

ولقد اوحى بطولة محمد جمجوم الى ابراهيم طوقان مشهداً رائعاً سماه « الثلاثاء
الحمراء » ، لأن شقّق اولئك الابطال الثلاثة كان في يوم الثلاثاء .

من هذا المشهد مقطع في وصف يوم « الثلاثاء الحمراء » يقارنه الشاعر بايام المظالم
التي مرت في تاريخ الانسانية :

يومٌ أطلّ على العصورِ الخاليةِ	ودعا : « أنرّ على الورى أمثاليه ؟ »
فأجابه يومٌ : « أجل ، أنا راويه	لمحاكمِ التفتيشِ تلكِ الباغيه .
ولقد شهدتُ عجائباً	وغرائباً ،
لكنّ فيك مصائباً	ونوابئاً
لم ألتقَ أشباهاً لها في جورها .	فأسألُ سوايَ وكم بها من مُشكّرٍ ! »

● ●

وإذا بيومِ راسفٍ بقيودهِ
« أنظرُ الى بيضِ الرقيقِ وسودهِ
بشرٌ يُباعُ ويشتري
ومشى الزمانُ القهقرى
فأجاب ، والتاريخُ بعضُ شهوده :
من شاء كانوا مُلصكُهُ بنقوده .
فتحرروا
فيا أرى ...

(١) الكليّة ، نيسان ١٩٤٦ ، ص ١٤ .

فَسَمِعْتُ مِنْ مَنْعِ الرِّقِيقِ وَبَيْعِهِ * نادى على الأحرارِ : يا مَنْ يَشْتري!

اما الساعة التي شئنا فيها محمد مجموع فقد انطقها الشاعر بالمقطع التالي :

أنا ساعةُ الرجلِ العتيدِ ، أنا ساعةُ البأسِ الشديدِ .
أنا ساعةُ الموتِ المُشترِّ فِ كلِّ ذِي فِعْـلٍ مَجِيدِ .
بَطَلِي بِمِحْطَمِ قِيَدِهِ رَمَزاً لِعَظِيمِ القِيودِ .
زاحمتُ مَنْ قَبَّلِي لِأَسْمِ بِقَهْـمِـا إِلَى شرفِ الحُلُودِ .
وقَدَحْتُ فِي مَهْجِ الشِّبَا بِ شِـرارةِ العزمِ الوطيدِ .
هيئاتِ يُخَدَعُ بالوعو دِ وَأَنْ يُخَدَّرَ بالعهودِ .
قسماً بروحِ مُحَمَّدٍ : تلقى الرَّذى حُلُوَ الوُرُودِ .
قسماً بأَمِّكَ عِنْدَ مَوِّ تِكَ وهي تَمْتَفُّ بالنشيدِ .
ما نالَ مَنْ خَدَمَ البِـلا دَ أَجَلَـا من أَجْرِ الشَّهيدِ !

الفدائي :

نورمان بتويش يهودي الجنس بريطاني الجنسية كان قاضياً للقضاة في فلسطين والمسؤول عن التشريع في فلسطين . وقد أمعن في النكايه بالعرب وكان مسؤولاً عن عدد من القوانين الاستبدادية الجائرة التي اضرّت بالعرب . ولقد كان يهدف الى تحقيق الوطن القومي اليهودي من طريق اضعاف الكيان العربي . وقد حاول احد الشبان العرب ان يغتاله فتخفى له عند مدخل دار الحكومة ثم اطلق عليه النار فاصابه بجرح ولكن لم يقتله .

ولابراهيم في هذا الشاب الذي تعرض للمهالك في سبيل اغتيال بتويش قصيدة أشبه بالموشح اسمها « الفدائي » ، قال فيها الشاعر بشاره الخوري : « أتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى إلى حرياتها ، ثم اتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دماً وناراً ؟ تعرف اليها اذن :

* الانكايز يدعون انهم ابطلوا تجارة الرقيق .

(١) الورود مصدر ورد يرد : المجيء الى النهر لشراب الماء ، الوصول .

(٢) البرق ٩ حزيران ١٩٣٠ .

(٣) كذا في الاصل : ثم اتعرف ...

- ١ -

لا تَسَلْ عن سلامته ، روحه فوق راحتته !
بدلته هومته كقنأ من سادته .
يرقب الساعة التي بعدها هول ساعته ،
شاغل فكر من يرا ه بإطراق هامته .
بين جنبتيه خافق^١ يتلظى بغايته .
من رأى فحمة الدجى أضرمت من شرارته ؟
حمايته جههم^٢ طرفاً من رسالته .

*

هوَ بالباب واقف والردي منه خائف .
فاهدأي ، يا عواصف ، خجلاً من جراته !

- ٢ -

صامت لو تكلمها لفظ النار والدما .
قل لمن عاب صمته : خلق الحزم أبكها !
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق القها .
لا تلوموه ، قد رأى منهج الحق مظلها ؛
وبلاداً أحبها ركنها قد تهدما .
مرّ حين ، فكاد يقئ ثلثه اليأس ، إنما ...

*

هوَ بالباب واقف والردي منه خائف .
فاهدأي ، يا عواصف ، خجلاً من جراته .

ومن هذا النجر المتين الجميل الزاخر بالعاطفة والفياض بالاسى والانفة معاً قصيد
« الشهيد » التي نظمها لمناسبة الذكرى الرابعة (١٩٣٣) لشهداء « الثلاثاء الحمراء »
وهذه القصيدة أيضاً نوع من الموشح في مقطعين ، مطلعها :

(١) قلب .

عيسَ الخطبُ فابتسمُ ، وطغى الهولُ فاقتحمُ .

ومن اجمل آياتها خمسة آيات في مطلع المقطع الثاني هي :

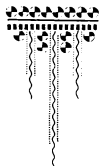
ربما غاله الردى وهو في السجن مُرْتَمِنُ .

لم يشيع بدمعة من حبيب ولا سكن^١ .

ربما أدرج التراب^٢ بـ سلباً من الكفن .

لست تدري^٣ : بطاحتها غيبته أم القفن .

لا تقل : أين جسمه وأسمه في غم الزمن !



(١) السكن : الزوجة .

(٢) أدرج في التراب : وضع فيه ، دفن .

(٣) تدري (انت) .

أناسيد

ان رقة ابراهيم طوقان وعاطفته الجياشة المتأججة قد اوجبتا له ، منذ عهده الاول بنظم الشعر ، قدراً كبيراً من الاجادة في نظم الاناشيد الوطنية والحماسية . واول محاولة بارعة له في هذا الباب كان « نشيد عبدالكريم » نظمه في شتاء عام ١٩٢٤ ، يوم كانت مراكش الاسبانية تغلي بثورة على المستعمرين يقودها الامير عبدالكريم الخطابي . ولم تستطع اسبانية وحدها ان تغلب على ثورة الريف (المنطقة الاسبانية وهي جبلية) فاعاتها فرنسة على ذلك بعد ان امتدت الثورة الى حواشي الامبراطورية الافرنسية في شمالي افريقية . ولهذا النشيد قصة يحسن سردها بين يديه :

في احد ايام الشتاء من عام ١٩٢٤ اجتمع ابراهيم طوقان وعبدالرحيم قليلات ومحمد فليفل في مقهى الكارتيون او قهوة المرصد (ويسى اليوم مقهى مسرح فاروق) ويقع هذا المقهى في غربي ساحة البرج من مدينة بيروت . كانت البلاد العربية تعصف يومذاك باخبار انتصارات العرب في شمالي افريقية على الجيوش الاسبانية والجيوش الفرنسية . وخطر لابراهيم في هذا الاجتماع الذي اشرنا اليه ان يضع نشيداً لهذه الثورة او يدون صدى هذه الحرب في نفوس العرب المتوثبة الى التحرر من النير الاجنبي في كل مكان ، فكان هذا النشيد الذي وضعه ابراهيم في تلك الجلسة التاريخية :

في ثنايا العجاجُ وأتحام السيوفُ
بينما الجوُّ داجُ والمنايا تطوفُ

يتهادى نسيمٌ نحو عبد الكريمِ
حاملاً أزكى تحايا المشرقِ

كلثنا يُعجَبُ بفنى المغربِ
كلثنا يطربُ لانتصار الأبي
ها قرومُ العدى أصبحوا أعبدا
سحقتهمُ ساحقاتُ الفيلقِ

طالما أَسْتَعْبَدُوا وَأَذَلُوا الرَّقَابُ
أَيُّهَا الأَيْدُ جَاءَ وَقْتُ الحِسَابِ
فليذوقوا الزُّعَافُ وَلِنُعَلِّمِ المُتَافِ
لفنى الحربِ وربِّ البيرقِ

واستطاع الشاب محمد فليفل (الاستاذ محمد فليفل اليوم) ان يضع لنا قويا يليق
بهذا النشيد العاصف في تلك الجلسة التاريخية نفسها. ولم يكن هذا النشيد باكورة اناشيد
ابراهيم طوقان ، بل كان باكورة شعره الجيد كله .

علي ان قصة هذا النشيد لم تنته .
في ذلك الحين ارادت الحكومة اللبنانية ان يكون لدولة لبنان الكبير نشيد رسمي
فاعلنت عن مسابقة لوضع هذا النشيد. فتبارى في هذا المضمار بضعة نفر منهم رشيد نخلة
وبشارة الخوري وشبلي ملاط وحليم دموس . وكان « نشيد المغرب » يومذاك ملء الافواه
والاسماع فجرى المتبارون كلهم مجرى واحداً في بحر هذا النشيد فكانت المطالع كما يلي :

قال رشيد نخلة : كلنا للوطن .
وقال بشارة الخوري : يا تراب الوطن .
وقال شبلي ملاط : هلي يا بلاد .
وقال حليم دموس :

ولقد فاز النشيد الذي نظمه رشيد نخلة (عام ١٩٢٦) ، فاصبح منذ ذلك الحين النشيد الوطني اللبناني^١ .

اما لحن النشيد الوطني اللبناني فقد وضعه وديع صبرا (ت ١٩٥١) مدير الكونسرفاتوار (معهد الموسيقى) يومذاك ، ولكن طبعه على لحن « نشيد عبد الكريم » .

ولابراهيم طوقان نشيد آخر للمغرب نظمه عام ١٩٣٠ . واغلب الظن انه نظمه استجابة لطلب نفر من شبان مراكش الاسبانية كانوا يومذاك يتلقون العلم في مدرسة النجاح بنابلس (كلية النجاح الوطنية) . ومطلع هذا النشيد :

فتية المغرب هيا للجهاد
نحن أولى الناس بالاندلس
نحن أبطال فتاها ابن زياد^٢
ولها ترخص غالي الأنفس .

على ان اشهر اناشيد ابراهيم طوقان نشيد « موطني »^٣ الذي لا يزال الى اليوم ينشد في معظم الاقطار العربية .

موطني الجلال والجمال
والسناء والبهاء في رباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء
في هواك

هل أراك

سالماً منعماً وغانماً مكرماً

هل أراك في علاك

تبلىخ السباك

موطني



(١) صدر من مجلة « المكشوف » (بيروت) عدد خاص عن رشيد نخلة (ت ١٩٣٩) ليس فيه شيء من هذه الملاحظات (العدد ٢٤١ من السنة السادسة - بيروت ١٨ آذار ١٩٤٠) .

(٢) طارق بن زياد فاتح الاندلس في ايام الوليد بن عبد الملك .

(٣) في الدفتر ١٩٢٤ ، ص ٢١ : نشيد موطني ، على لحن فلنسيا (Valencia) بتصرف .

موطني الشبابُ لن يَكِلَ هُمُهُ أنْ تَسْتَقِلَّ أو يَبِيدَ
نَسْتَقِي من الرَّدَى ولنْ نَكُونُ للعِدَى كالعبيدِ
لا تُريدُ

ذُلِّنا المؤبِّدا وَعَيْشُنَا المنكِّدا

لا تُريدُ بلْ نَعِيدُ

مُجْدَنَا التليدُ

موطني



موطني الحُسَامُ واليراعُ لا الكلامُ والنزاعُ رمزُنَا
مُجْدُنَا وَعَهْدُنَا وواجبُنا الى الوفا يهزُنَا
عزُنَا

غَايَةُ تَشَرُّفٍ ورايةٌ ترفرفُ

يا هُنَاكَ في عَمَّاكَ

قَاهِرًا عِدَاكَ

موطني

وهذا النشيد أيضاً من تلحين الاخوين محمد واحمد فليفل .

وبعد سبع سنوات حاول الاخطل الصغير (بشارة الخوري) ان يضع نشيداً جديداً للبنان فعاد الى ابراهيم طوقان يغرف من بحره ويأخذ البحر والمعنى والالفاظ والقوافي والتوشيح . وظفر الاستاذ عبد المشنوق ، وكان يكتب زاوية « نكرزات » في جريدة بيروت بأعضاء « عصي » ، فكتب القطعة اللادعة التالية بعنوان توارد خواطر عجيب ! قال :

« ولعل اجمل ما عثر عليه من توارد في خواطر الادباء هذا الشبه العجيب بين نشيد لبنان الجديد الذي نظمه شاعر العرب الاكبر الاستاذ بشارة الخوري وهنأه عليه وزير التربية وبين نشيد « موطني » لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان .

(١) جريدة بيروت (بيروت) العدد ١١٨ ، ١٤ ، ١٥ و شباط ١٩٣٧ .

قال الاخطل الصغير :

لبنات ، لبنات الخ . . .
الجمال رصعا بازاهير رباك
والجمال توجا بمصايح هداك
واليراع والحسام في الملمات الجسام
كل آن كل آن

« اما مقطع « كل آن كل آن » فقيه توارد خواطر غريب بين الاخطل وبين الاستاذ
عمر فروخ الذي يقول في قصيدة « سفينة الحيوانات »^١ على لسان الدجاجة :

نعطي البيضَ للانسان كلَّ آنْ كلَّ آنْ

* * *

« أنا أربأ بشاعر العرب الاكبر ان يلتجئ الى امثال هذه السرقات ! واعتقد ان
القضية توارد خواطر بسيط . »
انتهى كلام عبدالله المشنوق .



ان هذا كلاً يدل على التأثير البالغ الذي تركته اناشيد ابراهيم طوقان في نفوس
الشبان وفي نفوس الادباء على السواء. ان بشارة الخوزي كان صديقاً لابراهيم طوقان معجباً
به ، وقد نشر له بضع قصائد وطنية وغزلة في جريدة « البرق » وقرظها احسن تقریظ . لقد
قدم بشارة الخوزي قصيدة « الفدائي » بقوله^٢ : « اتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي
تجيش بها النفوس الظمأى الى حرياتها ، ثم اتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة
دماً وناراً ؟؟ تعرف اليها اذن ... »

(١) راجع « سفينة الحيوانات » مشهد تمثيلي غنائي للاطفال نظم عمر فروخ (بيروت ، مطبعة
الكشاف ١٩٣٢) .

(٢) البرق (بيروت) ٩ حزيران ١٩٣٠ راجع ايضاً ص ١١٩ .

ومن اناشيد ابراهيم طوقان نشيد « وطني » :

وطني ، انت لي والحصم راغم . وطني ، انت كل المني .
ونظم ابراهيم هذا النشيد ليغني على لحن نشيد انكليزي من اناشيد الجامعة الاميركية^١ .
وهناك نشيد رقيق نظمه ابراهيم في وداع صديقه سعيد تقي الدين لما سافر سعيد
تقي الدين الى الفيليبين في كانون الثاني من عام ١٩٢٦ . ولقد غنى هذا النشيد احمد افندي
التنير (ت ١٩٥٢) ، وسجله على اسطوانة كانت تدار في مناسبات مختلفة لان هذا النشيد
قطعة وجدانية عامة :

لا تقل لله لبنانُ الأثمّ
لا تقل أشتاقُ ألحان الحِضْمّ
عش كما أهواك مكفوراً أصمّ
يا فؤادي، وأسلُ أيامَ الهوى .
هل رأيت الروض أيام الحُرَيْفِ
ذابل الأزهار مسلوب الحُفَيْفِ
متواري الحسن في الغيم الكثيف
يا فؤادي ، أين أيام الهوى !
هل رأيت الطير في الروض يدورُ
هائماً يبحث عن عهد السرور
رغمًا ينساق والريح تنور
يا فؤادي ، أين أيام الهوى !
لا تسلني ، يا فؤادي ، عن هيناء .
لك في الروض وفي الطير عزاء
إنما العمر نعيم وشقاء
يا فؤادي ، وهنا ضلَّ الهوى !

(1) 'Twas Friday morn' when we set sail.

راجع نابلس ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .

الموضوعيات

جميع قصائد ابراهيم طوقان « موضوعات » حتى ما كان منها في الغزل او في السياسة والوطنية . إنما افردتُ الغزل في فصل ثم السياسة والوطنية في فصل لكثرة هذا النوع من القصائد وجودتها وشهرتها .

ولابراهيم سوى هذه من القصائد عشر قصائد في الرثاء ، ثم قصيدة تشبه ان تكون مديحاً ، هي التي ألقاها في استقبال شوقي يوم جاء شوقي الى فلسطين عام ١٩٢٨ . ثم هنالك قصيدة في آل عبد الهادي تعد في باب المديح الخالص . على أن له قصائد هي موضوعات مقصورةٌ أياتها على معانيها ، فيها وصف وتحليل أربعا ملائكة الرحمة والحبشي الذبيح والشاعر المعلم .

كان ابراهيم يكره القول في المديح والرثاء ويحمل على معانيهما (من المعاصرين لنا) حملات شداداً^١ .

— ١ —

على ان ابراهيم اضطر إلى ان يقول رثاءً كثيراً ومديحاً أيضاً. قال في الرثاء في اشخاص أعجبَ بأدبهم او عظمتهم او وطنيتهم. ثم قال ايضاً في اشخاص لصلة سياسية لاهله بهم واعتذر عن قوله تصريحاً أو تلميحاً . وشعر ابراهيم في الرثاء موضوعات تنطوي على نظرات وطنية وتأملات في الحياة . وهكذا إذا كنا لا نَعْجَبُ بطباع نفر من الذين رثاهم فأننا نَعْجَبُ

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

بالشعر الذي رثاهم به . وكان ابراهيم ينحوي في ذلك نحو شوقي فيتخذ الرثاء وسيلة الى الاستطراد الى موضوعات سياسية او وطنية او اجتماعية .

ولابراهيم في آل هاشم عدد من المراثي الجياد ، في الحسين وفيصل خاصة . ولكن يجب علينا - انصافاً لعبقريه ابراهيم - ان نقول ان ابراهيم كان يكرم في اشعاره الغاية الكبرى التي يتمثلها العرب في آل الحسين او ان اعجابه بهم كان اعجاباً باعمالهم التي كانت في سبيل العرب . اما حينما كان الواقع يصطدم بالخيال العربي فكان ابراهيم يميل عن آل الحسين الى اعتبار الواقع المرير الذي نحن فيه . كتب الي يقول ^١ :

« لا ادري ، يا عمر ، شاعرتي قاحلة ولا تستطيع ان انظم شيئاً ذا بال في هذه الايام . بل قل منذ ستة اشهر لم انظم ما يستحق النشر . حاولت ان ارثي الملك حسيناً ^٢ فبدأت هكذا :

كان الوفاء فضيلة في الناس حتى تعهد به ضمير سياسي ^٣ .

فعدا مريباً لا يصدق عهدَه أحدٌ على شفّةٍ ولا قرطاس .

والبيتان طيبان جداً كما ترى . ولكن لما تقدمت في التفكير لم اجد مناصاً من مس « الاسر الحاكمة في الشرق . وهكذا اضرب ابراهيم عن القول مرة واحدة .

اما اذا اردت ان تعرف موقف ابراهيم بين المبادئ والاشخاص فاقرأ هذا المقطع من احدى رسائله ^٤ وسأترك بعض تعابيره على ما هي ، لأن ذلك ادل على روح ابراهيم :

« حضر الملك فيصل الى القدس . واحتفلت بمقدمه البلاد . شاطرين يا اخي ... النكته ان المندوب السامي دعاه مع امين الحسيني وكاظم باشا على حفلة عشاء . ورفع المندوب كأسه (فيها خمر او كازوز او ماء - مش مهم - ولكن رفع الكاس) وقال نشرب نخب

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

(٢) توفي الملك حسين بن علي في قبرص ١٩٢٨ . والواضح ان ابراهيم كان يريد ان يقول شيئاً في ذكره ان ينطرق الى موضوع سياسي وطني جرياً على عادته .

(٣) يشير ابراهيم بلا ريب الى السياسة الانكليزية .

(٤) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

الملك . فرفع الحاج امين كأسه وكذلك المسلم الجليل موسى كاظم رفع كأسه وشربوا
النخب . ونسأل اي ملك عنى المندوب . . . ونسأل عن موضع النخب في دعوة ملك
مسلم عربي » .

وابراهيم يقول صراحة ^١ ان اقواله في بني هاشم شعرية اكثر منها تاريخية . ثم هي -
كما سبق لي ان قلت - تمثل المبدأ الذي حمله آل الحسين . لما توفي الملك علي نظم ابراهيم
سبع ابيات « تعزية مرفوعة الى مقام البيت الهاشمي » ^٢ ،

بني هاشم ، بين المنايا وبينكم ترات^٣ ، وما تغفو المنايا عن الوتر^٣ .
وفي احدى رسائله ابدى ابراهيم إعجاباه البالغ بالملك عبدالله وبما يتحلى به من ذوق
ادبي ، قال ^٤ :

« منذ ايام حملت كتاب الزهرة ° تحت ابطي وطلعتنا ، انا واخي احمد وابراهيم
باشا هاشم (رئيس الوزارة) الى مقر سمو الامير عبدالله . فقابلنا بالترحاب و « لم ينس
الشاعر الذي حركه الى البكاء بقصيدة فيصل . . . ^٦ » فقدمت اليه الكتاب وحدثته عنه
ببعض الحديث وحدثته عن الكعكبان ^٧ . فأخذ يقلب صفحاته ويقف هنا وهناك يعجب
بالشعر الجاهلي وحسنه ويرجع ويقول : يا جماعة ، واين قول العباسيين من قول الجاهلية ،
انظر ، انظر « ولكن ام اوفى لا تبالي » ^٨ . يقرأ ذلك بلهجة حجازية ساحرة ويقارن بين

(١) نابلس ٩ تشرين الثاني ١٩٣٣ .

(٢) نابلس ١٩ الشهر الممّون ١٩٣٥ - يقصد بالشهر الممّون شباط ، يدل على ذلك شيان في الرسالة
احدهما كلامه على الامطار الغزيرة في نابلس او طوفان الامطار في نابلس ؛ وثانيها انه يسألني عن بدء موعده
عطلة الربيع ويتكلم عن عيد الاضحى الذي سيقع بعد مدة . فاذا كان عيد الاضحى سنة ١٣٥٤ قد وضع في
نحو ١٥ آذار ١٩٣٥ فلا ريب في ان هذه الرسالة كتبت في شباط .

(٣) ترات جمع ترة : ظلم ، تار .

(٤) عمان ٤ شباط ١٩٣٦ .

(٥) كتاب الزهرة مجموع شعره اخرجته المستشرق الدكتور نيكل وابراهيم طوقان (بيروت ١٩٣٢) .

(٦) رثاء فيصل ، راجع هذه القصيدة في هذا الفصل .

(٧) الكعكبان لقب اطلقه ابراهيم على الدكتور نيكل لأن الدكتور نيكل لفظ ذات يوم كلمة فقال ، كعكبان .

(٨) الشطر زهير بن ابي سلمى : لقد بليت مظمن ام اوفى ولكن ام اوفى لا تبالي .

مظمن ، ذهاب . ام اوفى ، امرأة زهير . وكان زهير قد طلق ام اوفى ففارقته ثم ندم هو على فراقها .

هذا الشعر وبين آخر من معناه ويطنب بالثناء على زهير . . . ١ ثم دعانا الى العشاء وتقدمنا الى المائدة فجلسنا فكان حديث المائدة اشهى من الطعام . . . وعدنا فأعدنا السهرة ومعنا فؤاد باشا الخطيب ٢ . الامير محدث خلاّب الحديث ، واضح التفكير ، قوي الحجّة .

هذه المقدمة تضعنا في الجو الذي يساعدنا على فهم قصائد ابراهيم في آل هاشم : « ادب جم وذوق ادبي ومثل اعلى متصل الحلقات توارثوا حمله أباً عن أب » ، مع غمزات يسيرة تدور حول الثقة بالانكليز فوق ما تقتضي السياسة او تبرر المصلحة او تقضي الحكمة . وهذا شيء يبالغ فيه ابراهيم فيجعله عاماً في العرب كلهم حين يقول ٣ : « العرب طول عمرهم . . . قصيرو النظر . منذ خروج امرىء القيس للاستعانة بالروم على بني اسد » ٤ .

وسأخذ ، في ما يلي ، مقطوعة في رثاء الحسين بن علي ، ملك الحجاز ، ثم القصيدة التي رثى فيها ابراهيم فيصلاً الاول (ابن الحسين بن علي) ، فأقرأهما وانت تتذكر جميع ما مر بك من الملاحظات . قال يلتمس عذراً للملك حسين ويأسى لمصيره :

رحمة الله عليه ، إنه غاله اليأس وكان الأمل .
ويح قوم . خذلوه بعدما أخذوا الميثاق ألا يخذلوا
شيمة العدر بمن ينصرهم ذهب ، بأبن علي ، مثلاً .

(١) النقاط الموجودة في هذه النسخ موجودة في الاصل .

(٢) فؤاد الخطيب شاعر ادب عالم سياسي محدث حسن الحديث . وينحو في شعره منحى القدماء وله ديباجة جميلة واسلوب متين .

(٣) القدس ، ؟ اب ١٩٣٢ .

(٤) لما ثار بنو اسد على أسرة امرىء القيس الكندي وقتل حجر ، والد امرىء القيس ، في المعركة اراد ان يثار امرؤ القيس لايه فذهب الى القسطنطينية يستجد بملك الروم على قومه العرب . وقد شعر امرؤ القيس نفسه بفداحة هذه الحيانة فقال يبرر نفسه تبريراً جاهلاً .

ولو شاء كان الغزو من ارض حير ولكنه عمداً لى الروم أنفرا .

(٥) قوم ، يقصد الانكليز . اخذوا الميثاق ألا يخذلوا ، إشارة الى مفاوضات الملك حسين مع السير همفري مكاهون في اثناء الحرب العالمية الاولى للثورة على العثمانيين مقابل استقلال العرب تحت زعامة البيت الهاشمي .

آل بيت المصطفى، لم تبرحوا تردون الموت في ظل العلي^٦.

كادت الكأس التي في قبرس تشبه الكأس التي في كربلاء^٧.

اما أعظم قصائده في الرثاء فقصيدته في الملك فيصل :

كان الامير فيصل بن الحسين معقداً آمال العرب، دافع عن حقهم في الاستقلال منذ مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٨ - ١٩١٩، وكان يطالب باستقلال جميع البلاد التي سلخت عن الامبراطورية العثمانية ولو اقتضى ان تكون تلك البلاد تحت الانتداب، على ان يرسل المجلس الأعلى لعصبة الامم لجنة للاستفتاء يعلن العرب امامها رغباتهم. ولقد كان من نتائج ذلك ان جاءت لجنة كنج - كراين على ما هو مشهور. وكان فيصل كثير الاعتماد على الرئيس ويلسن، رئيس الولايات المتحدة. غير ان انكلترا وفرنسا خلبتا ويلسن وفضلاً معاً: خلبت الأول لأنه كان رجلاً مثالياً نظرياً، وخبلت الثاني لأنه كان لا يزال قليل الاختبار السياسي، إذ لم يكن قد عانى بعد السياسة العالمية، فكان موقفه من اجل ذلك الى جانب لويد جورج وكليمنصو شائلاً جداً. إن كل ما كان يعتمد عليه الامير فيصل كان وعداً شفوياً من اشخاص غير مسؤولين رسمياً، لأن وعودهم هذه كانت مخالفة للمحادثات التي كانت جارية في مجلس عصبة الامم نفسه.

ورأى بعض أنصار فيصل الخداع يتجلى في عصبة الامم فاجتمعوا في دمشق في الحادي عشر من آذار ١٩٢٠ وأعلنوا سورية ملكية ونادوا بالأمير فيصل ملكاً عليها. ولكن في الخامس والعشرين من نيسان، بعد شهر ونصف، وقع الحلفاء فيما بينهم معاهدة سان ريمو وأعطوا الجزء الشمالي من سورية الى فرنسة. وهكذا أصبح على الملك فيصل ان يثبت اركان عرشه بمقاومة فرنسة. وبعد اربعة اشهر من المقاومة في انحاء سورية اعلن الجنرال غورو - المفوض السامي لفرنسة في الشرق وقائد جيوشها فيه - في ٢٥ تموز ١٩٢٠: « ان حكم الملك فيصل قد انتهى وانه قد طلب منه ان يغادر البلاد مع أسرته ». فعاد الملك

(١) اشارة الى ان الامويين والعباسيين كانوا يقتلون المطالبين بالخلافة من آل علي بن ابي طالب.

(٢) قبرس هو الاسم الفصيح لجزيرة قبرص. يشبه الشاعر موت الحسين بن علي (ملك الحجاز) منفياً في

قبرص بقتل الحسين بن علي (بن ابي طالب) في معركة كربلاء.

فيصل الى سويسرة^١ ليلسط شكواه الى اعدائه المتظاهرين بصداقته . وعرضت انكلترة على الملك فيصل عرش العراق فتسنى العرش في آب ١٩٢١ والعراق يومذاك تحت الانتداب البريطاني . وأخذت بريطانيا تضيق ذرعاً بفيصل وبغزيمته التي ارادت ان تجعل من العراق دولة قوية فجعلت تثير له المشاكل وتبعث الثورة في العراق اثر الثورة . وكان فيصل في عام ١٩٢٣ في سويسرة يستشفى فتوفي هناك ليلة الثامن من شهر ايلول . وحيء بالجثمان الكريم من اوروبة ماراً بمرفاً حيفا في فلسطين إلى العراق . وكان وصول الجثمان الى بغداد في الخامس عشر من ايلول ٢ .

في هذا العاصف العاطفي الذي هب على العرب بعد موت الملك فيصل في اوروبة - ذلك الموت الذي حرم العرب مناضلاً في سبيلهم وأراح بريطانيا من ملك في امبراطوريتها احب ان يرقى بامته رقياً صحيحاً - قال ابراهيم هذه الدررة الثمينة من الشعر الوطني النابض بالحياة والقوة والعاطفة :

وقد ألقى ابراهيم هذه القصيدة في الحفلة التي اقيمت لتأبين الملك فيصل في عمان وحضرها الملك عبدالله . فلما انتهى ابراهيم من الالقاء قام اليه الملك عبدالله فقبله :

شَبَّعِي اللَّيْلَ وَقَوْمِي أَسْتَقْبِلِي	طلعة الشمس وراء الكرم ^٣
وَأخْشَعِي، يَوْشِكُ أَنْ يَغْشَى الْحَمَى،	يا فلسطينُ، سنىً من فيصل ^٤ .
يَا لَهَا مِنْ دَيْمَةٍ يَرْفَعُهَا	منكبُ الأفقِ لعينِ المجتلي ^٥ .
نَشَأَتْ أَمْنًا وَظِلًّا وَهُدًى	كهدي النجم لفلنك ^٦ مقبل .
مَا دَنَا حَتَّى هَمَى الدَّمْعُ ، فَهَلْ	«إلياء، الغيث فوق الجبل ^٦ ؟

*

(1) Ca qui se passa réellement à Paris en 1918-19, Paris 1923.

(٢) تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ٣٩ ، ١٢٤ .
 (٣) الكرم جبل صغير مطل على حيفا ، يمتد منه رأس داخل في البحر .
 (٤) السنى : ضوء البرق .
 (٥) ديمة : سحابة مطرة . منكب الارض : ما ارتفع منها . المجتلي : المتطلع .
 (٦) ابياء = ؟

ذلك الفلك الذي يحمله ،
لو تعدى جنة البحر به
وأطوى العاصف والموج له
وإذا بالفلك يجري بينها
يكرمُ الرائد بذري أنه
راقد ينعم في ضجته
أيقظ الروع فيها والأسى ،
يطبق الأجفان عن جفن طغى
مطمئن القلب ما ترعجه .

*

مالذي أعددت من طيب القرى ،
لا أرى ارضاً تلاقيه بها ؛
فأستشري وجهك لا يلمح على
يا فلسطين ، اضيف معجّل .
قد أضع الأرض ببيع السقل .
صفحتيه الحزبي فوق الحجل .

*

أكرمي ضيقك إن أحببتيه
لا تقومي حوله معولة ؛
وأسأل الباغين - ماذا هالهم
راعهم حياً وميتاً فاتسقوا
بأمانيه الكبار الحقل .
من جلال الملك ألا تعولي !
منه في أكفانه - إن تسألني .
همه جبارة لم نخذل .

- (١) الفلك المركب . - الفلك لم يحمل اهدأ قبل فصل مثل فصل .
(٢) اللجة : معظم الماء . مسبل : منهر . - لو خرج المركب من ماء البحر الى البر لاستطاع ان يجري في بحر من الدموع .
(٣) غضون : ثنايا ، توج .
(٤) فيصل مطبق اجفانه غافل (لأنه ميت) عن عيون كثيرة نكي بدمع مدرار (من عظم الحزن) وعن عيون كثيرة لا دمع فيها لأنها مجفلة (مذعورة) لعظم المصيبة .
(٥) الفضا : نوع من الشجر شديد الاشتمال شديد الحرارة .
(٦) القرى : الضيافة ، المعجل : العجلان ، المار بالمكان مروراً .
(٧) الحفل : الملوثة . - اشارة الى الإعجاب بفيصل لما كان يتله من امانى العرب .
(٨) الباغون : الطاغون ؛ بقصد الانكياز .

ورأوا في كلِّ قلبٍ حولهُ جذوةَ العزمِ ونورَ الأملِ .
بطَّالٌ قد عاد من ميِّدانهِ ظافراً ، يا مرحباً بالبطلِ .

*

فارسُ (الشقراء) يجلو بأسميها غمرةٌ ليلتها ما تنجلي ١ ؛
صاحبُ التاجين في موكبِهِ رايةُ المجدِ المنيعِ الأطول ٣ .
من رأى (تسرُّ الملوك) المرتجى طار من عقبانهِ في جحفل ٤ ؟
وسواءُ في الأعاصيرِ مَضَوْا أم مضوا في نفحاتِ الشَّمالِ ٥ .
كجنودِ الله طارت خيلُهُم يوم (بدر) في سماءِ القَسَطِلِ ٦ .

*

من رأى ناراً على عاصفةٍ ؛ هكذا أنقَضَ غضوباً من عل ٧ .
هبطَ المعقلِ يخشى حدتاً ، ويمينُ اللهِ حرزُ المعقلِ ٨ .

(١) الشقراء اسم فرس ، وهو هنا رمز . لما اراد الحسين إعلان الثورة لم يكن يفصل في الحجاز. فارسل إليه الحسين برقية رمزية يستدعيه بها فقال له: « ارسلوا الفرس الشقراء » اشارة الى وجوب رجوعه الى الحجاز. غمرة ليلتها ما تنجلي : مصائب يصعب ردها .

(٢) التاجان : تاج سورية وتاج العراق .

(٣) حول فيصل (النمر) جيش من مجاهدي العرب (العقبان) .

(٤) الشمال : الريح الشمالية الباردة اللينة . - هؤلاء المجاهدون يتبعون فيصل في الشدائد وفي الرخاء .

(٥) بدر غزوة شهيرة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٢ هـ . جنود الله هنا الملائكة . هذا هذا البيت يشير الى الآيات الكريمة في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله بيدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول (يا محمد) للمؤمنين : ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين؟ الخ .

(٦) هذا المقطع كله يشير الى ثورة التياريين في العراق : كان الملك فيصل قد غادر بغداد في ١٥ حزيران ١٩٣٣ قاصداً الى لندن تلبية للدعوة التي وجهها اليه ملك الانكيز جورج الخامس ، وترك ابنه «غازي» مكانه . ولكن ما كاد فيصل يترك العراق حتى أثار الانكيز التياريين (الاشوريين) ، نصارى العراق ، لبحر جوا موقف فيصل في مفاوضاته . قاتر التياريون في الموصل بزعامه رئيسهم الديني مار شمون . عندئذ اخذ غازي التهمة على عاتقه كاملة وقضى على ثورة التياريين بمجرم وشدة ، فأغضب ذلك الانكيز . عندها عاد فيصل الى العراق ليهدي الحال ولام ابنه « غازي » على تظاهرة هذه الشدة . و ابراهيم طوقان يلتمس لغازي عذراً عند ابيه . ثم عاد فيصل مرة ثانية الى اوروبه (راجع تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ١٢٤) .

(٧) رجع فيصل مسرعاً الى العراق (كالنسر الذي يقع غضاباً من كبد السماء على فريسته) .

(٨) المعقل : الحصن ، حصن المروبة (العراق) . ويمينُ الله حزرُ ذلك المعقل : الله يدفع الاذى عن العراق .

- أُشِرَتْ (آشور) حتى جاءها
كلُّ لُؤْمٍ وَعُقُوقٍ دُونَهُ
ثورةُ الغاضِبِ للحقِّ تُرى
ذلك السيفُ الذي جرَّده
بالعَيْنِ سَهَرَتْ عن فيصلٍ
رأتِ العِدرَ فأذاها ، فهل
خُدَّتِي في أُنْبِكَ غازي لم يكن
لم يُطقِ شبلك ضيماً ، سيدي ،
قد يكونُ الحزمُ في العزمِ ، وقد
غضبةٌ من رجلٍ في أمةٍ
من هفا للهتل الأعلى يجيدُ
أَيْسَكُم ، يا آل بيتِ المصطفى ،
- أمرُها بين الطُّبى والأسلِ ١ .
فعلُ شمعونَ لثيمِ الموصِلِ ٢ .
هذه أمُّ شعبٍ منُ وكَّلِ ٣ !
فضَحَّتْهُ عَيْنُ ذاك الصَّيقلِ ٤ .
تحرسُ المملكَ له ما تأتي ٥ .
تحمِلُ الضمِّ ، ولما تفعلُ ٦ .
بغريبٍ عن قريبِ المنهلِ ٧ .
فاستمع للعُذرِ قبل العَدالِ ٨ .
يُكتبُ التوفيقُ للمستعجِلِ ؟
صيرته أمةٌ في رجلٍ !
في بني هاشمٍ أعلى مثل ٩ .
ما قاضى مُستشهداً منذ علي ١٠ !

- (١) أُشِرَتْ : بطرت ، تمردت . جاءها امرها : جاءها الموت ، الهزيمة (اخضاع ثورتها) . اشور :
كتابة هنا عن التباريين نصارى العراق اتباع مارثعون .
- (٢) شمعون ، الرئيس الديني للاشوريين (التباريين) . ولما هزم شمعون واتباعه استقبلهم الافرلسيون في
سوريا ، ولبنان ولا يزال بقاياهم فيها الى الآن . يجب ان نلاحظ ان المستعمرين كانوا يسمون التباريين
« الاشوريين » نسبة الى آشور ، قداما سكان العراق ، ليجعلوا لهم حقاً في العراق ، وليجعلوا لهم فيه وطناً
قومياً على غرار فلسطين ...
- (٣) هل كانت ثورة مارثمعون هذا في سبيل احقاق حق او كانت مشاغبة قام بها جماعة متكلمون على الانكليز؟
- (٤) ان السيف الذي شهره مارثمعون (الثورة التي قام بها) عرفته عين غازي وميزته فادركت انه سيف
انكليزي . الصيقل ، الحداد الذي يصنع السيوف .
- (٥) كان غازي نائباً عن ابيه مدة غياب ابيه في اوروبه . « ما تأتي » (تقسم ، تخلف عيناً) ولا وجه لها
هنا . والصواب ما تتلي (بتشديد التاء) ، تقصر وتبطل .
- (٦) ولما تفعل ، عين غازي كانت ساهرة مدركة لتبلماتها فلم يكن بالامكان ان تحمل الضم (تسكت عن
ثورة التباريين) .
- (٧) لم يكن بغريب عن قريب المنهل . المنهل ، النبع (نبع الفضائل) . ان هذا الفعل من غازي غير
مستقرب لأن غازي ابنك (قريب منك) .
- (٨) هذه جاية الامر فاسمع عذره قبل ان تبادر الى لومه .
- (٩) هفا : تصد ، طرب . - من يبحث عن المثل الاعلى يجده دائماً في بني هاشم .
- (١٠) لإشارة الى ان كبراء آل البيت من نسل الامام علي قتلوا في سبيل المطالبة بحقوقهم كما توفي فيصل في
اوروبه في اثناء مطالبته بحقوق العراق كاملة .

لا أحاشي بينكم من أحدٍ فكسي الحربِ صنواً الأعزل .
 كأسكم ينشأ - قلباً ويداً ولساناً - في جهادِ المُبطل .
 فتحَ الخلدِ لكم هيكاهُ ؛ فإذا أنتم بدورُ الهيكل .
 ضمَّ جبريلُ جناحيه على سُودِّدٍ محضٍ وُنبلٍ أمثل .

*

وأطافَ الملائ الأعلَى بمن عزمه في الحقِّ عزمُ الرُّسل .
 فيصلُ شَيْدٍ مُلنكاً لم يزلُ بحمى اللهِ وغازي يعنتلي .
 وبشعبٍ بذلَ الروحَ ؛ ومن يَنشُدُ الملكَ وطيداً يَبْدُل .
 ليس من (حامٍ) لكيدٍ ينبري فيه أو (منتدبٍ) مَحْتَمِل .
 أضرَموا النارَ وصبُّوا فوقها دمهمُ حُرّاً أبيضاً يغتسلي .
 صهروا الأغلالَ وأنصاعوا إلى دَيسِ الأرضِ فقالوا اغتسلي ؛
 وإذا دَجَلَةٌ عذبٌ ورُدُّها ، وإذا النخلُ كريمُ المأكلي ،
 وإذا بغدادُ بما أزهرت حليمةُ التاريخ بعد العطل .
 ووقاها الله - والعونُ به - دُولَ العدرِ وغدَرِ الدُّول .

ورثي ابراهيم نفرأ آخرين رثاءَ اعجاب او رثاء لياقة او رثاء فيه شيء قليل من الاعجاب الى جانب شيء يسير من اللياقة . و ابراهيم في مرثيه لم يخرج عن اتجاهه العام في انه كان يتطرق في كل مرثيه إلى موضوع وطني او اجتماعي يرفع به شعره عن مستوى الشعراء المدّاحين والرثائين .

-
- (١) لا استنني احداً من استحقاق الشهادة : سواء منكم من مات يحمل سيفاً او من مات على فراشه لأنكم جميعكم طلاب حق مجاهدون .
- (٢) أطاف هنا : احاط . الملائ الاعلى : الملائكة . بمن عزمه في الحق ... : فيصل . عزم الرسل ؛ اولو العزم من الرسل ، الرسل الذين قاسوا كثيراً في سبيل هداية قومهم ومقاومة اعدائهم .
- (٣) يجب ألا يكون في تلك الدولة (العراق) حماية تعمل في الباطن على الكيد لأهل البلاد ولا انتداب يخدم اهلها ويصرفهم عن حقهم .
- (٤) انصاع : انفتل ، دار - غلب العراق من ثورة الزّوّام .
- (٥) حلية : زينة . العطل : التجرد من الحلي . المرأة العاطل : المرأة التي لا تزين بالحلي والجواهر .

من مراثي ابراهيم مرثية قالها في جبر ضومط (١٨٥٨ - ١٩٣٠ م). كان جبر ضومط استاذاً للغة العربية في الجامعة الاميركية وله في اللغة العربية وصرافها ونحوها وبلاغتها تأليف اشهرها الخواطر العراب في النحو والاعراب والخواطر الحسان في المعاني والبيان. غير اننا نحن لم نتعلم عليه لأنه في ايامنا في الجامعة كان قد أصبح استاذ شرف^١، وان كنا قد سمعناه محدثاً وخطيباً. وقد نظم ابراهيم قصيدته في رثاء جبر ضومط وألقاها في الحفلة التأيينية التي اقيمت في القدس (١٩٣٠) ومطلعها:

أعمدان ، ما يُبكيك ، يا كعبة الهدى ؟ وفيمَ الأسى ، يا هيكل الفضل والندى^٢ ؟

ثم تطرق ابراهيم في هذه المرثية الى امر إغلاق المدارس الرسمية في لبنان. في عام ١٩٢٩ كان اميل إده رئيساً للوزارة في لبنان فإغلق المدارس الرسمية بحجة انها تكلف الدولة مالا كثيراً. والحقيقة ان هنالك ايدياً كانت منذ ذلك الحين تريد إغلاق المدارس الرسمية لتدفع الطلاب اللبنانيين الى المدارس الاجنبية ، وخصوصاً مدارس اليسوعيين، على ان اغلاق هذه المدارس لم يطل كثيراً فقد اعيد فتحها. وفي ذلك كله يقول ابراهيم:

ولاعلم في لبنان شيدت معاهد^٣ ؛ فلم تُبقي أيدي الجهل منهن معهدا^٣ .
وأصبح بما قد جئتوه اعتذارهم ، فقالوا يضيع المال في رفعها سدى .
وقد زعموها تُنفدُ المالَ كثرةً ، فهل تركوا مالاً هناك فَيَمْتَفِدَا ؟
مصاييحُ إن هم أطفالها فإنها حبابُ سُومٍ كم أخلت من أهتدي ؛
وما لهمني إلا على ساعةٍ بها صدقنا العدا ؛ لا بارك الله في العدا^٥ .
فكم من يدٍ بيضاء للعرب عندهم ! (ومن لك بالحرِّ الذي يحفظُ البدا)^٦ ؟

(1) cf. A.U.B. Directory, 1953, pp. 6,41.

(٢) غمدان منزل لجبر ضومط في جبل لبنان . هيكل الفضل والندى : الجامعة الاميركية .

(٣) شيدت هذه المعاهد في ايام الحكم العثماني .

(٤) هذه المعاهد اصبحت في ايام الانتداب الافرنسي مدارس ابتدائية ، وكانت تفضل الذين يصدقون انها

مدارس صحيحة اذا اطأوا اليها . الحجاب : البراع ، ذباب يرمى في الليل مضياً .

(٥) صدقنا العدا : أخلصنا لاعدائنا .

(٦) عجز بيت للمتنبي .

في اواخر آذار ١٩٣٤ توفي موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية في فلسطين، تلك اللجنة التي كانت توجه الحركة الوطنية. وقد طلب من ابراهيم ان يعد قصيدة للحفلة التأيينية التي كانت في الرابع من ايار ١٩٣٠. كتب الي ابراهيم يقول ' موجزاً قدر الامكان ومقتصرأ على الاشياء التي يجوز ان تقال في كتاب مثل هذا:

منذ عشرة ايام كان الاحتفال الاربعيني بوفاة موسى كاظم باشا الحسيني... قالوا: يجب ان ارثيه. نعم، لأنه حضر جنازة عمي الحاج حافظ و (حضر) حفلة تأيينه ولأن في الرجل - على قدر الحال - موضعاً للقول. أضف الى ذلك عنعنات عائلية حزبية يجب ان احتفظ معها بشيء كثير من الموازنة. وهكذا، وفي ضوء هذه المقبلات الشعرية اخرجت واحداً وعشرين بيتاً لم اشك بعد فراغي منها في مقدرتي الخارقة على النظم... قال لي جمال القاسم: «يا ابراهيم، كأنني بك مجفلاً في قصيدتك التي رثيت بها موسى كاظم باشا تخشى ان تكيل له المديح والثناء». وقال لي آخر: «أراك اتكأت على الرجل ثم انصرفت عنه الى بحث آخر.» وقال غيرهما: «يا اخي، ما هذا الرثاء؟ لم تقل عنه اكثر من انه كان رجلاً عجوزاً فيه خير...» لا انكرك يا عمر اني سررت بهذه الشهادات وعلمت منها انني لم اعد الغرض الذي اردته في تأيين الباشا. القصيدة طيه، فاقرأها اذا شئت.

بدأ ابراهيم هذا المرثية بمقطع مؤلف من سبعة أبيات تناول فيها جهاد موسى كاظم باشا فقال:

وجهُ القضية من جهادك مُشرقٌ ، وعلى جهادك من وقارك رونق .
لله قلبك في الكهولة انه ترك الشيبة في حياء تطرق .
تلك الثائون التي وقَّيْتَهَا في نصفها عُذْرٌ لمن لا يَلْحَقُ .

ولما انصرفت عن المرثي الى الكلام في فلسطين وزعمائها قال:

وطني اخاف عليك قوماً اصبحوا يتساءلون : من الزعيم الاليتق ؟

(١) نابلس ١٤ مايس (ايار) ١٩٣٠ .

لا تفتحوا باب الشقاق ، فإنه بابٌ على سود العواقب مُغلَقٌ !
 والله لا يُوجي الخلاص وأمركم قَوْضَى وشمل العاملين مزمق .
 على ان رثائه لعبدالمحسن الكاظمي ينضح عاطفة ويفيض شاعرية وان كان قد قلده فيه
 احدى قصائد المتني كما كان قد قلده قصيدة اخرى للمتني في رثائه لموسى كاظم باشا .
 عبدالمحسن الكاظمي اديب شاعر بغدادي اشتهر بقصائده الطوال المترجلة وبدياجته
 البارعة واسلوبه المتين وبالروح الوطنية التي تشيع في شعره . قال ابراهيم يرثيه (١٩٣٥)
 بقصيدة مطلعها :

سلّ جنّة الشعر ما ألوى بدوّحتها حتى خلت من ظلال الحُسْنِ والطيبِ .
 وبعد ان خص الميت بثمانية ايات التفت الى العرب وفلسطين فقال واحداً وعشرين بيتاً
 من غير ان يعود الى الكلام على الكاظمي . من هذه الايات :

أبا المكارم ، قم في الحفل مرتجلاً مُهدِّبَاتِكَ لم تُصَقِّلْ بتهديبِ .
 وأضرم النار ، إنَّ القومَ هامةٌ قلوبهم . ذل قلب غير مشوبِ .
 وأنفخ إياك في آناهم غضباً فقد تحركُ أصنامَ المحاربِ .
 تمكن الذل من قومي ، فلا عجب ألاّ يبالوا بتقريع وتأنيبِ .
 ما أشرف العذر لو أن الوعى تشرّتْ أشلاءهم بين مطعون ومضروب ،
 لكن دهتهم اساليب العداة وهم ساهون لاهون عن تلك الاساليبِ .
 يا رائداً كلّ ارض اهلها عرب يجتاها نضو تصعيد وتصويب ،
 هل جئت منهم أناساً عيشهم رعدٌ أم هل تزلتَ بقطر غير منكوب ؟
 أم ايُّ راعٍ بلا ذئبٍ يجاوره ، إن لم تجدُ راعياً شراً من الذئب !

ويدخل في هذا الباب « رثاء نابلس » بعد الزلزال الذي اصابها :

في تموز من عام ١٩٢٧ حدث في مدينة نابلس زلزال شديد عما لم تألفه بلادنا في عصرنا

(١) هذه القصيدة معارضة في البحر والروي والنفس لقصيدة المتني :

من الجأذر في زى الاعاربِ حمرَ الحلى والمطايا والجلابيب ؟

الحديث ، وان كانت بلادنا تقع على طريق الزلازل . وقد ذكر ابراهيم حال نابلس في احدى رسائله فقال ^١ :

« اما المدينة فقد تدمرت بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فلا دار الا وهي مهدومة او بحاجة الي الهدم او الى اصلاح تربو (نفقاته) على نصف قيمتها . وقد كان عدد القتلى بين ١٠٠ و ١٢٥ والجرحى بين ٣٠٠ و ٤٠٠ ، منهم نحو خمسين في حالة خطر . واهل المدينة الآن في خارجها يسكنون بيوتاً خشبية او خياماً ، ومنهم من هاجر ... راقب الاحرار المصورة فسأبعث اليها قصيدة في وصف الحالة الحاضرة ونكبة الزلزال . » ولكن ابراهيم عاد فقال ^٢ : « راقب صدور البرق فاذا صدرت وكان لي فيها قصيدة عن الزلزال فارجوك ... ان تبتاع لي من ذلك العدد خمس نسخ وترسلها الي . » وقد صدرت هذه القصيدة في جريدة البرق ^٣ بعنوان كارثة نابلس ، مقطعها الاول :

أدموعُ النساءِ والأطفالِ تجرحُ القلبَ أم دموع الرجالِ ؟
بلدٌ كان آمناً مطمئناً فرماه القضاء بالزلال .
هزةٌ إثرَ هزةٍ تركتهُ طللاً دارساً من الأطلال .
مادت الأرض ثم شبت وألقت ما على ظهرها من الأثقال ؛
فتهاوت ذات اليمين ديارُ لفظت أهلها وذات الشمال ،
بِعجاجٍ تُشيرُه ترك الدنـ يا ظلاماً وشمسها في الزوال ؛
فإذا الدور وهي إمّا قبورٌ تحتها أهلها وإمّا خوال .
وأرقُّ النسيم لو مرَّ بالقـا ثم منها لَدَكَّه ، فهو بال .

وبعدئذ يمضي ابراهيم في وصف حال الناس في هذه الكارثة وصفاً جميلاً جديداً يمزج فيه المتانة بالعاطفة ويمزج الاسى بالتجدد ثم لا ينسى ان يعطف على اليهود بملاحظة عابرة ولكنها شديدة . من ذلك كله :

- (١) نابلس المدمرة ، تموز ١٩٢٧ .
- (٢) نابلس المدمرة ٢٢ تموز ١٩٢٧ .
- (٣) جريدة البرق (بيروت) ٢٦ تموز ١٩٢٧ .
- (٤) العجاج : الغبار . خط الزوال في كبد السماء . يقصد : في نصف النهار .

قد رأينا في لحظةٍ وسعنا كيف تلهو المنونُ بالآجال .
هنا نسوةٌ جِيعَ بلا مأوى سَتَرْنَ الجسومَ بالأَسْمال .
هنا نسوةٌ تمَاجرَ والغمَ بديلُ الأثاثِ فوق الرِحال .
دَخَلَاةَ البلادِ ، إن فلسـ طين لأرضٍ كنوزها من نكال ...

— ٢ —

اما « الموضوعيات » الخاصة فقد آثرت ان اختار منها ملائكة الرحمة ، الحبشي
الذبيح ، الشاعر المعلم ، الرد على شاعر اليهود ثم مرابع الخلود . هذه القصائد ليست احسن
شعر ابراهيم - من الناحية الفنية - فحسب ، بل هي من احسن الشعر العربي المعاصر .
في اواخر عام ١٩٢٤ دخل ابراهيم مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت للبقاء فيه
اياماً «تحت المعالجة» استشفاءً من القرحة التي في معدته . ولكن مكثه في المستشفى استمر
مدة غير قصيرة عاد بعدها الى نابلس للنقاهة والاستجمام فتأخر - من اجل ذلك - في المضمار
الدراسي عاماً مدرسياً تاماً . ولقد لفتت الممرضات عاطفة ابراهيم فقَالَ فيهن ابراهيم
قصيدة تعد بحق من روائع الشعر ، سماها ملائكة الرحمة . تبدأ هذه القصيدة بسبعة عشر
بيتاً يصف فيها الشاعر الحمام وصفاً حسياً أخاذاً ، ثم انه عطف على الممرضات فشههن
بالحمائم ، بجامع اللون : لون الحمائم المحبب المألوف في الحمام ولون ثياب الممرضات .
اما الذي جعل للمقطع الثاني قيمته الفنية فهو ان ابراهيم ألقى على الوصف الحسي
للممرضات نفحة هادئة من الغزل . وليس بعجيب ان تكون هذه القصيدة الرائعة من اوائل
شعر ابراهيم اذ قالها عام ١٩٢٤ - مع انه قال بعدها قصائد كثراً اقل منها قيمة . إن
هذا شأن الشاعر الوجداني لا يجيد الا اذا قال في امور تتصل به اتصالاً مباشراً عنيفاً .
وروي هذه القصيدة هو النون المفتوحة ، اما القافية فهي النون المشدودة المفتوحة المسبوقة
بحركة ' والمتلوة بهاء السكته (وهذه القصيدة قد خضعت لتتقيح سير) وانا اثبتها كما
نقحها ابراهيم نهائياً لا كما نظمها اولاً :

(١) اتفق ان هذه الحركة تقع في قوافي هذه القصيدة على الهاء في ضمير النسوة الا في البيتين الثالث والاخير .

بِيضُ الْجَمَائِمِ حَسْبُهَا ۱
 رمزُ الرِّدَاعَةِ وَالسَّلَا
 أَنِي أُرَدِّدُ سَجْعَهَا ۲
 فِي كُلِّ رَوْضٍ فَوْقَ دَا
 نِيَةِ الْقَطُوفِ لَهْنٌ أَنَّهُ ۱ .
 وَيَمْلِكُنَ وَالْأَغْصَانَ مَا
 خَطَرَ النَّسِيمِ بِرَوْضِهَا ۲ .
 فَإِذَا صَلَّاهُنَّ الْمَهْجِرِ
 رَهَبَيْنِ نَحْوِ غَدِيرِهَا ۳ ؛
 يَهْبِطْنَ بَعْدَ الْحَوْمِ مِثْلُ
 لِ الْوَحْيِيِّ لَا تَدْرِي هَيْئَتَهُ .
 فَأِذَا وَقَعْنَ عَلَى الْغَدِيرِ
 رُ تَرْتَبَتِ أَسْرَابُهُنَّ
 صَفَيْنِ طَوْلِ الضَّفِيَّةِ
 ن تَعَرَّجًا بِوَقُوفِهَا ۴ .
 كُلُّهُ تَقَبَّلُ رَأْسَهَا
 فِي الْمَاءِ سَاعَةً تُشْرِبُهَا .
 يُطْفِئْنَ حَرَّ جُسُومِنَّ (م) بَعْمَسِينِ صَدُورِهَا ۵ .
 يَقَعُ الرَّشَاشُ إِذَا انْتَفَضْنَ
 لَأَلْسَانًا لِنَحْوَرِهَا ۶ .
 وَيَطْرُقَنَّ بَعْدَ الْإِبْتِرَا
 دِ إِلَى الْعَصُونِ مُهَوِّدَةً ۷ ؛
 تُنْثِيكَ أَجْنَحَةً تُصَفِّقُ
 قِي كَيْفَ كَانَ سِرُورِهَا ۸ ،
 وَيُفْرِغُ عَيْنَكَ عِبْنَهُنَّ (م) إِذَا
 جُمُنَ بِرَيْشِهَا ۹ .
 وَتَخَالُهَا بِلَا رَوْ
 سٍ حِينَ يُقْبَلُ لَيْسُهَا :
 أَخْفِيَتْهَا تَحْتَ الْجَنَابِ
 حِ وَتَمْنِ مِلءَ جَفُونِهَا .
 كَمْ هَجَّتَنِي ، وَرَوَيْتُ عُنْدَ
 هُنَّ الْهَدْيِلَ ، فَدَيْتُهَا !

...

الْمُجَسِّنَاتُ إِلَى الْمَرِيدِ
 ضِ غَدَوْنَ أَشْبَاهًا لَهَا ۱ .
 الرِّوَضُ كَالْمُسْتَشْفِيَا
 تِ دَوَاؤِهَا لِيُنَاسِهَا ۲ .
 مَا الْكِرْبَاءُ وَطِبُّهَا
 بِأَجَلٍ مِنْ نَظَرَاتِهَا :

- (١) دانية القطوف : شجرة (مثقلة بالثمر) . أنة : الابن وهنا اللحن والتعريف .
 (٢) والاغصان : مع الاغصان .
 (٣) صلاهن : اصابهن بالحر .
 (٤) الابتعاد : الاغتسال بالماء البارد . قطع ابراهيم همزة « ابتعاد » والصواب وصلها .
 (٥) جثم الطائر : وقف ، لزم مكانه . العبت : التسلط ، اللعب .

يشفي العليلَ عَنَّاوَهَن (م) وعَطْفُهِن ولُطْفُهِنَّهٗ ١ .
 مَرُّ الدَّوَاءِ بِفِيكَ حُلْدٌ . وَ مِنْ عُدْوِيَةِ نُظْفِهِنَّهٗ .
 مهلاً ، فعندي فارقٌ بين الحمام وبينهنهٗ :
 فلربُّمَا أَنْقَطَعَ الحَمَا ثُمَّ فِي الدُّجَى عَنْ شَدْوِهِنَّهٗ .
 أمَّا جَمِيلُ الحَسَنَاتِ ففِي النِّهَارِ وَفِي الدُّجَى ٢

ومن اروع قطع ابراهيم الموضوعية قطعة نظمها عام ١٩٣١ ، حينما كان استاذ في الجامعة الاميركية ، وسماها « الحبشي الذبيح » . و ابراهيم يشبهه ديك الحبش (الديك الرومي) الذي تعود الاميركيون من الغربيين خاصة ، ان يزيناوا به موائد اعيادهم وبين « الحبش » (الشعوب غير البيض من الامم الضعيفة) التي تُذبح مصالحها كل يوم على موائد الامم القوية .

اما الصورة الشعرية فمأخوذة من ان نفرأ من القصابين (اللحامين) في بيروت - وربما في غيرها ايضاً - يذبحون الدجاج بطريقة تسمى « التشريق » فهم « يُشَرِّقُونَ » الديك خاصة بعض دمه في اثناء عملية الذبح ، فيسير الديك مضطرباً مساقاً ماء ، بينما الدم يسيل من عنقه بغزارة حتى يهدم فجأة فيقع ميتاً . والضمير المستتر في « بَرَقَتْ » يعود على السكين :

بَرَقَتْ لَهُ مَسْنُونَةٌ تَتَلَهَّبُ أَمْضَى مِنَ الْقَدَرِ الْمُنَاحِ وَأَغْلَبُ ٣ .
 حَزَّتْ فَلَاحِدُ الحَدِيدِ مُخَضَّبٌ بِدَمٍ ، وَلَا نَحْرُ الذَّبِيحِ مُخَضَّبٌ .
 وَجَرَى يَصِيحُ مُصَفِّقًا حِينًا فَلَا بَصْرُ يَزْوَعُ وَلَا خَطِيءٌ تَتَنَكَّبُ ؛
 حَتَّى غَلَّتْ فِي رِيْبَةٍ فَسَأَلْتُهُمْ : خَانَ السَّلَاحُ أَمْ المَنِيَّةُ تَكْذِبُ ؟

(١) العناء : التعب . يقصد تعبهم في سبيل راحة المريض .

(٢) الدجنة . الظلام ، الليل .

(٣) المناح : المد ، المنقض ، الهاجم .

(٤) مصفقا : يصفق بجناحيه . يزوغ ، يقصد « يزوغ » : يكل ، يميل ، يضطرب . تنكبت الخطى الطريق ::

مالت ، جازت ، عدت ، ابتعدت .

قالوا : حلاوةُ روجهِ رقصت به ! فأجبتهم : ما كلُّ رقصٍ يُطرب .

*

هيئات ، دونكاهُ ، قضى فإذا به
وإذا به يزورُ مُخْتَلِفَ الحُطَي
صَعِقُ يُشْرِقُ تارةً ويفرُّبُ ١ .
ووزَكِيَّةٌ مَوْتورَةٌ تتصَدَّبُ ٢ .
ويعدو فيجذبُه العيَاءُ فيرتمِي ؛
ويكادُ يظْفَرُ بالحياةِ فتهرُّبُ .
متدفقٌ بدمائِه ، مُتقلِّبٌ
متعلِّقٌ بدمائِه ، مُتَوَكِّبٌ ٣ .
أعدابُه يُدعى حلاوةَ روجهِ ؟
كمَ مَنْطِقٍ فيه الحقيقَةُ تُقلِّبُ !
إن الحلاوةَ في فمِ مُتَمَلِّظٍ
شرهاً للبشرِ ما الضحيفةُ تسكُبُ ؛
هي فرحةُ العيدِ التي قامت على
ألمِ الحياةِ ؛ وكلُّ عيدٍ طيبٌ ٥ .

لم يكن ابراهيم سعيداً في حياته التعليمية ، وكان يكره التعليم كرهاً شديداً ولكنه دخل التعليم بعوامل مختلفة كان يظهر فيها انصافاً للعلم وللمبدأ وللانسانية فلم يجد من ذلك عند بعض المشرفين على التعليم شيئاً : علّم في كلية النجاح الوطنية في نابلس (١٩٢٩-١٩٣٠) . لأنه يريد ان يؤدي خدمة لبلده ومسقط رأسه ، ولكن مصالح القائمين على المشروع كانت مناقضة لمثله العليا . وعلم في الجامعة الاميركية في بيروت عامين (١٩٣٠-١٩٣٢) ، واي معهد في هذا الشرق يطمع الانسان ان يلتمس المبادئ السامية والمثل العليا الحق إلاه . ولكن ابراهيم اسيء اليه في الجامعة الاميركية اكثر مما اسيء اليه في حياته كلها . ثم علم في المدرسة الرشيدية الرسمية في القدس معتقداً ان الحكومات ، اذا ادارت المؤسسات ، تكون عادة فوق المصالح

(١) صعق : مغشي عليه ، فاقد وعيه . يشرق تارةً ويفررب : يضطرب في مسيره بينة ويسرة .

(٢) ازور : مال (الى جانب واحد ، وقع على احد جنبه) . مختلف الحطى : مضطرب ، يحرك رجله فاحصاً في الارض . زكية : بقية من دم طاهر . مواتورة : مأخوذة ، مسفوحة ظلاً .

(٣) الدماء ؛ بقية الروح في الجسد .

(٤) يتلفظ : يتحلب ريقة في فم تشبهاً للطعام الطيب المعروض امامه . يسكب : يصب . ما الضحيفة تسكب : الدم .

(٥) في هذا البيت تورية : (أ) العيد للناس الذين يملكون هذا الديك المذبوح والذين سيأكلونه في عيدهم ، وان كان هو قد تألم - ان كل سرور في جانب يقوم على ألم في جانب آخر . (ب) فرجة العيد لنا نحن المستعبدين بعد ان تألما في حياتنا وبعد ان يتألم مستعمرنا كما يتألم هذا الديك الآن .

والغايات وتكون اقرب الى الاخذ بمبدأ العدل والمثل الاعلى . ولكن امله هنا ايضاً خاب .
 في هذا الدور ضاق ابراهيم زرعاً بالتدريس - وكان في ذلك الحين يعلم في المدرسة
 الرشيدية في القدس . وحاول ابراهيم جهده ان يقوم بواجبه كما يميل عليه ضميره فلم يكن
 ذلك بالامكان ، لانه كان يرى ما يفعل غيره ، فقال ^١ :

قعودي طوال اليوم فوق دفاترٍ أصلحها شيءٌ يفيضُ على الفيضِ .
 ولولا شعوري بالذي هو واجبٌ لدرتُ لها . . . وقلت على . . .

وساءت صحة ابراهيم فاتفق الموضض النفسي مع السداء في الجسد ، ولم يبق امام
 ابراهيم الا ان يترك التعليم . في هذا الطور قال ابراهيم اياتاً رائعة على ما فيها من معان
 قريبة المتناول . ولقد كان الناس في ذلك الحين يرددون قصيدة لشوقي قالها عام
 ١٩٢٤ مطلعها ^٢ :

قم للمعلم وفته التبجيلا ^٣ ؛ كاد المعلم أن يكون رسولا .
 فقال ابراهيم بعد ان ترك التعليم في المدرسة الرشيدية على الاغلب ^٤ :

شوقي يقول ، وما درى بمصابنا ^٥ : (قم للمعلم وفته التبجيلا) .
 أقعد - فديتك! - لا يكون مبعثلاً من كان للنشء الصغار خليلاً . . .
 ويكاد يفلقني الأمير ^٦ بقوله : (كاد المعلم أن يكون رسولا) .
 لو جربَ التعليم شوقي ساعةً لفضى الحياةَ شقاوةً وخُمولا .
 حسبُ المعلمِ نعمةً وكآبةً مرأى الدفاترِ بكثرةً وأصيلا .
 مائةٌ على مائةٍ إذا هي صلحتُ وجد العمى نحو العيون سبيلا .

(١) القدس ١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٢ .

(٢) ديوان شوقي ١ : ٢٢٤-٢٢٨ ، راجع ٢٢٧ ، الحاشية الثانية .

(٣) الاحتفاء والتعظيم .

(٤) راجع نابلس ١٠ آذار ١٩٣٣ .

(٥) في الديوان : بصيبيتي .

(٦) في الديوان : هل يكون .

(٧) الامير : شوقي ، اذ كان لقبه امير الشعراء .

ولو أن في التصليحِ نفعاً يرتجي ، وأبيك ، لم أك بالعيون بخيلاً ١ .
 لكن أضححُ غلظةً نحويةً ، مثلاً ، وأتخذ الكتاب دليلاً ٢ .
 مستهدداً بالغرِّ من آياته ، أو بالحديثِ مفصلاً تفصيلاً ٣ .
 وأجيبُ بالشعر القويمِ فأتقي ما ليس ملتبساً ولا مبدولاً ٤ .
 وأكادُ أنشرُ سيبويه من البلي وذويه من أهل القرون الأولى ٥ .
 فأرى ابنَ كلبٍ ، بعد ذلك كله ، رفعَ المضافِ إليه والمفعول ٦ .
 لا تعجبوا إن صحتُ يوماً صحيحةً ووقعتُ ما بين البنوك ٦ قتيلاً .
 يا من تريد الانتحارَ وجدته ؛ إنَّ المعلمَ لا يعيشُ طويلاً !

وفكرت الجامعة الاميركية في بيروت ان تحتفل - مثل غيرها من المؤسسات في الشرق والغرب - بمرور الف سنة هجرية على وفاة المتنبي (٣٥٤ للهجرة) فأقامت حفلة في هذه المناسبة في ٣١ ايار ١٩٣٥ ألقى فيها ابراهيم قصيدة . هذه القصيدة تنكشف عن احاطة واسعة بحياة المتنبي وادبه وتضح بالشاعرية . إلا ان ابراهيم لم يكن راضياً عنها في النهاية . وفيما يلي الادوار النفسية التي مرت فيها تلك القصيدة . يقول ابراهيم في رسائله :
 ١ - ثم الاستاذ انيس الخوري^٧ يكلفني ان أكون احد شعراء حفلة المتنبي التي ستقيمها العروة الوثقى^٨ في ٧ نيسان ١٩٣٥ . وقد اجبت طلبه لأن هذه الحفلة على خطرهما فيها مشوار^٩ لبيروت ، ومثلي لا يمكن ان يفلت منه مشوار بيروت !! (١٩ شباط ١٩٣٥) .

(١) وأبيك ، الواو للقصم . أك : أكن (مجزومة) .

(٢) الكتاب : القرآن الكريم .

(٣) الفر (جمع اغر وغراء) : البيض ، الكريمة . الحديث : اقوال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤) الملتبس : الغامض ، المتشابه ، الذي تفهم منه معان وأوجه كثيرة . المبدول : المتبدل ، السوقي ، الذي لا قيمة ادبية كبيرة له . - لا أدري لماذا قد علق بذهي رواية اخرى لهذا البيت ؛

وأجيبُ بالشعر القديم فأتقي ما ليس مبتدلاً ولا منحولاً .

(٥) سيبويه ؛ من اكابر علماء النحو . ذووه ؛ آله واتباعه في علم النحو ، أي النحاة الآخرون .

(٦) البنوك (جمع بنك ؛ كلمة دخيلة عامية) : مقاعد المدرسة .

(٧) الاستاذ انيس الخوري المقدسي ، استاذ الأدب العربي في الجامعة الاميركية .

(٨) العروة الوثقى جمعية عربية أدبية خدمت الادب العربي والفكرة العربية خدمات جلى . ولكن ادارة الجامعة الاميركية عطلت اجتماعاتها .

(٩) مشوار كلمة عامية معناها ؛ مسير مسافة ، زهة .

٢ - فكرة القصيدة ومحورها جاهزان ولا ينقصهما غير النظم . فاذا توقفت في ابراز الفكر والمحور كما ينبغي لهما ان يبرزتا جاءت القصيدة آية ، لأن الفكرة والمحور طرفان بكل ما في الطرافة من معنى ...

اسمع . قد لا يفتح علي بقصيدة المتنبّي فأتأخر عن الحضور يوماً او يومين^١ ريثما أدبر نفسي . ولكنني اشعر بكثير من الثقة في نزول الوحي علي . رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي امري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي^٢ . آمين .

٣ - ويبدو أن موعد الحفلة تأخر من السابع من نيسان الى الواحد والثلاثين من ايار . ثم ان الجرائد تناولت الحفلة وخطبائها بالنقد . قال ابراهيم :

« اما تعليقك على الحفلة^٣ فقد انصفت في كل ما قلته ... وقاربت ان تنصفي لولا صداقتك وعطفك عليّ ، فانهما وثبا الى المقال وجمحا بالقلم فرحمني منك . اما مقالة توفيق عواد في النهار^٤ فقد اطلعت عليها . ولم يزعجني ما قاله في خاصة ... وقد لاحظت انه (كمش) موضع الضعف في قصيدتي وعرف تماماً كيف كنت احاول التغلب على ذلك الضعف . لقد اكشف المؤامرة التي دبرناها في عرفة فريد ...^٥ ! تذكرها؟! طبعاً . »

اما القصيدة فعنوانها مرابع الخلود : استعراض حياة المتنبّي وديوانه ، وهي مخمس من بحر الرجز مطلعها :

لما أنجبت من حجب الزمان
مرباع الخلود والمعاني
ضاق على النفس الكيانُ الفاني
وعالمٌ يعصّ بالأشجانِ
ويفجّع القلوب بالأمانِ

(١) نابلس ، ٣٠ آذار ١٩٣٥ .

(٢) سورة طه (٢٠ : ٢٥ - ٢٨) .

(٣-٤) لم يتح لي مراجعة هاتين الكلمتين . ان تعليقي انا على الحفلة يجب ان يكون قد نشر في جريدة الاحرار (بيروت) ، ولكن مقالتي المنشورة في الجلات والصحف اكثرها غير مرتب الآن فلا يمكن الرجوع الى كل شيء منها . وكذلك لا استطيع الوصول . الآن الي كلمة توفيق عواد في جريدة النهار (بيروت) .

(٥) لا اذكر الآن فريداً الذي يشير اليه ابراهيم .

ومنه : طافت على الملوك والقيصرة
أضخمكم أسطورة أو نادره وإنما الخلود للمباقره
جبار النفوس والأذهان

وخاتمته : عودي إلى دنياك ، دنيا العرب ،
وتغمُرُ الشرقَ بهذا اللهب . قد يستردُّ الحقُّ بعضَ الكتب ،
وقد يكونُ المجدُ في ديوانِ

أما القصيدة التي رد بها ابراهيم طوقان على شاعر اليهود فلم يتح لي الحصول عليها من احمد طوقان^١ ولا الاطلاع عليها في جريدة العهد الجديد^٢ . من اجل ذلك سأكتفي باثبات ما كتبه ابراهيم إلي منها . قال^٣ :

« ترجمت جريدة فلسطين نهار امس قصيدة لشاعر يهودي يعيرنا فيها بأننا ابنا هاجر .
فبدأت بقصيدة مطلعها :

هاجرنا أمنا ولودنا رؤوم لا حسودنا ولا عجوز عقيم^٤ .
ومنها : يوسف باعه ابوكم هوذا ؛ إن حب الدينار فيكم قديم .

وهذه الفكرة مقتبسة من التوراة (سفر التكوين ، إصحاح ٣٧ ، رقم ٢٦ ،
٢٧) .^٥

(١) لعلني أنا لم ألح في الحصول عليها كثيراً .

(٢) لم اصل الى مجموعة جريدة العهد الجديد التي تتضمن القصيدة . يجب ان تكون هذه القصيدة قد نشرت في احد اعداد النصف الثاني من شهر ايلول عام ١٩٢٩ .

(٣) نابلس ، ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٤) تزوج ابراهيم الخليل سارة فلم يرزقا في اول امرهما اولاداً حتى شاخا . ثم ان سارة اهدت الى زوجها ابراهيم جارية اسمها هاجر ولدت منه اسماعيل - جد العرب كما جاء في الاخبار . بعدئذ ولدت سارة نفسها اسحق - جد اليهود . الرؤوم : التي تعطف على اولادها .

(٥) تكوين : ٣٧ : ٢٦ ، ٢٨ : « فقال يهوذا لآخرته : ما الفائدة ان نقتل اخانا ونخفي دمه . تعالوا نبيعه للاسماعيلين » .

ومنها : وشكسييرُ خالد القول فيكم امر (شيلوخ) في الوري معلوم
غير أن الذين منهم شكسيير تناسوا ما قال ذاك العظيم .

وأراني سأجعل كل بيت من آيات هذه القصيدة مأخوذاً عن مصدر تاريخي ، بل
من التوراة نفسها، فانها تفيض بخبثهم منذ قال الله موسى : اضرب بعصاك البحر الى اليوم...»

(١) للروائي الانكليزي ولي شكسيير رواية اسما « تاجر البندقية » The Merchant of Venice
تدور على ان شيلوخ مراب يهودي في البندقية ، جاءه يوماً رجل اسمه باسانو يريد ان يستدين منه ثلاثة آلاف
دوقه لمدة ثلاثة أشهر . فطلب شيلوخ من باسانو كفيلاً على المبلغ وفأثدته لمدة ثلاثة أشهر . فكفل باسانو
صديق له اسمه انطونيو كان تاجراً كبيراً في البندقية (وباسمه سميت الرواية) ولكن انطونيو لم يكن يملك في ذلك
الحين عيناً لانه كان قد اشترى بجميع امواله بضائع وأرسلها على مراكبه الى بلاد مختلفة .

وروي شيلوخ اليهودي في مقدار الفائدة التي يريدتها على ثلاثة آلاف دوقه لمدة ثلاثة اشهر فقال في نفسه ،
ان انطونيو نصراني يكره قومي وأنا ابغضه وأود ان اشبع حقدتي عليه من دمه ولذلك اشترط انه اذا تأخر
باسانو وانطونيو عن أداء المبلغ فحينئذ يحق له (شيلوخ) ان يقطع ليرة لحم من موضع يختاره من جسم
انطونيو . وقبل انطونيو بذلك .

ويتفق ان يعجز باسانو عن أداء المبلغ وأن تفرق سفن انطونيو ثم يمين حين دفع المبلغ فيقف الجميع امام
القاضي . ولما امر شيلوخ على ألا يقبل مالا ولا عروضاً وأن ينفذ الشرط باقتطاع ليرة من لحم انطونيو ، قال له
القاضي : اختر المكان الذي ستقطع منه اللحم . فاختار شيلوخ الصدر لأنه قريب من قلب انطونيو .

حينئذ اعترضت بورشيا خلية باسانو وقالت لشيلوخ : ان الشرط بينك وبين انطونيو أن تقطع ليرة من
لحمه ولكن لا يجوز لك ان تترك نقطة من دمه تسيل . . . ويعلم شيلوخ عجزه عن ذلك ويريد ان يسترد رأس
ماله فقط ، ثم يتنازل عن رأس ماله أيضاً فيرفض القاضي الا ان تصادر اموال شيلوخ فيعطى انطونيو نصفها ويرد
نصفها الآخر الى خزانة الدولة . . .

والرواية تبرز الكره المتبادل في زمانها بين النصراني واليهود .

الشَّامِي

١ - بيئة العام

ان التعبير الجغرافي « شمالي افريقية » يطلق في التاريخ الحديث علي الصقع الشمالي الغربي من قارة افريقية والذي يتألف من الوحدات السياسية الثلاث : تونس والجزائر ومراكش . فتونس هي الجناح الشرقي لهذا الصقع وقد عرقة العرب باسم «افريقية» وباسم المغرب الادنى لأنه ادنى اقسام المغرب الى المشرق . واما الجزائر فقد عرفها العرب باسم المغرب الاوسط لتوسطها بين تونس ومراكش . واما مراكش فكان اسمها المغرب الاقصى . وتبلغ مساحة تونس نحو مائة وعشرين الف كيلومتراً مربعاً تنقسم ثلاثة اقسام : قسماً شمالياً جبلياً معظمه مراع خصبة ، ثم قسماً شرقياً ساحلياً على شيء من الخصب في شماله ، أما جنوبه فصحراوي ؛ ثم قسماً جنوبياً داخلياً يتألف من سهول عظيمة ومراع شاسعة وواحات نخيل . وجنوب هذه الواحات من النخيل صحراء افريقية الكبرى^١ .

في هذا القسم الجنوبي من تونس بحيرة مثلثة واسعة تدعى شط الجريد تقع على ساحلها الشمالي الغربي مدينة توزر . ولمدينة توزر هذه ضواح تدعى احداها الشايبة ، وهي البلدة التي ولد فيها شاعرنا ابو القاسم الشابي .

وتاريخ تونس الحديث مأساة من تلك المآسي التي ما زالت تحل بالشرق وبالغرب والمسلمين منذ خروج العرب من الاندلس في مفتح العصور الحديثة .

لما كان السلطان سليم الاول العثماني يفتح البلاد في الشرق كانت الدولة الحفصية في تونس قد آلت الى الضعف ففكر العثمانيون بفتح المغرب وفرضوا عليه حمايتهم مدة من

(١) راجع خلاصة تا: بنج تونس ، ص ٦ .

الزمن . واخيراً استخلص الاتراك المغرب سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) فزال الاستعمار الاسباني عن تونس وانقرضت الدولة الحفصية .

ولم يحكم الاتراك تونس حكماً مباشراً بل كانوا ينصبون عليها ولاة عرفوا في تاريخ تونس باسم الدايات^١ وكان العمال اي الذين يتولون جمع الاموال يلقبون بالبايات . وفي سنة ١٠٤١ هـ (نحو ١٦٣٠ م) استطاع مراد باي ان يستبد بشؤون البلاد ثم كتب الى الباب العالي في الاستانة بطلب لقب باشا فاستطاع الحصول على هذا اللقب . ومنذ ذلك الحين اصبحت تونس تحت حكم البايات، ولا يزال لقب باي لقب سلطان تونس الى الآن .

وظلت تونس يتولاها باي بعد آخر حتى سنة ١١١٧ هـ (١٧٠٥ م) حينما استطاع حسين باي الاكبر بن علي ان يجعل ولاية تونس وراثية في عقبه فنشأت الدولة الحسينية التي ما زال افرادها يتعاقبون على عرش تونس الى اليوم^٢ .

كان الحكم العثماني على تونس دائماً إسمياً وخصوصاً بعد سنة ١١١٧ للهجرة حينما اصبحت الحكم وراثياً في الاسرة الحسينية . على ان تونس ظلت دائماً على ولاء العثمانيين فساعدتهم باسطولها البحري في حربهم مع الروسية سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) وفي القضاء على ثورة اليونان سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) ، كما اشتركت تونس بحرباً في معركة نورين الى جانب العثمانيين ضد اليونان سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) ، وفي حرب القرم ضد الروسية ١٢٧٠ - ١٢٧٢ للهجرة (١٨٥٤ - ١٨٥٦ م) .

ووافق طمع فرنسا بشمالي افريقية اضطرابات مختلفة في شمالي افريقية ، فاستطاعت فرنسا ان تحتل الجزائر نهائياً سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) وتونس سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) . والاستعمار شر كله وظلم . على ان لكل نوع من الاستعمار خصائصه من الشر والظلم . فالاستعمار الفرنسي يقوم على إفقار البلاد التي يستعمرها وتركها متأخرة عن ركب الحضارة . ثم هو - كسائر انواع الاستعمار - يمالئ جميع الغرباء في البلاد التي

(١) الداوي لقب الضابط الذي تولى قيادة مائة جندي من الانكشارية الذين كانوا يقومون بالدفاع على تونس .

(٢) راجع موجز تاريخ تونس ١٤٧ ثم ١٤٩ وما بعدها .

يستعمرها ويقهر اهل البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . والاستعمار الفرنسي - كسائر انواع الاستعمار ايضاً - يكره الاسلام كرهاً شديداً ، ذلك لأن الاسلام دين يوحى العزة والكرامة ويأبى الخضوع ، ولذلك رأينا جميع المستعمرين مجتمعين على اضطهاد المسلمين في كل صقع نزلوه . اما سياسة فرنسة لشمالى افريقية فكان بالغاً حد القسوة ، ذلك لأن شمالى افريقية قريبة من فرنسة وتريد فرنسة ان تجعل من ممتلكاتها في ذلك الصقع مدى حيويّاً لها وجزءاً تابعاً لها سياسياً وإدارياً واقتصادياً .

اما حقائق الجو الذي عاش فيه الشابي وشهده فيمكن ان نسرد منها ما يلي :

- ١ - كان مجلس الشورى الذي يشرف على توزيع ميزانية الحكومة قاصراً على الفرنسيين ولم يشترك فيه التونسيون إلا نحو عام ١٩٠٦ .
- ٢ - حاول المجلس البلدي ان يضع يده على مقبرة الزلاّج الاسلامية ، ولما حاول التونسيون منع ذلك قابلهم الافرنسيون باطلاق النار ثم اعتقلوا عدداً كبيراً منهم وحكموا على بعضهم بالاعدام .
- ٣ - اشترك في الحرب العالمية الاولى خمسة وستين الفاً من التونسيين في الجيش الفرنسي قُتل منهم اثنا عشر الفاً .
- ٤ - في عام ١٩٣٤ عمت الضائقة المالية فتظاهر التونسيون وطالبوا بالاصلاّحات التي يمكن ان تنعش البلاد فقابلهم رجال الأمن بالسلاح فجرح عدد كبير من المتظاهرين وقتل فريق آخر . وقد اعلنت السلطة الفرنسية الاحكام العرفية في تونس وعطلت الصحف العربية ونفت رؤساء حزب الدستور . ولكن المظاهرات لم تخفّ بل اشتد بعضها حتى تحول الى معارك دموية كما انفق في مدينة بنزرت في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٨ ، وكما نشهد في الوقت الحاضر .
- ٥ - سجلت افضل الاراضي الزراعية باسم الدولة ثم وزعت على الافرنسيين المستوطنين في تونس . وكانت الضرائب التي تجمع من الوطنيين يوزع معظمها على الفرنسيين لمساعدتهم على استعمار البلاد .
- ٦ - يشرف على الادارة التونسية نحو ثلاثين الف موظف ثلاثة ارباعهم من الفرنسيين .

٧ - اما نسبة الاطفال التونسيين الذين يذهبون الى المدارس فتبلغ نحو ١٢,٥ بالمائة مقابل ٨٧,٥ بالمائة من الاطفال الفرنسيين .

٨ - ظلت آمال التونسيين تعلو وتنخفض وتتقلب بحسب تغيير الحكومات الفرنسية بباريس . وفي عام ١٩٣٨ استعد حزب الدستور التونسي لصراع واسع النطاق مع السلطات الفرنسية ، كان من نتائجه ان 'زج' بحوالي الف واطني في السجن . ثم ان السلطة الفرنسية أعلنت حالة الحصار على تونس ، وهي حال تدل المعلومات التي لدينا على انها لم تنته حتى الآن بصورة رسمية ... »^١



هذه بعض الاحوال التي شهدتها الشابي في وطنه تونس فظهر شيء من آثارها في شعره .

(١) راجع القضية التونسية ، الخطاب الثالث ، ص ٢ - ٤ .

٢ - موجز ترجمته

مولده :

ولد ابو القاسم الشابي^١ في بلدة الشايية ، احدى ضواحي مدينة توزر ببلاد الجريد من جنوبي تونس ، يوم الاربعاء في الثالث من شهر صفر سنة ١٣٢٧ الموافق للربيع والعشرين من شهر شباط عام ١٩٠٩^٢ . وفي الشايية نشأ نشأته الاولى . ومن هذه البلدة جاء لقب اسرة الشاعر .

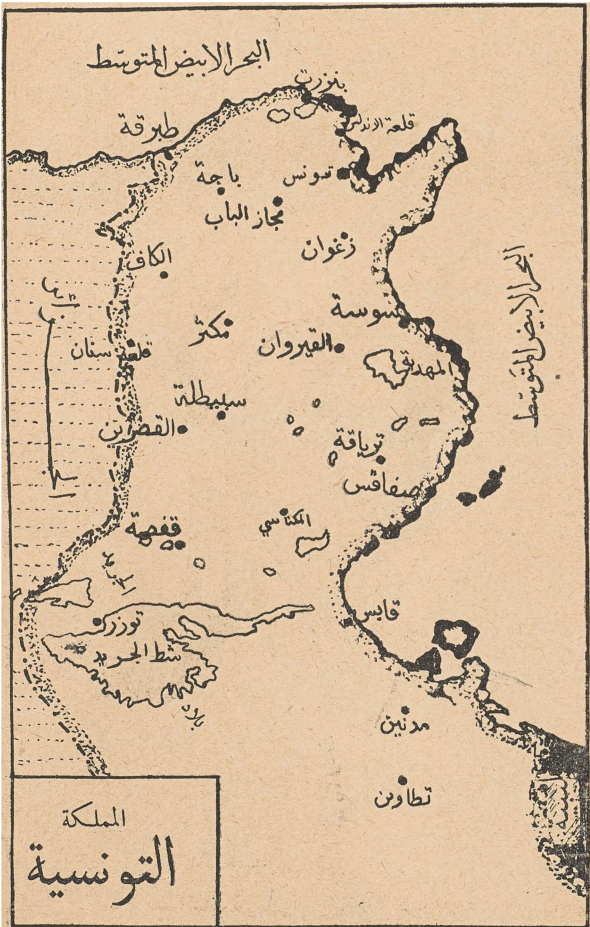
ولما بلغ ابو القاسم الخامسة من عمره سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ادخله ابوه في احد الكتابيب حيث بدأ يتلقى العلوم المألوفة في مثل هذه المدارس كلقراءة والخط والحساب وحفظ القرآن الكريم على الاخص .

وانتقلت اسرة ابي القاسم من الشايية الى قفصة ثم الى زغوان حيث شغل ربهام منصب رئيس المحكمة الشرعية فيهما كليهما . ولم يكتف والد ابي القاسم بما كانت الكتابيب تلقن ابنه فتعهد هو ايضاً ولقنه شيئاً من علوم العربية وشيئاً من سواها حتى بلغ الحادية عشرة من عمره .

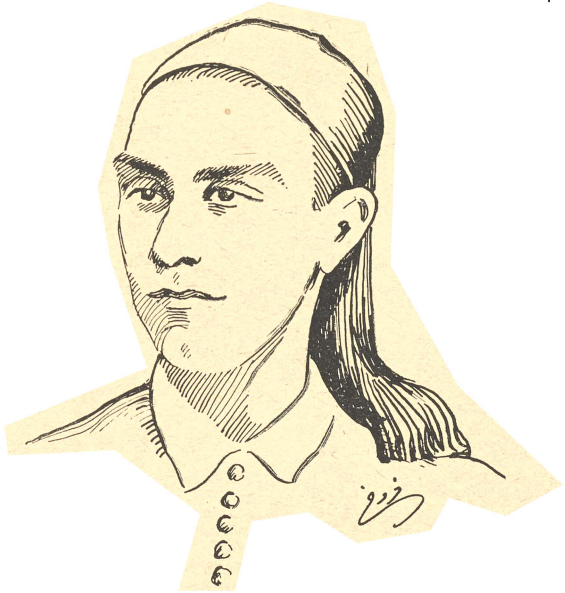
وبعد ان قضى ابو القاسم بضع سنوات في الكتابيب وفي عهدة ابيه في التعليم ارسله ابوه الى تونس العاصمة وادخله الى الجامعة الزيتونية احد المراكز العظمى لعلوم اللغة

(١) الشابي بتشديد الباء وبعدها ياء النسب ، نسبة إلى الشايية .

(٢) راجع : الاسبوع ، العدد ٣١٢ (الاثنين ، ١٣ ربيع الانور - الاول - ١٣٧٢ ، ١ ديسمبر - كانون الاول - ١٩٥٢) ، ص ٢ ، الحاشية الاولى ؛ الادب التونسي ، ص ٢٠٨ ، راجع الشابي ٢٤ .



والدين في العالم الاسلامي . وذلك سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) . هنالك توسع ابو القاسم في العلوم الاسلامية والعلوم العربية ثم تخرج في آخر سنة ١٣٤٥ للهجرة (١٩٢٧ م) حائزاً على شهادة التطويح ^١ . ويبدو ان ابا القاسم لم يكن راضياً عن التعليم في الجامعة الزيتونية ، ولا كان جميع شيوخ الزيتونة راضين عن تطرفه وشذوذه ولا عن شعره ، مع العلم بان الجامعة الزيتونية كانت في ذلك الحين قد ادخلت على منهاج الدراسة فيها شيئاً من العلوم العصرية .



الثاني تليذاً في الجامعة الزيتونية

والظاهر ان ابا القاسم الشابي قد رأى ان شهادة الزيتونة لن تشق له طريق الحياة

(١) الرسالة العدد ٦٧٧ (١٩٤٦) ، ص ٦٩٨ ، الثاني ٢٦ .

الى كسب العيش - وخصوصاً لأن آراءه في الحياة لم تكن تتفق مع آراء شيوخ الجامعة الزيتونية - فأثر ان ينال شهادة مدينة فدخل كلية الحقوق التونسية سنة ١٣٤٦ للهجرة (١٩٢٧ م) .

وأصيب ابو القاسم الشابي في هذه الفترة - في اثناء دراسته للحقوق - بثلاث صدمات عنيفات : زواج خائب وحب دام وموت والده :

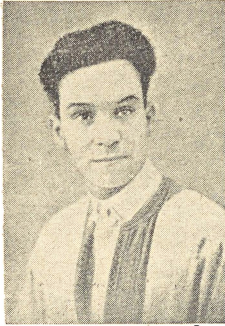
ولعل زواج الشابي كان سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨) ، اي قبيل موت والده وقبل ان يتخرج هو في كلية الحقوق التونسية . ويتضح لنا من دراسة حياته وشعره ان زواجه هذا لم يكن موفقاً . « وأغلب الظن أنه تزوج ارضاءً لوالديه او لأحدهما فقط »^١ . وعلى الرغم من ان الشابي قد رزق من زواجه هذا ولدين فانه لم يكن وادعاً سعيداً في حياته الزوجية .

هذه الحياة الزوجية البائسة اليأس - في احدى نواحيها - دفعت الشابي ، قبل ان يمضي العام الاول على زواجه ، الى تطلب سعادة موهومة في حب فتاة ظن فيها تحقيق احلامه . ولكن هذه الفتاة توفيت وشيكا - في العام الذي احبها فيه - فأذكى ذلك في نفسه الأسى على حاله والنعمة على حوادث الدهر . فكانت الصدمة الثانية في حياته .

وظل الشابي يذكر حبه هذا مدة ثم جعل ينساه او يحمل نفسه على نسيانه . وسرعان ما اطاعته نفسه فتناسى حبه الاول وانتقل الى حب جديد ثم الى آخر فأخر . ويدون لنا شعر الشابي مواقف من الحب توحي بأنه قد اندفع مع عاطفته وراء المرأة لا يلوي على شيء . ولا ريب في ان هذا الاندفاع كان سبباً من الاسباب التي قربت منيته اليه ، مع انه كان يستطيع ان يحيا مع دائه كما عاش غيره مع ادوائهم . ولكن القضاء النافذ وإلقاء نفسه بيده في التهلكة كانا عليه كتاباً موقوتاً .

اما ثالثة تلك الصدمات والكارثة الكبرى فكانت موت والده في اوائل ربيع الثاني من سنة ١٣٤٨ للهجرة (ايلول ١٩٢٩ م) ، قبل ان ينال هو اجازته من كلية الحقوق .

وهكذا فقد ابو القاسم عَضُدُه ثم ألقىَ على عاتقه عبء اسرتين ليعولهما : اسرته هو واسرة ابيه ، بينما كان هو نفسه لا يزال في حاجة الى من يعوله ويساعده على اتمام دراسته . ومع ذلك فقد استطاع الشابي ان يتم دراسته في كلية الحقوق التونسية وان ينال اجازتها في سنة ١٣٤٩ للهجرة (١٩٣٠ م) .



على ان هذا الضنك في المعيشة والقسوة في الايام لم يمنعا الشابي من القيام بنشاط اجتماعي بارز ، فقد كان له فضل ظاهر في تأسيس جمعية الشبان المسلمين والنادي الادبي في تونس العاصمة وفي تأسيس نادي الطلاب في مدينة توزر . ولم يقتصر نشاطه على السعي لتأسيس هذه الجمعيات بل كان من اعضائها العاملين البارزين ^١ .

الشابي بعد خروجه من الجامعة الزيتونية
« عن كتاب الشابي » لأبي القاسم محمد كرو

مرضه :

لا يزال الشريقون ^٢ الى اليوم يحرصون على كتمان ما ينزل بهم من الامراض الوييلة . واذا هم اعترفوا امام الآخرين باصابتهم او اصابة ذويهم باحد هذه الامراض فانهم يكتمون عادة اسم المرض . وعلى هذا الاساس لحق النعموس اسم المرض الذي نزل بالشابي . فمؤلف كتاب الشابي ، ابو القاسم محمد كرو ^٣ ، يقول عن الشابي « انه اصيب بداء تضخم القلب » ، بينما محمد فهمي ، مؤلف الروائع لشعراء الجيل يقول ^٤ : « لقد انشب الداء بصدر الشاعر اظفاره » مما يدل على ان المرض كان مرض السل الرئوي .

(١) راجع الشابي ٢٧ .

(٢) الشريقون كلمة تدل على المشاركة والمشاركة على السواء . اذ الشريقون تعبير يؤتى به عادة في مقابل الغريبين (الاوروبيين والاميركيين) .

(٣) ص ٢٨ .

(٤) الجزء الاول ، ص ٤٣ .

وإياً كان مرض الشابي فانه كان يقتضي علاجاً مستمراً وراحة تامة . ولم تكن احوال الشابي المادية ولا حالته النفسية تمكنه من احتمال نفقات العلاج ولا الاخلاذ الى الراحة التامة . ولذلك كان موته منتظراً في كل حين .

موته :

ثم اشتدت بالشابي عقابيل الداء فلزم الفراش . واخيراً استعصى تمييزه على اهله في بيته فنقل الى المستشفى الايطالي في مدينة تونس فمكث فيه برهة من الزمن . وكان قضاء الله في سابق علمه قد نفذ فتوفي الشابي ليلة الثلاثاء^١ في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ الموافق لليوم التاسع من تشرين الاول عام ١٩٣٤ ، فيكون قد عاش ستاً وعشرين سنة قمرية ونحو خمسة اشهر او خمسة وعشرين عاماً شمسياً ونحو ثمانية اشهر^٢ . وفي اليوم التالي نقل جثمانه الى بلدته الشابية ودفن فيها .

آثاره :

اذا قسنا حياة الشابي بما خلفه من آثاره الشعرية خاصة ادر كنا انه شاعر مكثر، فان له مجاميع شعرية مستقلة متعددة . ألف زين العابدين السنوسي كتاب « الادب التونسي في القرن الرابع عشر (الهجري) »^٣ فأثبت للشابي واحدة وثلاثين قطعة مجموع ابياتها خمسمائة وخمسين بيتاً . وجاء محمد فهمي فالف الروائع لشعراء الجيل^٤ فأثبت للشابي عشر قصائد تبلغ ابياتها ثلاثمائة وثمانية وثلاثين بيتاً . ونلاحظ ان القصائد التي اثبتها محمود فهمي هي غير القصائد التي اثبتها زين العابدين السنوسي . بعدئذ جاء ابو القاسم محمد كرو فألف كتاباً عنوانه « الشابي : حياته - شعره »^٥ اثبت فيه ثمانين عشرة قصيدة من القصائد التي

(١) في الشابي (ص ٣٠) : فجر يوم الثلاثاء .

(٢) راجع الاسبوع ، العدد ٣١٢ ، ص ٢ ، الحاشية الاولى .

(٣) تونس ١٣٤٦ هـ « ١٩٢٧ م » ، ص ٢٠٩ - ٣٥٤ .

(٤) لجنة التأليف والترجمة الحديثة ، مصر « بلا تاريخ » ، ص ٤٥ - ٧٢ .

(٥) منشورات المطبعة العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٥٢ ؛ الطبعة الثانية ١٩٥٤ .

اثبتها زين العابدين السنوسي بلغ مجموع ابياتها نحو اربعمائة بيت ، ثم اثبت القصائد العشر التي كان محمد فهمي قد اختارها ولكن ابياتها جاءت عنده اكثر عدداً اذ بلغ عددها نحو اربعمائة بيت ايضاً . ثم اختار هو اثنتين وعشرين قصيدة مجموع ابياتها نحو خمسمائة وخمسين بيتاً . وهكذا ضمت دراسة ابي القاسم محمد كرو للشابي الفأ وثمانمائة بيت من الشعر في المختارات^١ ولا ريب في ان ديوان الشاعر اكبر حجماً ممن ذكرنا ولكن يظن ان بعض شعره قد فرقه يد الحوادث . ولقد كان الاعتقاد قد ساد زمننا بان ديوانه كله قد ضاع .

وللشابي آثار نثرية مختلفة لم يطبع منها الا كتاب « الخيال الشعري عند العرب »^٢ . ثم له مقالات متفرقة بعضها نشر وبعضها لم ينشر ، كما ان له دراسات وقصصاً ورسائل متفاوتة الموضوعات . والذي يلوح لنا ان مقدار آثاره النثرية وتباين موضوعاتها كلها تدل على انه كان ايضاً كاتباً فياض القريحة .

(١) ص ٩٩ - ٢١٦ . وفي تشرين الاول ١٩٥٤ نشر ابو القاسم محمد كرو كتاباً عنوانه « كفاح الشابي » (بيروت - المكتب التجاري) يبدو انه لا يفهم مختارات غير تلك التي كان قد جمعها في كتابه الاول « الشابي » .

(٢) دار العرب ، تونس ، ١٩٢٩ ، صفحاته ١٤١ (الشابي ٧٩ - ٨٠) .

٣ - عناصر شخصيته

خلق شخصية الشابي العجيبة اربعة عناصر كلها متنافرة . فلما اجتمعت فيه جعلتنا نقف امام شخصية فذة ولكنها مضطربة ؛ وعاجزة ولكنها طموح . هذه العناصر الاربعة الاساسية هي : فقره ومرضه وتبحره في الآداب العربية بينما كان يجهل الادب الاجنبي في اصوله ، ثم حال بلده تونس في البؤس الاجتماعي والاستعمار السياسي على ما رأينا في صورة عصره .

١ - إذا كان والد ابي القاسم الشابي قد ضمن لابنه جميع حاجاته المادية والمعنوية فهذا لا يعني ان الوالد كان غنياً . ثم مات الوالد فتعرض شاعرنا للبؤس وعضه ناب الفقر فجعله يشعر شعوراً صحيحاً بحال معظم التونسيين . فكان شعره من هذه الناحية تعبيراً صادقاً عن حاله وحالهم .

٢ - ومرضُ الشابي ، سواءً أكان قلباً أم سلالاً ، أثر في اتجاهه في الحياة وفي الشعر . وسنجد ان شعره مملوء بالشاؤم وبالنقمة على الناس وعلى أحوالهم . إن المرض يمنع صاحبه التمتع بمسرات الحياة ، بل يمنعه تَبَيُّنَ تلك المسرات . ومع ان مثل هذا الشخص قد يكون له نظرات متفرقة صائبة في الحياة فاننا لا نستطيع ان نقول إن نظراته هذه صورة للحياة . إنها صورة لنفسه هو في معراج الحياة .

يجب ان نفرّق بين الاشياء التي يقولها الرجل بعقله وبين التي يقولها بقلبه . ومع

(١) راجع ترجمته ، على الصفحة ١٦٠ .

الاعتراف بأن ما يقوله بقلبه يكون في العادة شعراً جميلاً فإنه لا يكون في الغالب صحيحاً . ونحن في دراسة الشابي ندرس شعراً ، ولذلك نعني بعنصر الجمال أكثر مما نعني بعنصر الصواب .

٣ - ولا ريب في ان الشابي كان - على قصر عمره - متبحراً في كثير من صنوف العلوم العربية تبحر مطالعة لا تبحر دراسة . اما في اللغة والنحو فشعره لا يدل على انه كان بارعاً فيهما على الرغم من انه كان طالباً بالجامعة الزيتونية . واما الفقه والشرع فليس في شعره ما يدل على التعمق فيهما ولا على اتجاهاً دينياً على الرغم ايضاً من من انه درس في معهد ديني . إن العكس هو الصواب ، فالشابي شاعر - مما يبدو من شعره - قليل الاحتفال بالدين كله .

ولم يجد الشابي في الادب سبيلاً إلا الى ما كتب باللغة العربية - اصيلاً او دخيلاً او منقولاً - اعني بالأصيل آثار ادباء العرب ، وبالذخيل ما قلد اصحابه فيه الادب الاجنبي بتصرف كبير او قليل ، وبالمنقول ما نقل الى العربية عن اللغات المختلفة نقلاً صحيحاً او قريباً من الصحيح . والواقع الذي ينكشف عنه شعر الشابي ان الشابي كان اكثر مطالعة للكتب المنقولة منه للكتب الموضوعة في العربية اصلاً . وأنا - كدارس ادبي - لا أعنى بما يعرفه الاديب المدروس بقدر ما أعنى بظهور آثار علمه في ما يكتب .

على انه غير 'مذكّر' ان الشابي كان ذكياً فأحاط بكثير مما طالعه في عمره القصير . وبما ان الشابي قد توفي قبل ان يتجاوز السادسة والعشرين من عمره فإنه لما توفي كان لا يزال تحت تأثير الكتابات العاطفية الجمحة والاتجاهات الصوفية الشاذة مما يأتلف مع عواطف الشباب . من اجل ذلك كان أثر ادباء المهجر قوياً في بعض شعره .

والشابي كالمفروطي ، كلاهما كان يجهل اللغات الاجنبية جهلاً تاماً . غير ان المفروطي كان أحسن ثقافة في اللغة العربية فكان اسلوبه اصفى وأنقى من شوائب العجمة . بينما الشابي كان أقل ثقافة لغوية وأكثر اغترافاً من الادب الاجنبي المنقول ، فكان اسلوبه - من اجل ذلك - أليّن .

٤ - ولم يكن بإمكان الشابي إلا ان يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم .
ولقد انصف الشابي بلده في شعره فلم يكف بأن يصفه وصف ناقم او راحم فقط، بل كان
يحث قومه على الرقي ويمتئهم بالتأنيح التي يمكن ان يصلوا إليها إذا استيقظوا ونهضوا .
غير انه ايضاً كان في بعض شعره السياسي متشائماً نافضاً كلتا يديه من إمكان الاصلاح او
النهوض . وعندي ان كثيراً من آرائه في هذه الباب كانت تقليداً للشعراء الذين طرقتوا مثل
هذه الموضوعات . وإذا نحن قبلنا ما قاله ابو القاسم محمد كرو^١ من ان الشابي قرأ كثيراً
للمعري وابن الفارض وابن الرومي والحيام ... وجبران وسائر ادباء المهجر ، فانتا لا نعدو
الحق معه في ان نرد كثيراً من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها .

٥

ويبدو مما ذكره بعض الدارسين ان الشابي كان نحيف الجسم ثم زاده المرض ضعفاً
ونحولاً^٢ . اما زين العابدين السنوسي فقصد ان يرسم له صورة روحية حينما قال^٣ :
« لا اعرف الرجل (الشابي) ... إلا إلاماً ولم اقبله إلا مقابلات تكاد تكون « رسمية »
تعرفنا فيها به وتسمعنا فيها اده وكان فيها خجولاً خافت الصوت . حتى إذا سمعنا ما سمعنا
كبر الفتى في اعيننا ورأينا منه جباراً من جابرة الأدب الرائع العتيد » .
وكان متمرداً طموحاً^٤ تنبعث منه روح تدافع عن الحق وتتغنى بالحرية وتحمل على
الاستبداد المادي والروحي حتى ان جميع من فعل ذلك كان يصيح بلسان الشابي^٥ .

(١) الشابي ، ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) ابو القاسم محمد كرو في « الشابي » ص ٢٨ .

(٣) الادب التونسي ٢٠٢ .

(٤) الشابي ، ٣٥ - ٣٧ .

(٥) راجع الاتجاهات الأدبية ٢ ؛ ٩٤ - ٩٥ .

٤ - خصائص شعره

شاعر وجداني :

الشابي شاعر وجداني خالص . وهو على صغر سنه شاعر مكثر مجيد . ومع ان الانسان لا يبلغ أشده عادة إلا في حـد الاربعين من العمر ولا يبدأ نضجه إلا في نحو الخامسة والعشرين ، فان الشابي كان - قبل ان يتوفى في نحو الخامسة والعشرين - قد قال قصائد ومقطوعات بلغ بعضها من النضج مبلغاً كبيراً .

على ان شعر الشابي متفاوت جداً : فيه الضعيف الركيك وفيه القوي المتين ، ثم فيه المعاني المعادة المكرورة وفيه المعاني التي تنعم بقسط وافر من الابتكار - من حيث التعبير على الاقل . اما اذا اردنا ان ننظر الى مجموع شعر الشابي - لا الى قصائده واحدة واحدة - فلا بد لنا من ان نقول بان الشابي كان شاعراً عبقرياً .

وفي شعر الشابي نزعة من التحرر . والتحرر هو اطلاق النفس على سجيتها من قيود العرف السائد في بيئة ما . اما من حيث الدين فالشابي غير متقيد بشيء منه - في شعره . ثم هو ينحو في تشابيه واستعاراته احياناً منحى لا يقره التوحيد او هو زندقة في رأي النقاد القدماء . يتكلم الشابي عن المرأه فيقول مثلاً :

انت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي .
يا ابنة النور ، انني انا وحدي من رأى فيك روعة المعبود .
وحرام عليك ان تسحقي آما ل نفس تصبو لهيش وغبند ،
فالاله العظيم لا يرجم العبد إذا كان في جلال السجود !

ان تشابيه واستعاراته ليس فيها احتياط . وما يقال عن الدين يقال عن « المجون »
الذي نثره الشاعر في عدد من قصائده المتأخرة .

الرومانتيكية في شعر الشابي

نشر الاستاذ الاديب مصطفى رجب سلسلة مقالات في مجلة الاسبوع التونسية^١ عنوانها
« الرومانتيكية والشابي » . وبعد ان ذكر مصطفى رجب ان الرومانتيكية موضوع غامض
استشهد بتعريف للشاعر الافرنسي الفردده موسيه يقول فيه : « المذهب الرومانتيكي هو
النجمة الباكية والريح الصارخة والليله المرتعشة ... وهو الانبعث الذي لم يكن في الحسبان
ولذة مليئة بالتحول، وهو في الوقت نفسه المملوء والمستدير والقطري والهلمي والشرقي الخ »^٢ ،
بما لا يدل على حقيقة هذا المذهب كثيراً او قليلاً .

واختلف مؤرخو الأدب المعاصرون في وضع مقابل لكلمة : « رومانتيكي » فسموها
المذهب الابداعي او الابتداعي او الاتباعي او الوجداني . وإذا نحن درسنا شعر الشعراء
الذي يطلق عليهم في اللغات الاجنبية اسم « رومانتيكيين » ادركنا انهم اشبه ما يكونوا
بشعرائنا المحدثين في العصر العباسي بالاضافة الى الشعراء الجاهليين . ان الشعراء الرومانتيكيين
تركوا المجرى المألوف في الشعر القديم كما فارق الشعراء المحدثون في العصر العباسي
عمود الشعر (الجاهلي) . وبكلمة أوضح : ان الشعراء المحدثين جعلوا ينطقون عن انفسهم
هم ويصورون بيئتهم هم بعد ان كانوا يرون « الشاعرية » في طبع قصائدهم على غرار
الشعر الجاهلي .

والشاعر المحدث يصور بيته هو ويتناول اغراضه وفنونه منها وبما . ان هذه تختلف في
انواعها ودرجاتها من اغراض البيئات السابقة على بيئته فان الشاعر محتاج في التعبير عنها

(١) ابتداء من العدد ٣٦٢ (الاثنين ، ٢١ ربيع الثاني ١٣٧٣ ، و ٢٨ ديسمبر - كانون الاول -

١٩٥٣) .

(٢) الاسبوع العدد ٣٦٢ ، ص ١٣ .

الى الفاظ وتعاير وتشايه غير تلك التي كان يحتاج اليها الشاعر القديم . من اجل ذلك نرى شعر الشعراء المحدثين عند العرب (كشعر الشعراء الروماتيكين في الغرب) يختلف من شعر الذين سبقوهم في الاسلوب ايضاً .

☆

بهذا المعنى كان الشابي شاعراً « روماتيكياً » . وبهذا المعنى يري مصطفى رجب ان الشابي توفر على الموضوعات فوافها حقها من البحث المستفيض - لا من طول النفس كما يقول - ومن العمق والنفوذ الى لب الموضوعات . ومع ان مصطفى رجب يعتقد ان التعمق في الوصف والتحليل اصل من اصول الادب القديم ، فانه يرى انه اكثر شيوعاً في الادب الروماتيكي ، وخصوصاً كما يظهر عند الشابي . وهو يؤكد ذلك تأكيداً كبيراً^١ .

لا ريب في ان الشابي تناول موضوعاته من بيئته وكما يراها هو من خلال نفسه المثقلة بالمرض والحزن ، فعبّر عن كثير من اغراضه تعبيراً شخصياً اكسبها كثيراً من الجدة ، وإن كان قدكرر المعاني وأعاد التراكيب مرات كثيرة . وكذلك نجد في اسلوب الشابي جدة ، ولكن فيه ضعفاً ايضاً . ان الشابي لما حاول ان يجعل شعره صورة لنفسه لم يتخير التأثيرات التي عبر عنها ، بل حاول ان يدون في شعره كل نبضاته وكل خيالاته . ونحن اذ نشكر للشاعر هذه العناية بما كان يجول في نفسه فنستطيع ان نعرف منها نفسية هذا الشاعر معرفة صحيحة ، نرى ان تكرار المعاني في ألفاظ متشابهة يدخل شيئاً من الملل على نفس القارئ . هذا ما نشعر به اذا قرأنا قصيدة « مناجاة » المثبتة في باب « الموضوعات » من فنون شعره :

أنت ، يا شعرُ ، فلذة من فؤادي تنغني وقطعةً من وجودي ،
فان فيها ثلاثة وعشرين بيتاً تبدأ هكذا : فيك ما في جوانحي من حنين ... فيك ما في
خواطري من بلاء ... فيك ما في عوالمي من ظلام ... فيك ما في عوالمي من نجوم ...
فيك ما في عوالمي من ضباب وسراب ويقظة وهجود - فيك ما في طفولتي ... الخ . ان
الظلال المختلفة من المعاني تزيد الشعر جمالاً كما ان الظلال المتنوعة من الالوان تزيد

(١) الاسبوع ، العدد ٣٦٩ ، ص ٦ ؛ العدد ٣٧١ ، ص ٦ .

الصور الزيتية رونقاً . ولكن تلك الظلال إذا زادت في الشعر او في الصور الزيتية تنقلب تراكمًا يسلب الموضوعات الفنية كثيراً من جمالها ورونقها ثم يجردها من تأثيرها المطلوب . وليس في شعر الشابي اثر لثقافة واسعة : إن الرجل يتكلم من قلبه لا من عقله ، وشعره كلام جميل اكثر منه كلاماً مصيباً ، وفيه موسيقى اكثر مما فيه منطقاً متسقاً .

وتتصف قصائد الشابي ومقطوعاته بوحدة الموضوع . ان الشابي يعالج في كل قصيدة من قصائده موضوعاً واحداً إلا ما كان من الموضوعات التي تأتي عادة في الشعر معاً كالغزل والتأمل في الحياة ، او الغزل والطبيعة . على ان بناء القصيدة عنده متخلخل في الأكثر . ان القصيدة موضوع واحد ولكن الايات غير متعاقبة ، بل يمكن تقديم بعضها على بعض او يمكن حذف بعضها او تبديل مكانه من غير ان يختل المعنى ، ذلك لأن الشابي ، كما سيأتي ، كثيرٌ ترديد الألفاظ والتراكيب والمعاني في شعره . فاذا نحن حذفنا بعض الايات من قصائده لم يخل ذلك بالأيات الباقية ، بل ربما اشتد ترابطها فكان لها الايجاز محسناً لها لا شك فيه .

النقمة والتشاؤم

والشابي شاعر ناغم يزعم انه يريد ان يؤدي رسالة ، ولكنه في الحقيقة يحمل معولاً ليهدم به كل شيء : الحياة والناس ، والبلاد والوطن والأمة . وإذا كنا نرى في بعض قصائده املاً او روحاً وطنية او دعوة الى الاصلاح والنهوض فهذه كلها لا تبدل شيئاً من موقفنا : ان المصلح الحقيقي لا يتقلب في آرائه ، وأداء الرسالة يقتضي اتجاهاً واضحاً وثباتاً على مبدأ واحد .

ويطوف على شعر الشابي شيء كثير من الحزن والتشاؤم والحيرة فيشير ذلك شيئاً من الاشفاق في نفس القارئ على الشاعر ، ولا سيما شاعراً مثل الشابي لقي في حياته القصيرة عذاباً حقيقياً جسماً ونفسانياً وروحياً . إن هذا العطف على الشابي يحمل عدداً كبيراً من القراء ومن الدارسين على اعطائه من المقام الادبي اكثر من حقه . على ان هذا

لا يمنع من ان يكون للشابي - كما نرى في مجموع شعره - قصائد رائعة . وعندني ان ديوان الشابي لا يجوز ان ينشر كاملاً بل يحسن ان ننشر منه مختارات فقط .

أثر الادب المهجري

ومع العلم اليقين بان الشابي قرأ كثيراً من دوواين الشعراء العرب - كما يبدو من شعره - فانه كان معجباً بشعراء المهجر امثال جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة وايليا ابي ماضي^١ . وليس من المستغرب ابداً ان يكون الشابي اشعر من الذين قلدهم . ان ابا القاسم محمد كرو يقول في كتابه الشابي^٢: «غير ان الشابي كان اعمق من جبران واصدق تصويراً... وهو يمتاز (من ادباء المهجر) بدقة بالغة في تعبيره وبراعة فائقة في تصويره» . وارىد أنا ان ابنه على نقطة واحدة هي ان هذا الذي ذكره محمد كرو عن الشابي والادب المهجري ينطبق على ادباء المهجر الشمالي في الولايات المتحدة - كجبران ونعيمة وابي ماضي ، اكثر من انطباقه على ادباء المهجر الجنوبي - في البرازيل - كالشاعر القروي ورشيد سليم الخوري مثلاً^٣ . فالشابي شاعراً خيراً من جبران ، بلا ريب ، ولعله في قصائده المختارة يتقدم ايضاً على ابي ماضي . اما نعيمة فلا اعلم اذا كان شاعراً . هذا مع العلم باننا نوازن هنا بين شاعر ما وافق سببه على النضج وبين شعراء استنفدوا نضجهم كله في اشعارهم . ولقد اكتسب الشابي من الادب المهجري ضعفاً في التركيب واغراقاً في الرمز وشيئاً من التشاؤم والصوفية السلبية . فمن الرمز قوله :

فاذرني يا مقلة الليل الدراري عبرات

فوق قلبي فهو قد ودع أوجاع الحياة

-
- (١) راجع نقداً لديوان الشاعر القروي للاستاذ عارف النكدي في مجلة الجمع العلمي العربي ، دمشق ، ٢٩ : ٣ (١ تموز ١٩٥٤ = ٢٩ شوال ١٣٧٣) ، ص ٤٣٢ - ٢٣٦ .
- (٢) راجع مجوناً مفصلة في خصائص شعر جبران في « الامالي » السنة الاولى : نظم جبران ٣٥ : ٢٨-٢٨ ، خيال جبران ٣٦ : ١٨-١٩ ؛ ثم ٣٨ : ٢-٥ ؛ ٤٢ : ٢-٦ ؛ ٤٥ : ٩-١٣ .
- (٣) الشابي ٢٦ ، ٥٠ - ٥٨ .
- (٤) كرو ، الشابي : حياته - شعره ، ٥٤ ، ٥٨ ، راجع ٥٧ .

واغسله
بدموع الفجر من أكواب زهر الزنبق
وادفنيه بجلال في خفاف الشفق

عنصر الدين

وإذا نحن تأملنا بيئة الشابي العامة في تونس ثم بيئته الخاصة في الجامعة الزيتونية عجبنا لغياب الأثر الديني في شعره غياباً تاماً. إن أول ما نلاحظه إن الألفاظ الدينية قد خسرت في شعر الشابي قدسيته، فالكلمات المعروفة في الدين: الله والنبي والصلاة والجحيم لم يبق لها في شعر الشابي ما يتصل بها عادة من الدلالة على مسميات معينة، بل أصبحت كلمات عامة كسائر الألفاظ القاموسية الدائرة في الاستعمال اليومي:

- لتعسِ الروى شاء الإله وجوده فكان لهم جهلٌ وكان لهم فهم^١
— صانكن الإله من ظلمة الرو ح ومن ضلة الضمير العنيد^٢
— تغرد كالطير أين اندفعت وتشدو كما شاء وحي الإله^٣
— كذا صاغك الله يا ابن الوجود وألقنك في الكون هذي الحياة
— إلى النور فالنور عذبٌ جميل إلى النور فالنور ظل الإله
— ورق نشيد الحياة المقدس في هيكل حالم قد سحر^٤
— وهي أنجيله الجميل فصدقه وإلا فللغرام جحيمه^٥
— أيها الليل، يا أبا البؤس والمهول وباهيكل الزمان الرهيب^٦،
— فيك تجشو عرائسُ الأمل العذب تصلي بصوتها المحبوب.

على أن الله وحده قد ظل له في قلب الشابي رهبةً قدسيةً ما. إن الشابي، وأن كان قد

(١) الشابي ١٢٧ .

(٢) » ١٤٨ .

(٣) » ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) » ١٥٥ .

(٥) » ١٦١ .

(٦) » ١٢١ .

ادار ظهره للدين ، لم يكفر بالله ولم يكن زنديقاً ، بل ظل له شيء من الايمان « بالعظيم
المجهول » (الشابي ١١٢) :

إن من أصغى الى صوت المنون
وصدى الأحداث ،
ليس تستهويه ألحان الطيور
- بين ازهار الربيع الساحرة
وابتسامات الحياة الساخرة -
عن جلال الله

اما في المقطعين التاليين فزى ان الشابي نفسه قد تحلل من مدلول الالفاظ الديني
تحللاً تاماً ورفع المحبوب الى مكان الالهية او انزل الله الى درك المحبوب المادي
(الشابي ٢١٥) :

في فؤادي الرحيبُ معبدٌ للجبال
شيدته الحياةُ بالرؤى والحِمال
قتلوت الصلاةُ في خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأتُ الشموعُ

واشد ايغالاً في التحلل من ذلك ما نجده في قصيدته « صلوات في هيكلك الحب » .
قال يخاطب محبته ويقيمها مقام الالهية في القدس والعبادة وفي القدرة والارادة وفي
الشفاعة والزلفى (الشابي ١٥٧ - ١٥٩) :

أنت أنشودة الأناشيد غتًا
أنت قدسي ومعبدي وصباحي
يا أبنة النور ، إنني انا وحدي
فدعيني اعيش في ظلك العذ
عيشة الناسك البتول يتاجي الـ
وامنحيني السلام والفرح الرو
ك إله الغناء رب القصيد .
وربيعي ونشوتي وخلودي .
من رأى فيك روعة المعبود .
ب وفي قرب حسنك المعبود .
رب في نشوة الدهول الشديد .
حي ، يا ضوء فجرى المنشود ؛

وارحميني فقد تهدمت في كؤُ
 نِ من اليأس والظلام مَشِيد .
 فحرامٌ عليك أن تسحقي آ
 مالَ نفس تصبو لعيش رغيد .
 منك ترجو سعادة لم تجدها
 في حياة الورى وسحر الوجود،
 فالاله العظيم لا يرجم العبد
 إذ كان في جلال السجود!

على ان الشابى قد استبقى من التراث الدينى قضية القضاء والقدر وحدها ، وهذا امر بين السبب . ان الشابى الذى منى بمرض لا يرجى منه شفاء لم يستطع الثورة على حاله الطبيعية المرصية كما ثار على حاله النفسية والاجتماعية . انه كان يظن ان كل شيء في العالم يمكن ان يتبدل اذا شاءت الارادة الفردية او الشعبية ان تبدله . ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبيعية ورسف في قيود المرض ادرك ان « هذه الارادة » عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الاول فعاد يُطمئن نفسه بصحة القدر . ألا يرى القارىء في الايات التالية إذعاناً للقضاء والقدر ورضى بما جرى به القلم الازلي ؟ إليك الآن هذه الايات :

- لتعسِ الورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم^١ .
- ما لي تعذبني الحيا ة كَأَنِّي خَلَقْتُ غَرِيبًا^٢ !
- وإذا سألت : لمَ الوجود دُ و كَلُّهُ مٌ مَذِيبٌ ؟
- قالت^٣ : نواميس السما ة قضت وما لك من هروب !

وإذا كان الشابى احياناً يحاول ان يتمرد على نتائج القضاء والقدر فانه مقتنع بأن هذه النتائج مردها الى امر اقره القدر^٤ :

- سأعيش رُخْمَ الداءِ والأعداءِ كالنسر فوق القمة الشَّامِءِ ...
- وأقول للقدر الذي لا ينثني عن حرب آمالي بكل بلاء ...

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود فيستسلم للقضاء والقدر ، اذ لا يجد بداً من الاستسلام

(١) الشابى ١٢٧ .

(٢) « ٢٠٣ .

(٣) الضمير في « قلت » يعود على « الحياة » .

(٤) الشابى ٢١١ .

ما دام كان شيء يجري هذا المجرى المكتوب . والقضاء والقدر عند الشابي لا يكون في الخير ابداً بل في الشر دائماً^١ :

لا تحاول ان تنكر الشجو، إني قد خبّرتُ الحياةُ خبيرُ أديب :
كن كما شامت السماء كئيباً ؛ أي شيء يسرُّ نفس الأديب ؟
إنما الناس في الحياة طيورٌ قد رماها القضاء بوادٍ رهيب ،
يعصف الهولُ في جوانبه السور دِ فيقضي على صدى العندليب .

ان استسلام الشابي للقضاء والقدر لم يطلع الشابي على سر القضاء والقدر ولا حل له لغز الحياة ، بل ألقاه في الحيرة ودلّاه في اليأس فتراه يقول^٢ :

أرى هيكلا الأيام يعلو مشيداً ولا بد أن يأتي على رأسه الهدمُ .
فيصبح ما قد شيّد الله للورى خراباً كأن الكل في أمسه وهم .
لتعس الورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم .

وهذه المقطوعة سبعة آيات اثبتت بتمامها في باب التأمل في الحياة من فنون شعر الشابي :

اما في ما يتعلق بالدين خاصة في اشكاله المختلفة فموقف الشابي واضح لا يحتاج الى تعليق^٣ .

ملء الدهر بالخداع ، فكم قد ضلّل الناس من إمامٍ وقسّ !

المئاتة والركاكة :

واذا كان الشابي خريج الجامعة الزيتونية في تونس ، واذا كان لا يعرف الا اللغة العربية ، فيجب ان تكون لغته متينة واسلوبه على عمود الشعر العربي . ونحن نلمح ذلك

(١) الشابي ١٢٣ .

(٢) » ١٢٧ .

(٣) » ١٠٩ .

كله في شعر الشابي ، فللشابي قصائد تجري على اسلوب قديم متين كقوله مثلاً^١ :

الا أيها الدهرُ المُصعَّرُ خدَّةً ، رُوَيْدَكَ إن الدهرَ يبني ويهدمُ .

وكذلك نرى في شعره مقدرة لغوية لا شك فيها وذوقاً لغوياً ايضاً . ولكن الشابي سرعان ما أغرق في الرمز وتوسع في الاوصاف الخيالية ورام التعبير عن هواجس النفس الغامضة المكبوتة فاضطر الى ان يلائم بين لغته وبين غموضه فركت لغته احياناً في طوره كليهما - قبل بلوغ العشرين وبعد بلوغها . فمن التعبير عن هواجس نفسه الغامضة قوله^٢ :

أصيخي فما بين أعشار قلبي يرف صدى نوحك الخافت
معيداً على مهجتي بحفيف^٣ جناحيه همس الردى الصامت

وبما ان الرمز مبني في الاصل على الاستعارة، فان الشابي 'مغرق' في استعاراته كثيراً، واستعاراته بعيدة احياناً وسمجة احياناً آخر كما يتفق في استعارات كل من يبعد في تطلب اوجه الشبه . من ذلك مثلاً قوله (الشابي ١٠٨) :

وإن قبيلتك شفاهُ الحياةِ وصبت بفيك الرُّضابَ المريرُ ،
فقد صفت مهجتي الداميةُ بنعل الشتاء أكفُ الدهورُ .

واحياناً لا تكون الاستعارة سمجة ضرورة ، ولكنها تكون بعيدة وجه الشبه ومخالفة للوضع اللغوي ايضاً كقوله (الشابي ١٢٥) :

فأين الأمانى وألحانها ؟ وأين الكؤوس وأين الشراب ؟
لقد سحقتها أكفُ الظلام ، وقد رشفتها شفاه السراب !

على ان مما يحسن احياناً في الرمز ان يبعد الشاعر في الاستعارة ويوغل في الاغراب مع وضوح المعنى فيعتذر النقاد بعد استعاراته لاصابة الرمز فيها . من هذا الباب قول الشابي (ص ١١٧) :

(١) سنوي ٢١٢ ، كرو ١٠٢ .

(٢) سنوي ٢٣٥ - ٢٣٦ ، كرو ١٠٨ .

(٣) في كرو : خفق مكان حفيف ، وهو خطأ مطبعي في الاغلب .

مات قلبي

.....

فانديبه

واغسله

بدموع الفجر من أكد واب زهر الزنبق

وادفيه يجلال في ضفاف الشفق

ليرى وجه الحبيب

ويتبع هذا الغموض في المعاني والايغال في الاستعارة ركاكة ظاهرة هي التي كنت أودُّ

ان تغيب من ديوان الشابي بحذف عدمن القصائد او المقاطع على الاقل . من ذلك مثلاً :

إن السكينة روح في الليل ليست نظام

والروح شعلة نور من فوق كل نظام

لا تنظفي بريح ال إرهاب أو بالحسام

بل قد يعج لظاها سيلاً ويطغى الضرام

كل البلايا جميعاً تفتى ويجيا السلام

والظلم سبة عار لا يرتضيه الكرام

وهناك اخطاء لغوية وصرفية ونحوية نشأت بلا ريب من قلة مبالاة الشابي بالمجرى

اللغوي الصحيح حينما اراد ان يسوق آراءه . على ان هذه لا يجوز ان تصدر عن شاعر

صغير فضلاً عن شاعر عبقرى خريج الجامعة الزيتونية. وبما ان حصر هذه الاخطاء وتبويبها

يقتضي وقتاً طويلاً وصفحات كثيرة فقد رأيت ان اسرد بعضها سرداً للدلالة على ما اردته

لا لتعليه وتأويله ٢ :

فروح مكان فرح ٩٩

لأي (مستعمله بمعنى برهة) ١٠٣

لم تبقي لي الحياة (باثبات الياء في «تبقى» بعد الجازم) ١١٠

(١) سنوسي ٢٣٩-٢٤٠ ، الشابي ١١٥ .

(٢) حباً بالابحاز سأورد الخطأ متبوعاً برقم هو رقم الصفحة من كتاب الشابي لمحمد كرو .

لا تعنيني (كذا) اغاريد الصباح ، بلبل الأفراح ١١٢

ولما تجاوزت (مكان ولما تجاوز) ١٢٥

عاري الاملود ١٤٤

من حضيض وهيد ١٤٤

الغاب (مستعملة على انها اسم مفرد) ١٥٣ واماكن اخرى .

التعيس (مكان التعس) - ملاك (يقصد ملك بفتح اللام) - السلام العميد ١٥٦

يدوي مكان 'يدوي' ١٥٦ واماكن اخرى .

الحريف العتيد ١٥٩

بسحر يهيمه مكان 'يهيمه او تهيمه' ١٦٠

نشيد عكوي (يقصد : 'علوي) ١٦٦

السنين (بكسر آخره) ١٦٧ ، ١٦٨

لم 'يلد' (مكان لم يولد) ١٧٥

تبلي في اناملها اساه (مكان : بأناملها) ١٨٠

زهور (مكان ازهار) ترد كثيراً

ومن السيئات التي اكتسبها الشابي من اعجابه بالشعر المهجري الشمالي كثرة التعداد والتكرار والاعادة للالفاظ والتراكيب والمعاني ، مما ينفر احياناً في الذوق الادبي ، على الرغم من ان بعض الترداد يفيد شيئاً من الموسيقى ، يمثل ذلك قوله ١ :

فنسير نند لهونا المعبود في كل الأمور .

ونظل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير :

بالسائل الأعمى وبالمتعوه والشيخ الكبير ،

بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعه ، بالخير ،

بالعشب ، بالفن المنور ، بالسنابل ، بالسفير (؟) ،

بالرمل ، بالصخر المحطم ، بالجداول ، بالغير .

واللهو والعبث البريء الحلو مطمحنا الأخير ...

(١) الشابي ١٨٥-١٨٦ .

والشابي مغرم بالفاظ معينة يكررها في شعره بلا سأم منها . من هذه الالفاظ :
 الحياة - جميل - الريح - الغاب - النشيد - زهر - ثمر - كون - وجود الخ . لقد كرر
 لفظة الحياة مائتي مرة ، ولفظة جميل نحو سبعين مرة . وكثيراً ما ترد كلمة الحياة مثلاً مراراً
 كثيرة في القصيدة الواحدة ومرتين في البيت الواحد او مرات في الايات المتتالية .

التوشيح

وشعر الشابي من حيث النظم قصيد او موشح . والعدد الاكبر من اشعاره قصائد، ونحو:
 خمسيها موشحات .

والمقصود بالموشح اشطر من الشعر ترتب ترتيباً مخصوصاً متساوقاً مع تعدد في القوافي .
 ويمكن ان يأتي الموشح على انواع مختلفة من الترتيب . ويدخل في باب التوشيح عند الشابي
 « الرباعيات » وهي - هنا - قصائد مفصلة بيتين بيتين بنى الشاعر كل بيتين منها على روي
 واحد ، من ذلك قوله ¹ :

بالأمس قد كانت حيا	في كالماء الباسمه
واليوم قد أمست كأء	ساق الكهوف الراجمه
قد كان لي ما بين أح	لامي الجميلة جدول
يجري به ماء المحبّة	طاهراً يتسلسل الخ

واحيانا يجعل الشابي رباعياته مزدوجة ، اي تتألف من اربعة ايات ، على روي واحد
 او على رويين متلازمين او مفروقين . اما رباعياته المزدوجة على روي واحد فمثلها « من
 اغاني الرعاة » :

أقبل الصبح يغني	للحياة الناعسة
والربي تحلم في ظلّ	الفصون المائسه
والصبا ترقص أو	راق الزهور اليابسه
وتهادى النور في تد	ك الفجاج الدامسة

(١) سنوي ٢٥١ ، الشابي ١٢٨ .

أقبل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهاءً
فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحيّ وغنى للحياء
فأفريقي يا خرافي وهامي يا شباه الخ

وأما الرباعيات التي تأتي على رويين اثنين متلازمين أو مفروقين فمثلها في مقطوعة
« في ظل وادي الموت ». والغريب ان الشابي جاء في هذه المقطوعة بثلاثة انواع من ترتيب
الروي فتأملها في « المجاميع الاول والثاني والخامس » التي اثبتتها فيما يلي :

نحن نمشي وحوّلنا هذه الأكو وان نمشي لكن لأية غاية ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس وهذا الربيع ينفخ نايه .
نحن نتلو رواية الكون لهو ت ولكن ماذا ختام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البدايه .

*

وتغشّى الضباب نفسي فصاحت في ملالٍ مر : الى أين أمشي .
قلت سيرني مع الحياة فقالت : ماجنيننا - توي - من السير أمس .
فتهافتُ كالمشميم ، على الأر ض وناديت : أين يا قلب رفشي ؟
هاته ، علّني اخط ضربي في سكون الدجى وأدفن نفسي !

*

ثم ماذا ؟ هذا انا صرت في الدن. يا بعيداً عن لهوها وغناها ،
في ظلام الفناء أدفن أيتا مي ولا أستطيع حتى بكها
وزهور الحياة تهوي بصمتٍ محزن مضجر على قدميا .
جف سحر الحياة ، يا قلبي الباكبي ، فهيتا نجرب الموت هيا !

فالمجموع لإل اول قوافيه : يه - يه - يه - يه

اي أ - أ - أ - أ

*

والمجموع الثاني قوافيه : شي - س - شي - سي

اي أ - ب - أ - ب

*

والمجموع الثالث قوافيه : اها - اها - ميّا - ها

اي أ - ب - أ - ب

وربما جاءت مقطوعات الشابي ثلاثيات كل مجموع منها في ثلاثة ابيات على

روي مستقل :

ألا أيها الظالم المستبدُّ حبيبُ الفناء عدوُّ الحياة ،
سخرتْ بأناتٍ شعبَ ضعيفٍ وكفك مخضوبة من دماء .
وعشتِ تدنس سحر الوجود وتبذر شوك الأسي في رباه .

●

رويدك لا يخذل عنك الربيعُ وصحو الفضاء وضوء الصباحُ
ففي الأفق الرحب هول الظلامِ وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزّ أنْ بنووح الضعيفِ فمن يبذر الشوك يجنّ الجراح

●

تأملْ هنالك أنسى حصّدتْ رؤوس الوري وزهور الأملِ
ورويت بالدم قلب الترابِ وأشربتّه الدمعَ حتى تميل
سبجرفك السيلُ سيلُ الدماءِ ويأكلك العاصف المشتعلُ

اما الموشحات عند الشابي فهي قليلة لا تزيد على ست^١ فيما بين ايدينا من شعره ،
وان كان الملموح من قول الاستاذ المقديسي : « اما اليوم فهناك اتجاه عام الى احيائه
(احياء التوشيح) والتفنن فيه . . . وقد استساغته المجددون في جميع الاقطار فشاع حتى بلغ

(١) ابن خلدون يسمي الابيات المبنية على التوشيح موشحه (المقدمة ص ٨٥٤ السطر ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،

١٩ ، ص ٨٥ السطر ١٦ ، ص ٨٦ السطر ٣) .

(٢) الاتجاهات الادبية ١٩٣٠ .

المناطق البعيدة عن مركز النهضة الادبية الحديثة كتونس مثلاً والحجاز . في الاولى (تونس) تجده في شعر حسين الجزيري وسعيد ابي بكر ومحمد الفاتزواي القاسم الشابي» مما يدل على كثرته في الشعر الحديث ومنه شعر الشابي .

وبينما تكون الرباعية من بحر واحد يمكن ان يكون الموشح من ابحر مختلفة. ويجب ان يلتزم الموشح القوافي في المجاميع المتعددة التزاماً دقيقاً. وفي ما يلي جميع نماذج التوشيح عند الشابي مع الاملاء الى ما فيها من الشواذ:

(النموذج الأول)

اسكتي يا جراح^١ واسكتي يا شجون^٢
مات عهد التوايح^٣ وزمان الجنون^٤
وأطلّ الصبح^٥ من وراء القرون^٦

في فجاج الهوى قد دفنت الألم^٧
ونثرت الدموع^٨ لرياح العدم^٩
وانخذت الحياة^{١٠} معزفاً للنغم^{١١}
أنفستني عليه^{١٢} في رحاب الزمان^{١٣}

وأذبت الأسي^{١٤} في جمال الوجود^{١٥}
ودحوت^{١٦} الفؤاد^{١٧} واحدة للنشيد^{١٨}
والضياء والظلال^{١٩} والشذا والورود^{٢٠}
والجوى والشباب^{٢١} والمنى والحنان^{٢٢}

وهناك في هذا الموشح مجموعان آخران مثل هذا يتقدمهما المطلع «اسكتي يا جراح». ونلاحظ هنا ان الشابي قيد اشطر المطلع واعجاز المجاميع (الاشطر المتأخرة) ولكن اطلق

(١) المجموع في الموشح يسمى بيتاً (مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٣ الاسطر الاربعة الاخيرة .)

الصدر (الاشطر المتقدمة) من القافية . ثم انه اجاز لنفسه شيئاً آخر : لقد سكن او اخر
الصدر مع ان التسكين لا يجوز اذا لم تكن الايات مصرعة او موشحة .

(النموذج الثاني)

كان في قلبي فجر ونجومٌ وبحار لا نفسيتها الغيومُ
وأناشيدُ وأطيّارٌ نجومٌ وربيع مشرق حلوجمائلُ
كان في قلبي صباح وإيابةٌ^١ وابتسامات ولكن وأساءه
آه ما أهول إعصار الحياةُ آه ما أشقى قلوب الناس آه
كان في قلبي فجر ونجومٌ
فإذا الكل ظلام وسديم
كان في قلبي فجر ونجوم

هذا الموشح ثلاثة مجاميع مقسومة قسمين : قسماً يتألف من المجموع الاول وقسماً
يتألف من المجموعين الباقيين .

اما في المجموع الاول فان الشاعر صرّع البيت الاول (- م - م) ثم اتبع به صدر
البيت الثاني واطلق عجزه (- م - ل) . بعدئذ أتى بيتين جعل لصدرهما رويّاً (ة)
ولعجزها رويّاً آخر (ه) . أما الاشطر الثلاثة التي تؤلف قفلة للمجموع فقد عاد بها الشاعر
الى قافية البيت الاول (م) .

وبدل الشاعر في القسم الثاني ترتيب قوافيه فجعل المجموعين الثاني والثالث يجريان
مجري واحداً . ففي المجموع الثاني بنى الشاعر صدر الايات الاربعة على روي واحد (ح)
وعجزها على روي آخر (د) . ثم جاء الى الاشطر الثلاثة فاتبع الشطرين الاول والثالث
بصدر الايات الاربعة (ح) واتبع الشطر الثاني بعجزها (د) :

يا ابن امي ، أتري ابن الصباحُ قد تفضي العمر والفجر بعيدُ
وطفي الوادي بمشبوب الرياح وانقضت أنشودة الفصل السعيد

(١) الايابة : نور الشمس .

أين نائي ، هل ترامته الرياح ؟ والأغاني ، أين محراب السجود
خبروا قلبي فما أفسى الجراح ! كيف طاشت نشوة العيش الحميد
يا ابن أمي ، أترى أين الصباح ؟
أوراء البحر أم خلف الوجود ؟
يا ابن أمي ، أترى أين الصباح ؟

والمجموع الثالث يتبع المجموع الثاني في الترتيب ويختلف طبعاً في الروي هكذا :

ليت شعري ، هل ستسليني الغداة^١ وتعزيني عن الأمس الفقيد^٢
وتريني ان أفرح الحياة زمر^٣ تضي وأفواج تمود^٤
فإذا قلبي صباح وإياة^٥ وإذا أحلامي الأولى ورود
وإذا الشجرور حلو النغمات^٦ وإذا الغاب ضياء ونشيد
ليت شعري هل تعزيني الغداة^٧ ؟
أم ستساني وتبقيني وحييد^٨ ؟
ليت شعري هل ستسليني الحياة^٩ ؟

(النموذج الثالث)

وللشابي موشح على النمط التالي :

على ساحل البحر حيث يضحُّ صراخُ الصباح ونوح المساء
تنهدتُ من مهجة أترعت بدمع الشقاء وشوك الأسي
فضاع التنهد في الضجة
بما في ثناياه من لوعة
فسرت وناديت ، يا أمُّ ، هيا
إليّ فقد سئمتني الحياة

(١) الإياة (بفتح الهمزة وكسرهما) : نور الشمس .

فترتيب هذا الموشح هكذا :

أ ————— ب ١

ب ————— ج

د —————

د —————

هـ —————

و —————

ويأتي في هذه الموشح بعد المجموع الاول بمجموعان آخران يشبهانه في ترتيب القوافي .
ولكن نلاحظ ان الشاعر يعيد في الشطرين الاخيرين من قفلة المجموع الثاني قافيتي
الشطرين الاخيرين من قفلة المجموع الاول. اما في المجموع الثالث فان القفلة مؤلفة من
شطرين فقط يقابلان الشطرين الاولين في قفلة المجموع الاول والمجموع الثاني .

(النموذج الرابع)

ومن موشحات الشابي موشح جميل ذو ترتيب موسيقي مؤلف من ستة مجاميع ،
ترتيبه كما يلي :

ليت شعري

أي طير

يسمع الأحران تبكي بين أحشاء الكئيب

ثم لا يتلو على الفجر ر أغاريد النجيب

بجشوع واكتئاب ؟

وترتيب الاشطر في هذا الموشح مطرد في مجاميعه الستة . ولكن القوافي تختلف كثيراً .
وهذا الموشح موجود في هذه الدراسة فليرجع اليه في مكانه ٢ .

(١) هذه الأحرف ليست القوافي ؛ ولكنها رموز دالة عليها .

(٢) ص ٢٢١

(النموذج الخامس)

وكذلك للشابي نوع آخر من التوشيح مؤلف كل مجموع منه من بيتين فقط . 'قسّم كل بيت منهما قسمين احدهما شطر كامل من بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن) . والشطران التامان من البيتين مبنيان على روي واحد ، كما ان الجزئين مبنيان على روي واحد آخر . وذلك مطرد في المجاميع الخمسة التي يتألف منها هذا الموشح ، على الصورة التالية :

رُفرت في 'دجّية' الابل الحزين زفرة الأحلام
فوق سرب من غمامات الشجون ماؤها الآلام

(النموذج السادس)

ويلفت النظر ان للشابي موشحاً مؤلفاً من سبع مجاميع مبنية على ترتيب واحد ولكنها كلها مطلقة من قيود القافية :

حطّمت كفّ الأسي قينارتي
في يد الأحلام
ففضت صمتاً أناشيد الغرام
بين أزهار الحريف الذابيه
وتلاشت في سكون الاكتئاب
كصدى الغرّيد

والغريب ان الشابي اطلق جميع القوافي في هذه الموشح ، الا انه طابق بين شطرين فقط من كل مجموع في القافية ، غير ان المطابقة جاءت في كل مجموع في مكان مغاير لكل ما عداها . فالمجموع في هذا الموشح مؤلف من ستة اشطر ، تقع المطابقة في اشطرها كما يلي :
في المجموع الاول : بين الشطرين الثاني والثالث .

مات قلبي

.....

فانديبه

واغسله

بدموع الفجر من أكد واب زهر الزنبق

وادفيه يجلال في ضفاف الشفق

ليرى وجه الحبيب

ويتبع هذا الغموض في المعاني والايغال في الاستعارة ركافة ظاهرة هي التي كنت أودُّ
ان تغيب من ديوان الشابي بحذف عدد من القصائد او المقاطع على الاقل . من ذلك مثلاً:

إن السكينة روح في الليل ليست نظام

والروح شعلة نور من فوق كل نظام

لا تنظفي بريح ال إرهاب أو بالحسام

بل قد يعرج لظاها سيلاً ويطفى الضرام

كل البلايا جميعاً تفتى ويجيا السلام

والظلم سبة عار لا يرتضيه الكرام

وهناك اخطاء لغوية وصرفية ونحوية نشأت بلا ريب من قلة مبالاة الشابي بالمجرى
اللغوي الصحيح حينما اراد ان يسوق آراءه . على ان هذه لا يجوز ان تصدر عن شاعر
صغير فضلاً عن شاعر عبقرى خريج الجامعة الزيتونية. وبما ان حصر هذه الاخطاء وتبويبها
يقتضي وقتاً طويلاً وصفحات كثيرة فقد رأيت ان اسرد بعضها سرداً للدلالة على ما اردته
لا لتعليه وتأويله^٢:

فروح مكان فرح ٩٩

لأي (مستعمله بمعنى برهة) . ١٠٣

لم تبقي لي الحياة (باثبات الباء في «تبقي» بعد الجازم) ١١٠

(١) سنوي ٢٣٩-٢٤٠ ، الشابي ١١٥ .

(٢) حباً بالابحاز سأورد الخطأ متبوعاً برقم هو رقم الصفحة من كتاب الشابي لمحمد كرو .

لا تعني (كذا) اغاريد الصباح ، بلبل الأفراح ١١٢

ولما تجاوزت (مكان ولما تجاوز) ١٢٥

عاري الاملود ١٤٤

من حضيض وهيد ١٤٤

الغاب (مستعملة على انها اسم مفرد) ١٥٣ واماكن اخرى .

التعيس (مكان التعس) - ملاك (يقصد ملك بفتح اللام) - السلام العميد ١٥٦

يدوي مكان 'يدوي' ١٥٦ وأماكن اخرى .

الحريف العتيد ١٥٩

بسحر يهيمه مكان 'يهيمه او تهيمه' ١٦٠

نشيد عكوي (يقصد : 'علوي) ١٦٦

السنين (بكسر آخره) ١٦٧ ، ١٦٨

لم 'يلد' (مكان لم يولد) ١٧٥

تبلي في اناملها اساه (مكان : بأناملها) ١٨٠

زهور (مكان ازهار) ترد كثيراً

ومن السيئات التي اكتسبها الشابي من اعجابه بالشعر المهجري الشمالي كثرة التعداد والتكرار والاعادة للالفاظ والتراكيب والمعاني ، مما ينفر احياناً في الذوق الادبي ، على الرغم من ان بعض الترداد يفيد شيئاً من الموسيقى ، يمثل ذلك قوله ١ :

فنسير نشد لهونا المعبود في كل الأمور .

ونظل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير :

بالسائل الأعمى وبالمعتوه والشيخ الكبير ،

بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعة ، بالخمير ،

بالعشب ، بالفن المنور ، بالسنابل ، بالسفير (؟) ،

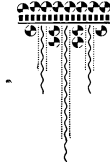
بالرمل ، بالصخر المحطم ، بالجداول ، بالغرير .

واللهو والعبث البريء الحلو مطمحنا الأخير ...

(١) الشابي ١٨٥-١٨٦ .

٥ - فنونه

برع الشابي في فنون الشعر الوجدانية فله غزل كثير ونسيب ، وله شيء من الرثاء ، ثم له قصائد سياسية وموضوعية في مظاهر العالم، وله تأمل في الحياة وشيء من التحليل النفسي. والشابي لم يكن شاعراً متكسباً .
على ان اوسع فنونه الغزل والسياسة . اما تأمله في الحياة فمبثوث عادة في هذين الفنين العظيمين من فنونه الشعرية .



الغزل عند السَّابِي

للسابي بضع قصائد في الغزل قالها قبل ان يبلغ العشرين وبعد ان بلغ العشرين - وهي مزيج من الغزل والنسيب ، وفيها غزل صريح ومجون احياناً ، وفيها ألم وحسرة وشقاء وتشاؤم حيناً آخر . وفي غزله ونسيبه رنة أسي تطغي عليهما طغياناً كبيراً .
واكثر غزل السابي قاله قبل بلوغ العشرين ، وذلك امر منتظر . ثم ان اكثر هذا الغزل عادي صريح ضعيف الخيال والبناء كثير التقليد ، وهذا ايضاً منتظر . وفي هذه الفترة - في السنوات الاخيرة قبل ان يبلغ السابي العشرين من عمره - تزوج زواجه الخائب ثم أحب حبه الجارف ثم ماتت حبيبته .

من اول ما نرى من الغزل عند السابي اربعة ابيات عادية تقليدية اولها ^١ :

علتني بارتشاف الضربِ من جنى ثغرٍ جميل أشنب ^٢

قد تجلّى طلعه من ظلم يحلب اللب بنظم الحبب ^٣

يذكر فيها اخلاف حبيبته بوعدھا . ثم يبدو انه نال وصال هذه الحبيبة فذكر ذلك في قصيدة قديمة الاسلوب ضعيفة ، يذكر فيها السابي شبه مغامرة تحمل شهاً لرائية عمر بن ابي ربيعة ^٤ . أما مبدأ هذه القصيدة فهو ^٥ :

(١) سنوسي ٢٤٣ .

(٢) الضرب : العمل ، الشنب يياض الاسنان ، والبرودة ايضاً .

(٣) كذا في الاصل . ظلم يجب ان تكون ظلم . والبيت غامض المعنى جداً .

(٤) أمن آل نعم انت غادر فبكر .

(٥) سنوسي ٢٤٥ .

أنا مأسورٌ لذات الحُجُبِ بنبالِ صُوبتِ عن كُتُبِ ١
 كاعبٌ هيفاءُ بضٌ طَفْلَةٌ ٢ دُمِيَّةٌ منها جميعُ العَجَبِ
 خطرت تمشي بروض زاهر مَشِيَّةُ الحَيْلِ بوحلِ السَّبَبِ ٣

ثم يقول :

لست أنسى ليلَةَ حالِكَةِ مُرِبِلتِ زرقاؤُها بالسحِبِ ٤
 لبست ثوبَ ظلامِ دامس وسكونِ هائلِ ذي رهبِ ٥
 ليلَةً قد مُخَضَّتْها منفرداً في دِبابِجي جوفِ ذاكِ الغيبِ ٦
 سار بي مهريَ فيها عَنَقاً وزماناً سيره ذو حُجُبِ ٧

حتى يقول :

فقضينا ليلَةَ جادت بها راحةِ الدهرِ الضنينِ القُلُوبِ ٨
 تحت ظلِ الحبِ والليلِ الذي ضمَّنا في كفه يسخر بي
 هكذا ... حتى إذا روَّعنا ذنبِ الصبحِ كذنبِ ٩ العقربِ !
 ثم قالت : يا حبيبي ، سر على كلاً ١٠ الرحمنِ في المنقلَبِ
 فتوادعنا وكلُّ قلبه في جحيمِ مؤلمِ ملتهبِ .

وللشابي بضع قصائد من هذا النوع ليس فيها ابتكار ولا حسن خيال ولا قوة

تعبير كقوله ١١ :

-
- (١) كُتِبَ : قَرِبَ .
 (٢) طِفْلَةٌ (بفتح الطاء) : ناعمة ، لينة . دُمِيَّةٌ : «جميلة مثل» الصورة او التمثال .
 (٣) السَّبَبِ : الارض التي لا ماء فيها .
 (٤) زرقاؤُها : سجاؤُها .
 (٥) رهب : خوف ، إخافة .
 (٦) التيبب : الظلام .
 (٧) الحُجُبِ : نوع من السير ؛ يراوح فيها الحصان بين يديه ورجليه . في هذا السير مرح ونشاط .
 (٨) القلب الذي لا يدوم على حال .
 (٩) كذا بسكون النون والصواب فتحها .
 (١٠) الكلاً : العشب ، ويقصد الثاني كله (بسكون اللام) او كلاءة : الحفظ والرعاية .
 (١١) سنوسي ٢٤٦ .

قلبي تردّي من على صهوات خيل المهوى فغدا أسير فتاة^١ ؛
مطارُ غاسقة الفروع عليه لا أجفان ساحرة بعين مهابة^٢ .
ترنو فتغزرو كل قلب ثابت بشفار اشفار وحد فتاة^٣ !

ولم يد على غزل الشابي ونسيه شيء من البراعة، في هذا الدور، حتى بدأ يشكو من الدهر ومن ضيق الحياة، ذلك لأنه بدأ يعبر عما يشعر هو به كقوله^٤ :

أيها الحب ، انت سر بلائي وهمومي وروعتي وعنائي
ونحولي وأدمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائي

فهذه القصيدة تعد اثني عشر بيتاً فيها شيء من التجديد، ولكن التردد الكثير الذي فيها يطغى على ذلك التجديد فيذهب برويقه .

وأخيراً صفا شعر الشابي في الغزل لما اطلق نفسه على سجيته فصعد الزفرات وأكثر الشكوى وتبع الجمال حيث رآه . ولقد كان يعكر عليه صفو حبه ان حياته مهددة في كل ساعة، وان هذه اللذة العظمى مدعاة الى تقصير أجله . وما قد يحملنا على الاستغراب انه ليس للشابي براعة تذكر في غزله قبل العشرين من سنه .

اما بعد العشرين فقد اتسع باب الغزل عنده ممزوجاً مرة بالشكوى والتشاؤم، ومرة بالاندفاع والمجون . ولكن الشابي كان يميل في شعره هذا دائماً الى التجديد .

ومن اول ما يطالعنا في هذا الباب ان الشابي ظل - بعد ان جاوز العشرين من عمره يذكر حبه الاول^٥ :

(١) تردى : سقط .

(٢) مطار : لها شذا العطر وان لم تستعمل عطرأ . وحق « مطار » التوين . غاسقة الفروع : شديدة سواد الشعر . المهابة : بقر الوحش ، نوع من النطباء .

(٣) بشفار اشفار : باهداب عيونها ؛ وهو يشبه كل هذب بشفرة . وحد فتاة : انف اقنى (مستقيم) - الاستمارة . حد فتاة « غامضة » .

(٤) سنوسي ٢٤٤ ، الشابي ١٢٦ .

(٥) فهمي ٧١-٧٢ ، الشابي ١٨٢-١٨٣ .

لستُ، يا أمسي، أبكيك لجد أو لجاه
 سلبته منيَ الدنـ يا وبزتي رِداه١

 إنما أبكيك للحد -ب الذي كان بهاء٢
 يملأ الدنيا فأنسى سرتُ في الدنيا أراه
 فإذا ما لاح فجره٣ كان في الفجر سنه
 وإذا غرّد طيره٣ كان في الشدو صداه
 وإذا ما ضاع٣ عطره٣ كان في العطر شذاه ...

ثم يمر الشاعر في طور جديد: يرى ان لا فائدة من بكاء هذا الحب - وحياته هو كلها
 اسي وبكاء - فيحاول ان يسلي نفسه وان يتبدل بذلك الحب القديم حباً جديداً، كما ان
 الارض تتبدل دائماً بربيعها الماضي ربيعاً آتياً، .

اسكتني يا جراحُ واسكتني يا شجونُ
 مات عهد النواح وزمان الجنون
 وأطلّ الصباح من وراء القرون

*

في فؤادي الرحيبُ معبدٌ للجمان
 شيدته الحياه بالرؤى والخيال
 فتلوت الصلاه في خشوع الظلال
 وحرقت البخورُ وأضأتُ الشموع
 ان سحر الحياه خالد لا يزول .
 فعلام الشكاه من ظلام يحول ؟
 ثم يأتي الصباح وتغر الفصول
 سوف يأتي ربيع ان تقضى ربيع !

(١) رداه : ثوبه (الصحة) .

(٢) كان الحب بهاء لامي .

(٣) ضاع : انتشر ، فاح .

(٤) فهمي ٥٧-٥٩ ، الشامي ٢١٥ .

ويحسن ان نبدأ هذا الدور بأثبات القصيدة التي يعدها محمد فهمي « عروس قصائد هذا الشاعر بل عروس جميع القصائد الغزلية في الشعر العربي »^١ اذ يبدو انه راعه فيها عدد من التشابه والاستعارات ابتداء من البيت السابع والعشرين . اما نحن هنا فيهمنا ان نرى فيها حباً جديداً لفتاة جديدة في حياة الشاعر . ولا أرانى موافقاً لمحمد كرو الذي يرى ان هذه القصيدة بعينها قد قالها الشابي في فتاته الاولى التي « قد ماتت قبل وفاته بست سنوات تقريباً »^٢ . ان قوله :

انتِ تمحين في فؤادي ما قد مات في امسي السعيد الفقيد ،
وتشيدن في خرائب روعي ما تلاثى في عهدي المجدود^٣
من طموح الى الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد .
وتبين رقة الشوق والاحلام والشجو والهوى في نشيدي ،
بعد ان عانقت كآبة ايا مي فؤادي وألجت تغريدي .
.....

فانفخي في مشاعري مرح الدن يا وُشدي من عزمي المجهود ،
وابعثي في دمي الحرارة علي اتغنى مع المنى من جديد .

يدل على ان القصيدة التي منها هذه الايات قيلت في فتاة غير فتاته الاولى . انه يريد من هذه الفتاة ان تعيد عهده السابق الذي كان قد انقضى . اما القصيدة كلها فهي^٤ :

عذبة^٥ انت كالطفولة ، كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد ؛
كالسما الضحوك ، كالليلة القمر ، كالورد ، كابتسام الوليد .
يا لها من وداعة وجمال وشباب منعم أمالود^٥ .
يا لها من طهارة تبعث التقدير س في مهجة الشقي العنيد .

(١) فهمي ص ٤٥ ، الحاشية ١ .

(٢) الشابي ٧٤ .

(٣) كذا في فهمي (ص ٤٦) ، في الشابي : المجدود (ص ١٥٧) .

(٤) فهمي ٤٥-٤٨ ، الشابي ١٥٦-١٥٩ .

(٥) هذا البيت ناقص في الشابي .

يا لها رقةً يكاد يرف الور
اي شيء تراكِ؟ هل انت فينو
لتعيد الشباب والفرح المعسو
ام ملاك السلام جاء الى الار
انت ، ما انت؟ انت رسم جميل
فيك ما فيه من غموض وُعمق
انت ، ما انت؟ انت فيجر من السح
فأراه الحياة في مُورنق الحسن ،
انت روح الربيع تختال في الدن
وتهب الحياة سكرى من العط
كلما ابصرتك عيناى ، تمشين
خفق القلب للحياة ورَف الزه
وانتشت روحي ، الكئيبة بالحب ،
انت تحيين في فؤادي ما قد
وُتشيدين في خرائب روحي
من طموح الى الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد ؛
وتبين رقة الشوق والاح
بعد ان عانقت كآبة أيا
انت انشودة الأناشيد غنًا
فيك شب الشباب وشحه السح

(١) في « فهمي » : تكاد.

(٢) فينوس ؛ الزهرة (بضم الزاي وفتح الهاء) كوكب سيار ، آلهة الجمال عند اليونان .

(٣) العهد : القديم .

(٤) في الشابي ، السحر ، وهو خطأ .

(٥) جلي ، كشف .

(٦) في الشابي ، المحدود ، والمحدود اصوب .

وتراعى الجمال يرقص رقصاً
 وتمادت في افق روحك اوزا
 فتأملت في الحياة كلحن
 خطوات سكرانة بالاناشيد
 وقوام يكاد ينطق بالأحلام
 كل شيء موقَّعٌ فيك حتى
 انت انت الحياة في قدسها السا
 انت انت الحياة في رقة الفجر
 انت انت الحياة كل أوان
 انت انت الحياة فيك وفي عيند
 انت دنيا من الاناشيد والاح
 انت فوق الحُبال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود .
 انت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي .

*

يا ابنة النور ، اني - انا وحدي -
 فدعيني أعيشُ في ظلك العذ
 عيشةً للجمال والفن والا
 عيشةً الئاسك البتول يناجي الرب
 وامنحيني السلام والفرح الرو
 وارحميني فقد تهدمت في كو
 اتقذيني من الأسى فلقد أم
 في شباب الزمان والموت أمشي

مَنْ رأى فيك روعة المعبود ،
 ب وفي قرب حسنك المشهود ٣
 هام والطهر والسنى والسجود ،
 في نشوة الدهول الشديد ٤
 حيّ يا ضوء فجرى المنشود ،
 ن من اليأس والظلام مشيد .
 سبت لا استطيع حمل قيودي :
 تحت عبء الحياة جم القيود ،

(١) هذا البيت ناقص في الشابي .

(*) الشجي هنا بتسهيل الياء (بغير تشديد) احتيالاً على إقامة الوزن .

(٢) هذا البيت ناقص في الشابي .

(٣) في الشابي ، المعبود .

(٤) الرب كلمة نائية نادرة في هذا الموضع خارجة على عمود البلاغة من ادخال لام التعريف عليها .

وأماشي الوري ونفسي كالقبر
ظلمة ما لها ختام، وهول
وإذا ما استخفني عبث النا
بسمه مرة كأني استل
وانفخي في مشاعري مرآح الذر
وابعني في دمي الحرارة علي
وأبث الوجود أنعام قلب
فالصباح الجميل ينش بالدّف
انقذيني فقد سئمت ظلامي ،

*

آه ، يا زهرتي الجميلة ، لو تد
في فؤادي الغريب 'تخلّق' اكروا
وشمس وضاءة ونجوم
وربيع كأنه حلم الشاعر
ورّابة لا تعرف الخلك الدا
وطيور سحرية تتناغي
وقصور كأنها الشفق الخ
وغيوم رقيقة تهادي
وحياة شعرية هي عندي
كل هذا يشبهه سحر عينه
وحرام عليك ان تحقني آ
منك ترجو سعادة لم تجدها
فالاله العظيم لا يرجم العبد

رين ما جدّ في فؤاد الوحيد!
ن من السحر ذات حسن فريد،
تنثر النور في فضاء مديد،
عر في سكرة الشباب السعيد،
جي ولا ثورة الحريف العتيد ٢،
بأناشيد حلوة التفريد،
ضوب او طلعة الصباح الوليد،
كأبدياً من نثار الورد،
صورة من حياة اهل الخلود.
لك وإلهام حسنك المعبود.
مال نفس تصبو لعيش رغيد.
في حياة الوري وسحر الوجود!
د اذا كان في جلال السجود.

(١) هزل ، اتيان اعمال لا فائدة منها .

(٢) الرّابة : الرّوبة ، التلة الصغيرة . العتيد ، الامر المهبأ الحاضر . والشاي يقصد ، المقبل . (والاستعمال سرياني ، « عتيدا » ، مضارع ، مستقبل) .

وهناك ايضاً قصيدتان توحيان بأن الشابي احب ثم اغرق في حبه ووجن بعد ان كان حزيناً شاحباً ويائساً من الدنيا . ان هذا لا يمكن ان يكون الا بعد ان استفاق في قلبه حب جديد . تبدأ القصيدة الاولى هكذا ١ :

راعها منه صمتهُ ووجوههُ
وشجاها شجوبه وسهومه ٢ .
فاطلت بوجهها الباسم الخلد
و امرت كفتاً على شعره العا
رى برفق كأنها ستنبهه
ثم قالت ، كأنها تتغنى
بشجي من الاغاني ، تلومه :

ثم يتابع الشاعر قوله على لسان هذه الفتاة :

خل عبء الحياة عنك وهيا
بجيا كالصبح طلقت اديمه ،
وامش في روضة الشباب طروباً
فجواليك ورده وكرومه ،
واتل للحب والحياة اغانيه
لك وخل الشقاء تدمى كلومه ؛
واحتضني فانني لك حتى
يتوارى هذا الدجي ونجومه ،
واقطف الورد من خدودي وجي
دى ونهودي وافعل به ما ترومه .

ثم يختم الشابي قصيدته هذه بالايات التالية :

فرماها بنظرة غشيتها
سكرة الحب والاسى وغبومه .
وتلاها ببسمة قطفتها
شفة غضة الشباب رؤومه .
ما تريد الهوم من عالم ضا
ءت مسراته وغنت نجومه :
ليلة اسبل الغرام عليها
سحره الناعم الطيرى نعيمه :
اغرق الفيلسوف فلسفة الاحـ
زان في خمرها . فمن ذا يلومه ؟
ان في المرأة الجميلة سحراً
عقرياً يذكي الاسى ترنيمه !

ونحن نرى ايضاً مثل هذا المجون في قصيدة ثانية مملوءة بالمرح ونسيان الماضي

(١) الشابي ١٦٠-١٦٢ .

(٢) السهوم ، تغير اللون والنحول .

(٣) يقصد أهامه وهبمه .

وتطلب الاستفادة من الحاضر . هذه القصيدة الثانية هي ١ :

ها هنا ، في خمائل الغاب تحت الزا
انت اشهى من الحياة واهى
ما ارق الشباب في جسمك الغد
وأذت الحياة حين تغيب
قد تغنيت منذ حين بصوت
نغماً كالحياة عذباً عميقاً
فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت :
للضباب المورد المتلاشي
للسماء المطل ، للشفق السا
جى ، لسحر الاسى وسحر السكون .

.....

للشباب السكران ، للأمل المعبور
فتهدت ثم قلت : « وقلبي
قالت : « الحب » ، ثم غنت لقلبي
قبلاً علمت فؤادي الأغاني
قبلاً ترقص السعادة والح
وأفقتنا ، فقلت كالحالم المسحو
اي دنيا مسحورة ، اي رؤيا
رُمز من ملائكة العالم الأء
وصبايا رواقص يتراشة
في فضاء مؤرد حالم سا
وجحيم توج تحت فراد
اي خمر مؤجج ولهيب
اي خمر رشت ، بل اي نار

(١) الشابى ١٦٦-١٦٩ .

(٢) كذا في الاصل ، لعلها : للباس .

وردتها الحياة في لهب السحر
 اي اثم مقدس قد لبسنا
 وسكتنا، وغرد الحب في العنا
 وبني الليل والربيع حوالينا
 معبداً للجمال والحب شعر
 نأ مشيداً على فجاج السنين ؛
 تحته يزخر الزمان ويجري
 صامتاً في مصبه المحزون ،
 وغر الآلام والحزن والموت
 ت بعيداً عن ظله المأمون .

هذا الغزل والمجون من شعر الشابي بعد العشرين من عمره^١ وبعد ان كانت حبيته
 الاولى قد ماتت وقال فيها قصائده الحزينة ، تدل على حب جديد نبت على انقراض الحب
 الاول . ويصعب علينا ان نفسر هذه القصائد المجونية المتأخرة غير هذا التفسير . ثم هنالك
 عامل نفسي : ان كثيراً من الذين أحبوا حباً صادقاً ثم اصابتهم صدمة في حبهم هذا قد
 انقلبوا منغمسين في الملذات ضالين في شعاب الهوى متهتكين . ويبدو ان الشابي - مما نرى
 من شعره على الاقل - كان من هؤلاء .

(١) الشابي ١٤١ وما بعدها ، فهي ٤٥ - ٧٢ .

الطبيعة في شعر الشابي

إذا عينا « بالطبيعة » عند الشابي ان في اشعاره كلمات تدل على مظاهر العالم المادي كالجبال والغيوم والرياح والاثمار والازهار والربيع والغابة، فان جميع شعره حينئذ يدخل في باب «وصف الطبيعة»، ذلك لأن هذه الكلمات كثيرة في اشعاره كثرة تطفئ على كل نوع آخر من الكلمات . ولكننا نعني بوصف الطبيعة عند الشابي تلك الصور المقتنصة من العالم المادي الذي نعيش فيه .

ووصف الطبيعة عند الشابي - بهذا التعريف - قليل جداً ، بل هو نادر بالاضافة الى مجموع شعره . على ان اقرب شعره المنشور الى وصف الطبيعة بالمعنى المقصود قصيدتان : قصيدته في تونس ، وقصيدته « من اغاني الرعاة » .

أما قصيدته الاولى فهي « ذكريات » ايامه الاولى في بلدته في بلاد الجريد من جنوبي تونس . والوصف الحسي - على الحصر - في هذه القصيدة قليل جداً ، ولكن فيها عدداً من الصور الطبيعية مجموع بعضها الى بعض على غير نسق مخصوص، انه يؤلف قصيدة ولكنه لا يؤلف وحدة وصفية . ثم ان وصف الطبيعة في هذه القصيدة غير مقصود لذاته ولكنه تمهيد الى « شكواه » المعهودة من الحياة . هذه القصيدة موسومة بالجنة الضائعة ، وهي ^١ :

كم من عهود عذبة في عدوة^٢ الوادي النضير .
فضية الاسجار منذ هبة الاصائل والبكور .
كانت أرق من الزهو ر ومن اغاريد الطيور

(١) الشابي ١٨٤-١٨٨ .

(٢) المدوة (بالكسر او القم) : ناحية النهر او البحر (الناحية المقابلة للكان الذي يقف فيه الانسان) .

وألذَّ من سحر الصبا
 قضيتها ومعى الحبيب
 إلا الطفولة حولنا
 أيام كانت للحياة
 وطهارة الموج الجميد
 ووداعة العصفور بيد
 أيام لم تعرف من الد
 وتتبع النحل الانيد
 وتسلق الجبل المكالم
 وبناء اكواخ الطفو
 نبني وتهدمها الربا
 ونعود نضحك للمرور
 ونخاطب الأصدقاء وه
 ونعيد اغنية السوا
 ونظل نركض خلف اس
 ونمر ما بين المروج ال
 نشدو ونرقص كالبللا
 ونظل ننثر، للفضاء الر
 ما في فؤادينا من ال
 ونشيد في الافق المنو
 ازهى من الشفق الجمي
 وأجل من هذا الوجود
 ابدأ تدلنا الحيا
 وتبت فيما من مزاح ال
 ففسير ننشد هونا ال
 في بسةِ الطفل الغرير .
 لا رقيب ولا نذير
 تلهو مع الحب الصغير ،
 حلاوة الروض المطير
 لسحر شاطئه المنير
 نجادول الماء النير ،
 نياسوى مرح السرور
 وقطف تيجان الزهور
 بالصنوبر والصخور
 لة تحت اعشاش الطيور :
 ح فلا نضج ولا ثور ،
 ج وللزنايق والغدير ،
 ي تر في الوادي المنير ،
 قي وهي تلغو بالخرير ،
 راب الفراش المستطير
 خضر في سكر الشعور :
 بل للحياة والحبور
 حب والنهر الكبير ،
 احلام او حلو الغرور ،
 ر من امانينا قصور
 ل ورونق المرج الخضير
 د وكل اجماد الدهور .
 ة بكل انواع السرور
 كون ما يغوي الوقور
 معبود في كل الامور

ونظّل نعبث بالجلية
 بالسائل الاعمى وبال
 بالقطة البيضاء بالشا
 بالعشب ، بالفتن المنو
 بالرمل ، بالصخر المحطّ
 والهبو والعبث^٢ البري
 ونظّل نقفز او نغني
 لا نسأمُ اللهو الجيب
 فكأننا نجيا بأء
 وكأنما نمشي بأق
 ايام كنا لب هذا ال
 ايام تفرش سُبُلنا الد
 وقرّ ايام الحيا
 بيضاء لاغية مغرّ
 وتفررف الافراح فو

*

آه ، تواري فجري ال
 وقني كما يفنى النشي
 أواه ، قد ضاعت عليّ
 وبقيت في وادي الزما
 وأدوس أشواك الحيا
 وأرى الأباطيل الكثير
 وتصادم الاهواء بالاه
 قدسي في ليل الدهور
 دلخو في صمت الاثير .
 سعادة القلب الغريب ؛
 ن الجهم أداب في المسير
 بقلبي الدامي الكسير ،
 والمآثم والشرور ،
 واء في كل الامور

(١) كذا في الاصل .

(٢) العبث (بفتح ففتح) : اللعب ، الهو .

ومذلة الحق الضعيف
وأرى ابن آدم سائراً
ما بين احوال الوجود
متسلفاً جيلَ الحيا
دامي الأكف همزق الـ
متروخ الخطوات ما
هالته اشباح الظلا
ودويّ اعصار الأسي

*

ماذا جنيت من الحيا
غير الندامة والاسى
هذا حصادي من حقو
هذا حصادي كله

*

قد كنت في زمن الطفو
أحيا كما تحيا البلا
لا تحمّل الدنيا تدو
واليوم أحيا مرهق الـ
متأجع الاحساس أحـ
تمشي على قلبي الحيا

هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما اشقى المصير !
على ان القصيدة الثانية : « من اغاني الرعاة » اقرب الى وصف الطبيعة واشد صلة
بالحياة الطبيعية ، واسهل اسلوباً وابتعد عن « الخيال المصنوع » الذي يملأ به الشابي قصائده .
ولعل مرجع ذلك الى ان الشابي نظم هذه القصيدة في مشاهد رآها وعاشها ولم يروها من

(١) اي لا تحفل الطيور : لا تبالي

ذكرياته . ذكر محمد فهمي في كتابه «الروائع لشعراء الجيل»^١ سبب نظم هذه القصيدة فقال :
 حل الشاعر في الصائفة الماضية^٢ بعين دراهم^٣ من الشمال التونسي مستشفياً . وهناك
 - فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الهائلة والجبال الشم المجللة بالسنديان -
 قضى عهداً شعرياً وادعاً خالصاً للشعر والسحر والاحلام . وفي القصيد التالي صورة صغيرة
 من صور الحياة بين تلك الجبال والادوية والغابات .» .

ولا ريب في ان هذه القصيدة موفقة جداً في وصفها للحياة البسيطة الفطرية ، وهي
 بلا ريب خارجة من قلب الشاعر واحسن تعبيراً عن نفسه من عدد من قصائده التي تكثر
 الصنعة المعنوية فيها . ولقد لفتت هذه القصيدة انظار الشاعر الاسوجي كارل ألوف سفننغ ،
 فنقلها شعراً الى اللغة الاسوجية (السويدية) بعد ان قدم له بكلمة في حياة الشاعر وخصائصه .
 وهذه القصيدة منظومة رباعيات مزدوجة ، كل مقطع ثمانية اشطر قصار على روي
 واحد . أما القصيدة فهي فيما يلي كاملة ° :

اقبل الصبح يعني للحياة الناعسة ،
 والربى تحلم في ظل الغصون المائسة ،
 والصبأ ترقص اورا ق الزهور اليايسة .
 وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة .

*

(١) الجزء الاول ، ص ٥٤ .

(٢) لا سبيل الى تحقيق السنة التي يشير اليها محمد فهمي . ان كتابه لا يجعل تاريخ طبعه ، غير انه ضم الى هذا
 الجزء ترجمة للشاعر المشرقي وذكر ان عام وفاته كان كانون الاول ١٩٣٨ ، (ص ٩) مما يدل على ان الكتاب
 طبع عام ١٩٣٩ علي الاقل . اما الثاني فتوفي ١٩٣٤ . ويبدو ان محمد فهمي نقل هذه المقدمة من مجموع
 مخطوط ولم يفكر في تحويلها لتوافق سنة طبع كتابه . ولكن لا بد من ان تكون هذه القصيدة من اخريات
 قصائد الشابي .

(٣) عين دراهم بليدة في الشمال الغربي من تونس قريبة جداً من حدود الجزائر .

(4) Carl Elof Svenning.

(٤) راجع ص ١٨٧ ، الحاشية ٣

(٥) فهمي ٥٤-٥٦ ، كرو ٢٠٨-٢١٠ .

أقبل الصبحُ جميلًا يملأ الأفقَ بهاءً
فتمطى الزهر والطيرُ وأمواجَ المياه .
قد أفاق العالمُ الحيُّ وغنى للحياء ،
فأيقني يا خِرافي وهمني يا شياه .

*

واتبعيني يا شياهي بين اسراب الطيور ،
وأملأي الوادي ثغاءً ومراحاً وحبور .
واسمعي همس السواقي وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يُعشّي الضبابُ المستنير .

*

واقظفي من كالألار ض ومرعاها الجديد ،
واسمعي شباتي تش دو بمسول النشيد
نعم ٢ يصعد من قلا بي كأنفاس الورد
ثم يسمو طائراً كال بلب الشادي السعيد .

*

وإذا جئنا إلى الغا ب وغطّانا الشجر ،
فاقظفي ما شئت من عش ب وزهر وثمر
أرضته الشمس بالوضو غداه القمر
وارتوى من قَطرات الطلّ في وقت السحر .

*

وامرحي ما شئت في الود بان او فوق التلال ،
واربضي في ظلها ما شئت إن خفت الكلال ،
وامضغي الاعشاب وال افكار في صمت الظلال ،

(١) في الشابي ، واهرعني لي يا شياه .

(٢) كذا في فهمي وفي الشابي . والاصوب: نعماً

واسمعي الريحَ تغني في شماليخ الجبال .

*

ان في الغابِ أزاهي رأى واعشاباً عذابُ
ينشد النحل حوالتيها اهازيج طراب،
لم تدنس عطرها الطاهر أنفاسُ الذئاب
لا ولا طاف بها النعم لمب في بعض الصحاب؛

*

وشذاً حلواً وسجراً وسلاماً وظلال
ونسيماً ساحراً الحظوة موفور الدلال
وغصوناً يرقص النور عليها والجبال
واخضراراً ابدياً ليس تحويه الليال .

*

إن تَمَكَّنِي، يا خرافي، من حمى الغاب الظليل،
فزمان الغابِ طفل لآعب عذب جميل؛
وزمان الناس شيخ عابس الوجه ثقيل
يتمشى في ملال فوق هاتيك السهول .

*

لك في الغابات مر عاي ومسماعي الجميل،
ولي الانشاد والعزف الى وقت الاصيل .
فاذا طالت ظلال الكلا الغض الضئيل
فهلبي نرجيع المسامى الى الحى النبيل .

(١) ازاهير ممنوعة من الصرف ، واذا بقيت في هذا البيت ممنوعة فان وزنه لا يختل .

(٢) رجوع يرجع (بوزن : ضرب يضرب) : رد ، اعاد . - والمعنى المقصود في البيتين الاخيرين غامض ،
إلا ان يكون الشاعر قد قصد « اذهب بك الى الغابات لترعين العشب فيها ريثما يطول العشب في حين النبيل
-فتمود اليه .»

السياسة والقومية

وقصائد الشابي في الوطنية والسياسية والقومية لا تقل عن قصائده الجياد في الغزل من حيث البراعة والقوة ، حتى ان شهرة الشابي كلها مدينة لشعره القومي أو لبضعة ابيات من شعره القومي . وقصائد الشابي الوطنية والسياسية مزيج من الاسلوب القديم والاسلوب الحديث ، ومن القوة والسلاسة ، ومن التشاؤم والتفاؤل . ولقد نظم هذه القصائد في طوريه كليهما : قبل ان يبلغ العشرين وبعد ان بلغها .

وفي قصائده الاولى من هذا الباب - قبل ان يبلغ العشرين - فخر وتهديد وامل بالمستقبل ، وكثير منها يجري الشاعر فيه على الاسلوب القديم الفخم المتين (مع ضعف في اللغة او التركيب هنا وهناك) كقوله^١ :

أرى المجد معصوب الجبين مُجَدَّلاً
على حسك الآلام يغمره الدم^٢ .
وقد كان وضّاح الاساير باسماً
يخف الى الجُدَى ولا يتبرم^٣ .
الا ايها الظلمُ المُصعَّرُ خَدَّه^٤ ،
رُؤْيَدَكَ ان الدهر يبيني ويهدمُ .
أعزرك ان الشعب مُعْضٍ على قَدَى^٥ ،
لك الويل من يوم به الشر قشعم^٥ !
سيثأر للعر المحطّم تاجه
رجال اذا جاش الردى فهم هم ،
رجال يروُن الذل عاراً وسبّةً
ولا يرهبون الموت والموت مُقدِمُ .

(١) سنوسي ٢١٢ ، الشابي ١٠٢

(٢) معصوب الجبين : يقصد الشاعر مضمد جراح الرأس ، مجدلاً : صريماً ، ملقى .

(٣) الجلى : المكرومة والأمر العظيم .

(٤) صعر خده : أمال وجهه ، اشاح بوجهه عن الناس تكبراً عليهم .

(٥) القشعم : النمر الكبير السن . يقصده يوم يعظم الشر .

وهل تعتلي إلا نفوسُ أبيّةٍ
 تصدّع اغلال الهوان ونقصم .
 الا إن احلام البلاد دفينّة
 تججم في اعماقها ما تججم .
 ولكن سيأتي بعد لأيٍ نشورها
 وينبثق اليوم الذي يترنم
 هو الحقُّ يبقى راكداً ، فاذا طغى
 باعماقه السخطُ العصف يدمدم .
 وينحط كالصخر الاصم ، إذا هوى ،
 على هام اصنام العُتُو فيحطم
 اذا صعقَ الجبار تحت قيوده
 سيعلم أوجاع الحياة ويفهم ٢ .

ثم هو يعود مرة بعد مرة الى التنويه بالظلم وتهديد الخصم والى الايمان بقوة الحق اذا
 التف حوله قومه ٣ :

يقولون: صوت المستذلين خافت
 وسمع طواغيت التجبر أصخم ٤ .
 وفي صيحة الشعب المسخر زعزع *
 تحر له شم العروش ، وتهدم .
 ولعلعة الحق الغضوب لها صدى ،
 ودمدمة الحرب الضروس لها فم .
 إذا التفّ حول الحق قوم فإنه °
 يصرم أحداث الزمان ويبرم .

وله ايات تشتت بالحرب ٦ مطلعها :

هل الحروب سوى وحشية نهضت
 في أنفس الناس فانقادت لها الدول
 ولكن ليس فيها براعة خاصة تذكر بها .

ومثل هذه الايات اياته الوطنية في تونس . غير اني آثرت اثباتها - على ضعفها - لأن
 الشاعر قالها في وطنه ورثى لحال ذلك الوطن إلا أنه وثق له بالمستقبل الذي سيرد له
 مكاتته ٧ :

(١) الأبي : الشدة والمحنة . والشاني يظن ان الأبي : المدة من الزمن .

(٢) صعق : مات من صيحة عظيمة او نحو ذلك .

(٣) سنوي ٢١٤ ، الشابي ١٠٥

(٤) اصخم : اصم .

(٥) فان الحق

* زعزع صفة لكلمة ريح المحذوفة . وهي الريح الشديدة التي تزعزع الاشياء . وبما ان الريح مؤنثة .
 فيجب ان يقول : تحر لها شم العروش ...

(٦) سنوي ٢٤٠ ، الشابي ١٠٤

(٧) سنوي ٢٤٨ ، الشابي ١٠١

لست أبكي لعسف ليل طويل
إنما عبرتي لحطب ثقيل
كلما قام في البلاد خطيب
أخذوا صوته الالاهي بالعسد
لبسوا روحه قميص اضطهاد
وتوَّخوا طرائق العسف والار
هكذا المصلحون في كل صوب
غير أنا تناوبتنا الرزايا
أو لربيع غدا العفاء مراحه^١ .
قد عرانا ، ولم نجد من أراحه :
موقظ * شعبه يريد صلاحه
ف ، أماتوا صداحه ونواحه ؛
فاتك ، شائك ، يرد جماحه ؛
هاق معه ، وما توخوا السماح^٢ .
رشقات الردى اليهم متاحه .
واستباححت همانا^٣ أي استباحه !

انا يا تونسُ الجميلةُ ، في لجج
شرعتي حبك العميق ، وإني
لا أبالي... وإن أريق دمائي ؛
الموى قد سبحت أي سباحه .
قد تذوقت مرهً وقراحه^٤ .
فدماء العشاق دوماً مباحه !

إن ذا عصر ظلمة غير اني
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن
من وراء الظلام شئت صباحه .
سترد الحياة يوماً وشاحه .

ولكن الشابي سرعان ما ينظر الى قومه نظرة العاذل المؤنب لأنهم يرضون بهذه الحياة
ولا يثورون على الظلم والظالمين مع ان الله خلقهم احراراً^٦ :

خأقت طليقاً كطيف النسيم
تغرد كطير أين أندفع
وتشبي كما شئت بين المروج
م وحرراً كنور الضحى في سماه
ت وتشدو بما شاء وحي الاله
ج وتقطف ورد الربى في رباه .

(١) اصبح مكانه الخراب ، خراباً ، جاء الخراب عليه .

* كذا في سنوسي وفي الشابي . والصواب موقظاً .

(٢) توخوا الثانية يجب ان تكون أيضاً بفتح الحاء وسكون الواو ، ولكن الوزن يجتزل حيثشد

(٣) همانا يجتزل بها الوزن لزيادة الف الضمير .

(٤) الماء القراح : الصافي الخالص .

(٥) شام : رأى

(٦) الشابي ١٤٩

كذا صاغك الله ، يا ابن الرجو د ، وأفتك في الكون هذي الحياه
 فما لك ترضى بذل القيو د وتحنّي لمن كبلوك الجباه ؟
 وتقنع بالعيش بين الكهو ف ؛ فأين النشيد وابن الاياه ؟
 أنتحى نشيد السماء الجمية ل ؟ أترهب نور السما في فضاء ؟
 الا انهض وسر في سبيل الحيا ة فمن نام لم تنتظره الحياه !

على ان اروغ قصائده في هذا الباب قصيدتان طويلتان هما اللتان خلقتا له شهرة او خلقتا له الشهرة . والحق ان في هاتين القصيدتين قوة وبراعة وتحليلاً جميلاً . وهما يجريان على اسلوبه الطلق الحديث ، اذ هما من طوره الثاني بعد بلوغ العشرين ، ولذلك نجد فيهما كثيراً من النضج وان كانت روح التهور لا تزال تسيطر عليهما . وكلتا القصيدتين تصور ثورةً نفسيةً جامحة .

اما القصيدة الاولى الموسومة « بالنبي المجهول »^٢ ففيها تقريع للشعب ويأس من نهوضه وعزم الشاعر على الخلوة في غابة بعيداً عن الناس حتى لا يرى قلة استحقاقتهم للحياة ، لانه هو فيلسوف وشعبه جاهل لا يفهم عنه ما يقول .

وهي القصيدة الاولى تامة وقد بدأها الشاعر بخطاب قومه^٣ :

في صباح الحياة ضمّختُ اكروا بي واترعتها بجمرة نفسي .
 ثم قدمتها اليك فاهرة ترحيقي ودست باشعب كأسي
 فتألمت ثم اسكتُ آلا مي وكفكفت من شعوري وحسي
 ثم نضدت من ازاهير قلبي باقة لم يمّسها ايُّ إنسي ،
 ثم قدمتها اليك فمزقة ت ورودي ودستها اي دوس .
 ثم البستني من الحزب ثوباً ، وبشوك الصخور توجت رأسي .

*

(١) الاياه ، الاياة (بفتح الهمزة وكسرهما) : نور الشمس . ولعلها : الاباة جمع ابي - بتشديد الياء : الذي لا يرضى ان يحمل الظلم .

(٢) فهمي ٦٥ ، ٤١ ، ٢٩٨ - ٣٠١

(٣) فهمي ٦٥ - ٦٨ ، الشابي ١٩٨ - ٢٠١ . في هذه القصيدة اختلاف في الترتيب . ولقد اتبعت ترتيب

محمد فهمي لأنه احسن اتساقاً . اما كرو (في الشابي) فيقدم الايات ١٢ - ٢٠ ويجملها مطلقاً .

ها انا ذاهب الى الغاب يا شع
ها انا ذاهب الى الغاب علي
ثم انساك ما استطعت فما از
سوف اتلو على الطيور اناشيد
فهي تدري معنى الحياة وتدري
ثم افضي هناك في ظلمة الليل
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلا
وتظل الطيور تلعو على قلب
وتظل الفصول تمشي حوالي
ايها الشعب ، ليتني كنت حطبا
ليتني كنت كالسيول اذا سا
ليتني كنت كالرياح فاطوي
ليتني كنت كالشتاء اغشى
ليت لي قوة العواصف ، يا شع
ليت لي قوة الاعاصير ان ضج
ليت لي قوة الاعاصير ، لكن
انت روح غيبية تكره النو
انت لا تدرك الحقائق ان طار

*

ايها الشعب ، انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغمس .^٥

(١) هذا البيت والابيات البلاث التي تليه غير موجودة في « فهمي » .

* فأهوي يجب ان تكون منصوبة بان مضمرة بعد فاء السببية بعد التمني ، يا ليتني . وكذلك (في الابيات التالية) : فأطوي ، فألقي ، فأدعوك . ولكن الشابي فلما يفتن لذلك او انه يفتن ذلك اذا لم تتأت له استقامة الوزن باتباع القاعدة .

(٢) القرس : البرد .

(٣) بكلام خفيف

(٤) الملس : اختلاط الظلام

(٥) اغشى الليل : اظلم .

- انت في الكون قوة لم تَسُسْها
 انت في الكون قوة كتبت لها
 والشقي الشقي من كان مثلي
 في حساسيتي^١ ورقة نفسي .

*

- هكذا قال شاعر^٢ ناول الشع
 فأشاحوا عنه ومرّوا غضابا
 قد اضاع الرشاد في ملعب الج
 طالما خاطب العواصف في الل
 طالما رافق الظلام الى الغا
 طالما حدثت الشياطين في الوا
 انه ساحر^٣ تعلّمه السحر الشيا
 ابعدوا الكافر الخبيث عن اله
 واطردوه ولا تصيخوا اليه
 هكذا قال شاعر فيلسوف^٤
 جهل الناس روحه واغان
 فهو في مذهب الحياة نبي ،
 هكذا قال ، ثم سار الى الغا

*

- وبعيداً هناك في معبد الغا
 في ظلال الصنوبر الخلو والز
 ب الذي لا يُظله اي بؤس ،
 تون يقضي الحياة جرساً بجرس^٦

(١) هذه الصيغة غير قامةوسية .

(٢) المس : الجنون .

(٣) الجرس : الصوت :

* هذا الشطر لا يتسق في المعنى مع الابيات التالية . فالاصوب ان يكون : ذاك ما نال شاعراً فيلسوفاً...

(٤) التمس : الشقاء والبؤس

(٥) طهارة .

(٦) في الشابي : حرساً بجرس . الحرس بالحاء المهملة : الدهر .

في الصباح الجميل يشدو مع الطير
 نافخاً نايه حوالبه تهتز
 شعره مُرْسَلٌ تداعبه الريح
 والطيور الطراب تشدو حوالبه
 وتراه عند الاصيل لدى الجدى
 او يعني بين الصنوبر او
 فاذا اقبل الظلام ، وامست
 كان في كوخه الجميل مقبلاً
 عن مصب الحياة ابن مدها
 وعبير الورود في كل وادٍ
 وهزيم الرياح في كل فج
 واغاني الرياح ابن بواري

*

هكذا يصرف الحياة ويُفني
 يا لها من معيشة في صميم الغا
 يا لها من معيشة لم تدنَّس
 يا لها من معيشة هي في الكو

ونحن نلاحظ ان القوافي تتكرر في هذه القصيدة. فالقافية «نفس» تردت خمس مرات
 و «رمس» اربع مرات و «ياس» و «امس» و «كأس» تردت كل واحدة منها ثلاث

(١) المتحسي : الذي شرب الخمر .

(٢) قنس : اصل ، جنس .

(٣) السدفة بالفتح وبالضم : الظلة

(٤) الذي يشرب الماء (بأمن وحرية) .

(٥) نفسي : تظلم

(٦) ايان : متى؟ والشابي يستعملها بمعنى : اين .

(٧) تمسي (بتشديد السين) : تصدح مساء كأنها تقول للناس مساء الخير .

(٨) فج : الطريق بين جبلين .

(٩) في الشابي : اغاني الرعاة .

(١٠) حرساً : دهرأ .

مرات .وهناك نحو عشر قواف ترددت كل واحدة منها مرتين . ثم جاء الشابي بمشتقات امسى في القافية اربع مرات ايضاً .

واما القصيدة الثانية الموسومة « بارادة الحياة »^١ فهي « معلقة الشابي » . انها بلا ريب اشهر قصائده ، ولعلها احسن قصائده ايضاً . ثم انها قصيدة عامة : انها ليست وطنية في التغني بتونس وحدها، ولا سياسية تشنع بالحرب فتوهم ان صاحبها ميال الى معسكر دولي مخصوص، ولا هي اقليمية ضيقة الأفق . على ان احسن ما فيها انها مفعمة بروح الامل مليئة بالثقة بالنفس عند القول . وهذه القصيدة، كمعظم شعر الشابي ، فيها صور شعرية جميلة وتشابه واستعارات جديدة صحيحة ، غير انها ايضاً - كمعظم شعره - مملوءة بالرمز الذي يجعل المعاني غامضة في كثير من الاحيان . على ان قيمة هذه القصيدة انما هي في ابيات معدودة متفرقة ينقص من جمالها انها تأتي بين ابيات فيها معان مرددة مكرورة معادة ، وهذه خاصة تعم شعر الشابي كما رأينا من قبل .

وعلى الرغم من ان القصيدة موضوعية تصويرية وصفية فانها ايضاً وجدانية ، حتى إنها غيت فوجدت تعبير نفسها للغناء . ولقد سار مطلع هذه القصيدة مجرى الامثال ودار على كل شفة ولسان فردده الابداء والناشئون . ولا ريب عندي بان هذا البيت المبتكر بتركيبه لا بمعناه ، قد احدث هزة قومية في العالم العربي لا لأنه القى على الناس درساً في الوطنية او القومية ولا لأنه جلا معنى لم يكن معروفاً من قبل ، ولكن لأنه وضع فكرة مجردة في تعبير مادي واقعي يعلق بالذهن ويضّح في الذاكرة .

اما القصيدة فهي^٢ :

إذا الشعب يوماً أراد الحياةَ فلا بدَّ أن يستجيب القدرُ !
ولا بد ليلاً ان ينجلي ولا بد للقيـد ان ينكسرُ

(١) فهي ٦٣ ، الشابي ٥٩ ، ٦٠ ، ٥٩ .

(٢) هذه القصيدة تمد عند فهي (ص ٦٣ - ٦٤) ثمانية وعشرين بيتاً ، وفي الشابي (ص ١٥٢ -

١٥٥) ثمانية وخمسين .

ومن لم يعانقه شوق الحياة^١ ،
كذلك قالت لي الكائنات^٢
ودمدمة^٢ الريح بين الفجاج
إذا ما طمحت إلى غاية
ولم تخوف^٢ وعور الشباب
ومن لا يحب صعود الجبال
فعبت بقلبي دماء الشباب ،
واطرقت أصفي لعزف الرياح
وقالت لي الأرض - لما تساءل
« ابارك في الناس اهل الطموح
وألعن من لا يماشي الزمان^٣
هو الكون حي يحب الحياة
فلا الأفق يحضن ميمت الطيور
ولولا امومة قلبي الرزوم
فويل لمن لم تشقه الحيا

*

وفي ليلة من ليالي الحرير
سكرت بها من ضياء النجوم
سألت الدجى هل تعيد الحياة
فلم يتكلم فؤاد الظلام
وقال لي الغاب في رقعة
يجيء الشتاء شتاء الضباب ،
ف « مثقلة بالأسى والضجر ،
وغثيت للنهر حتى سكر ،
- لمن اذبلته - ربيع العمر؟
ولم تترنم عذارى السحر .
حبيبة مثل خفتق الوتر :
شتاء الثلوج ، شتاء المطر ،

(١) يقصد : الشوق الى الحياة .

(٢) في فهمي : ودمدمة ، وفي الشابي ، ودمدمت . ولكن « دمدمة » اصح لأنها عطف على فاعل الجملة الاصلية (الكائنات) لا على فعل الجملة المعطوفة (وحدثني) .

(٣) ولا الكبة في الهمز المستمر .

فينطفئ، السحر : سحر العصون
 وسحر السماء القوي البديع
 وتموي العصون وأوراقها
 وتلهو بها الريح في كل وادٍ
 ويفنى الجميع كحلم بديع
 وتبقى البذور التي حُمِلَتْ
 وذكري فصول ورؤيا غيوم
 معانقة وهي تحت الشنوج
 لضيف الحياة الذي لا يُمَلُّ
 وحاملة بأغاني الطيور
 ويمشي الزمان فتنمو صروف
 وتصبح احلامها يقظةً
 تسائل : اين ضباب الصباح
 واسراب ذاك الفراش الجميل
 ظمئت الى النور فوق العصون،
 ظمئت الى النبع بين المروج
 ظمئت الى الكون، اين الوجود
 هي النور بين رحاب الفضاء
 وما هو إلا كخفق الجنا
 فصعدت الارض عن صدرها
 وجاء الربيع بأطيافه
 وقبلها قبلة في الشفاء
 وقال لها قد منحت الحياة
 ومن ناجت النور احلامه

(١) كذا في الاصل . عفر في القاموس : ضرب به الارض .
(٢) ؟

اليك الفضاء ، اليك الضياءَ
 فميدي كما شئت فوق المروج
 وناجي النسيم وناجي الغيوم
 وناجي النجوم وناجي القمر؛
 ولا تسامي نغمات الحياة
 ولا فتنة العالم المعتبر .

*

وشف الدجي عن جمال عميق
 قوميّ الغواية حلوا الصور؛
 ومُدَّ على الكون سحر غريب
 يصرفه ساحر مقتدر .
 وضاءت شموع نجوم السماء ،
 وضاع البخور بنجور الزهر ،
 ورفرف روح غريب الجمال
 بأجنحة من ضياء القمر ،
 ورق نشيد الحياة المقدّ
 س في هيكل حالم قد سحر .
 وأُعلنَ في الكون ان الطموح
 حبيب الحياة وروح الظفر .
 إذا طمحت للحياة النفوس
 فلا بد ان يستجيب القدر .



الرتاء وما يلحق به

وكذلك ليس للشابي رثاء بالمعنى المصطلح عليه في فنون الادب عامة. ولكن له تحليلاً لنفسه هو صاغه في ثمانية ابيات لما توفي والده. في هذه المقطوعة يبين لنا الشابي لماذا كان مخطئاً في تشاؤمه. كان الشابي يعتقد، حينما كان في كفالة ابيه غير شاعر بتكاليف الحياة، ان الحياة المادية لا قيمة لها فكان يصرف وجهه عن الحياة كلها. اما الآن فقد صدمه واقع الحياة واره ملء عينيه ان المرء لا يحيا إلا اذا كفي في حياته، ولا يستطيع الانسان الكد الا اذا كان متفائلاً. والشابي هنا لم يبتكر اسلوب الرثاء الذي جرى عليه لما ذكر وفاة والده ذكراً عارضاً ثم استطرد الى تحليل نفسه والى النظر في واقع الحياة. لقد فعل ذلك قبله كثيرون منهم جرير وبشار وابن الرومي في رثاء ابنائهم.

قال الشابي في رثاء والده :

ما كنت احسب بعد موتك يا بني، ومشاعري عمياء بالاحزان ،
اني سأظماً للحياة واحتسي من كأسها المتوهج النشوان ؛
واعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والاحزان
ولكل ما في الكون من صور المني وغرائب الاهواء والاشجان
حتى تحركت السنون واقبلت فتن الحياة بسجورها الفئان .
فاذا انا طفل الحياة المنتشي شوقاً الى الاضواء والالوان ،
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البتهان والهديان .

(١) الشابي ٦٦ - ٦٧ ، ١٤٦ .

ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادقُ الايمان .

وهنالك قصيدة يصح ان تعد في باب الرثاء مطلعها :^١

يا ايها الطفلُ الذي قد كان كالحن الجليل .

هذه القصيدة قسمان : قسم يبلغ اثنين واربعين بيتاً يصف فيها الشاعر موت طفل وصفاً خيالياً ويذكر كيف ان الناس يحزنون قليلاً لموته ثم ينسونه . حتى مظاهر الطبيعة كأمواج البحر والبلبل والجداول كلها تنساه . اما رفاق هذا الطفل فانهم يظلون يتساءلون عنه مدة ثم يعلمون ان الغيلان قد حملته في الليل الى مكان ناء فينسونه مرة واحدة ايضاً .

نَسَيْتَكَ امواج البحيرة والنجوم اللامعة
والبلبل الشادي وها تيك المروج الشامعه
وجداول الوادي النضير بهمسها وخريرها
ومسالك الجبل الصغير بعشبا وزهورها .
حتى الرفاقُ فإنهم لبثوا مدى يتساءلون ،
في حيرة مشبوبة : اين اختفى عنا الامين ؟
لكنهم علموا بانك في اللبالي الداجية
حملتك غيلان الظلام الى الجبال النائية ،
فنسوكَ مثل الناس واز صرفوا الى اللهو الجميل
بين الجمائل والجداول والروابي والسهول .

ثم هنالك في هذه القصيدة قسم آخر يبلغ اربعة وخمسين بيتاً يصف فيه الشاعر قلب الام وكيف انه هذا القلب وحده لا ينسى . واذا اراد ان ينسى فكل ما في مظاهر الوجود يذكره « بالصغير الميت » . وفي هذا القسم تأمل في الموت والحياة :

كل نسوك ولم يعو دوا يذكرونك في الحياة ؛
والدهر يدفن في ظلام الموت حتى الذكريات

(١) الشابي ١٧٦ - ١٨١ .

إلا فؤاداً ظل يح
 ويودُّ لو بذلَ الحيا
 فاذا رأى طفلاً بكما
 يصغي لصوتك في الوجو
 يصغي لنفمتك الجمي
 في انثة المزمــــا
 في ضجة البحر المجلا
 اعرفت هذا القلب في
 هو قلب امك ، امك
 هذا هو القلب الذي
 يشدو بشكوى حزنه
 لا ربة النسيان تر
 كلا ولا الايام تُبلى
 إلا إذا ضفرت له الاق
 وغدا شقيماً ضاحكاً
 هو ذلك القلب الذي ،
 وتدفع الزمن المدم
 وتغنت الدنيا وغر
 سيظل يعبدُ ذكربا
 فتن في الوجود الى لفاك
 الى المنية وافتدك .
 ، وان رأى شبحاً دعاك ؛
 ولا يرى إلا بهاك ،
 لمة في خرير الساقية ،
 ، في لغو الطيور الشادية ،
 جل ، في هدير العاصفه . . .
 ظماء هاتيك اللحود ؟
 السكرى باحزان الوجود .
 سيعيش كالشادي الضرير
 الداجي الى النفس الاخير .
 حم حزنه وترى بكاه ؛
 في اناملها اساه
 دار اكليل الجنون
 تلهو بمراه السنون .
 مها تقلبت الحياة
 دم في شعاب الكائنات
 د بلبل الغاب الجميل ،
 نك لا يَمَلُّ ولا يميل . . .

هذه القصيدة - على ما فيها من تطويل وما في اسلوبها من تمططي ، وجدانية جيدة .
 ويشبه ان يكون الشابي يرثي بها نفسه .

وثمت ايضا قصائد لا شك في ان الشابي رثي فيها حبيبته التي ماتت ، منها هذا
 الموشح ' .

(١) سنوسي ٢٢٨ - ٢٢٩ ، الشابي ١١٦ - ١١٧ .

ليت شعري،

أي طير

يسمع الأحزان تبكي بين احشاء الكئيب
ثم لا يتلو على الفجر - اغاريد النجيب
بجشوع واكتئاب؟

.....

في الدياجي

كم أناجي

مسمع القبر بغصّات نجيب وشجوني!
ثم أصغي علّني أسمع ترديد انيني
فأرى صوتي فريد!

فأنادي :

يا فؤادي ،

مات من تهوى ؛ وهـذا اللحد قد ضم الحبيب
فابك ، يا قلب ، بما فسد لك من الحب الكئيب :
إبك ، يا قلب ، وحيد!

مات حبي ؛

مات قلبي .

فاذرنني ، يا مقلّة الليل ، الدراري عبّرات
فوق قلبي فهو قد ودّع أوجاع الحياة
بعد ان ذاق اللهب .

وللشابي قصيدة طويلة تبلغ ستة وخمسين بيتاً مطلعها^٢ :

(١) حي بكسر الحاء : محبوبي .

(٢) سنوي ٢١٥ - ٢١٨ ، الشابي ١٢١ - ١٢٤ .

أيا الليل ، يا أبا البؤس والهول
ل ويا هيكال الزمان الرهيب ،
يقول فيها :

جرفت من قرارة القلب احلا
فتلاشت * على تخوم الليالي
وتهاوت الى الجحيم الغضوب .
وثوى في دُجْنَةِ الليل وَمَضُ
لم يزل بين جَيْئَةٍ وذُهب .
ذكريات تمس في ظلمة القَبْرِ
رِـ ضئالاً كرائعات المشيب!
وله قصيدة اخرى مطلعها ١ :

سئمت الحياة وما في الحياة
ولما تجاوزت فجر الشباب
تنتهى بالايات التالية :

ذوت في الربيع ازاهيرها
فمِتْنِ واحلامهن العذاب .
لَوَيْنَ النحور على ذلةٍ
ونِـنَ وقد مصهن التراب .
فمال الجمال وغاض العبير ،
واذوى الردى جفن تلك الكمام .

ونحن اذا قرأنا كثيراً من قصائد الشابي بشيء من انعام النظر والتأمل ألفيناها في رثاء
تلك الحبيبة التي فقدتها الشاعر في ربيع حياته وحياتها . من ذلك مثلاً قصيدته التي تعد
اربعة وتسعين بيتاً والتي يتكلم فيها على شعره خاصة وعلى الشعر عامة ٢ :

يا شعر ، انت فم الشعور
ر وصرخة الروح الكئيب .

ثم ان الشابي يقول في هذه القصيدة نفسها ٣ :

ارابت أزهار الربيع
وقد ذوت اوراقها
فهوت الى صدر التراب
بوقد قضت اشواقها؟
ارابت سُجُورَ الفلا
مُتَرْنَمًا بين الغصون

(*) فتلاشت احلامي .

(١) سنوسي ٢١٩ ، الشابي ١٢٥ .

(٢) سنوسي ٢٢١ ، الشابي ١٣٥

(٣) سنوسي ٢٢٤ ، الشابي ١٣٨

جَمَدَ النَشِيدُ بِصَدْرِهِ لَمَّا رَأَى طَيْفَ الْمُنُونِ ؛
 فَفَضَى وَقَدْ غَاضَتْ أَغَا رِيدَ الْحَيَاةِ الطَّاهِرَةِ
 وَهَوَى مِنَ الْإِغْصَانِ مَا بَيْنَ الزُّهُورِ الْبَاسِرَةِ ١ ؟
 أَرَأَيْتَ أُمَّ لِلطِّفْلِ تَبًا كَيْ ذَلِكِ الطِّفْلِ الْوَحِيدِ
 لَمَّا تَنَاوَلَهُ بَعْدَ فَمَا سَاعِدُ الْمَوْتِ الشَّدِيدِ ؟
 اسْمَعْتَ نُوحَ الْعَاشِقِ الرَّوَّا هَاهُنَا مَا بَيْنَ الْقُبُورِ
 يَبْكِي حَبِيبَتَهُ ؟ فَيَا لِمَا صَارَ الْمَوْتُ الْجَسُورَا !

ولا ريب في ان قصيدة الشابي ٢ :

بِالْأَمْسِ قَدْ كَانَتْ حُبَا تِي كَالسَّمَاءِ الْبَاسِمَةِ
 وَبِالْيَوْمِ قَدْ أَمَسَتْ كَأَنَّ مَاقَ الْكَهْفِ الْوَرَامِ ٣

والتي يقول فيها عن حبه الذي يشبهه بالجدول ثم ينسب تفجيريه في مهجته الى فتاة كانت له حيناً سعادة ثم توارت بالموت، هي في الفتاة التي احبها بعد زواجه. يقول الشابي في هذه القصيدة:

هُوَ جَدُولٌ قَدْ فَجَّرَتْ يَنْبُوعَهُ فِي مَهْجَتِي
 أَجْفَانُ فَاتِنَةٌ ارْتَدَّتْ نِيهَا الْحَيَاةُ لِشَقْوَتِي :
 أَجْفَانُ فَاتِنَةٌ تَرَا مَتَّ لِي عَلَى فِجْرِ الشَّبَابِ
 كَمَرْوَسَةٍ مِنْ غَانِيَا تِ الشَّعْرِ فِي شَفَقِ الْمَحَابِ ،
 ثُمَّ اخْتَفَتْ خَلْفَ السَّمَاءِ وَرَاءَ هَاتِيكَ الْغَيُومِ .
 حَيْثُ الْعَذَارَى الْخَالِدَا تِ يَمَسُّنَ مَا بَيْنَ النُّجُومِ .
 ثُمَّ اخْتَفَتْ ، أَوْ آهَ ، طَا ثَرَةً بِأَجْنَحَةِ الْمُنُونِ
 نَحْوَ السَّمَاءِ . وَهِيَ أَنَا فِي الْأَرْضِ تَمَثَّلُ الشُّجُونِ .

(١) معنى البيت غامض

(٢) سنوي ٢٥١ ، الشابي ٧٤ و ١٢٨ .

الموضوعيات

في مجموعة شعر الشابي قصائد أراد ان يعالج الشاعر فيها موضوعات معينة وإن لم تتأت له هذه المعالجة إلا قليلاً. اما ابرز الموضوعات التي أراد ان يتناولها فموضوع «الشعر والشاعر» وموضوع «الفنان» و«القلب». وهناك نظراته في الموت والحياة سأفرد لها فصلاً خاصاً لكثرتها.



لا نستطيع ان نقول ان للشابي آراء حكيمة أو صائبة في الحياة لاسباب مختلفة، اولها وأعظمها انه كان شاعراً وجدانياً ينساق مع عاطفته ولا ينظر إلى الامور بعقله. ثم انه لم يبلغ مبلغاً من السن يؤهله لقول الحكمة، على الرغم من انه كان يزعم - من قبل ان يبلغ العشرين - بأن التجارب قد حنكته! ومع ذلك كله فان له ابياتاً في الحكمة متفرقة له فيها فضل حسن الصياغة لا فضل الابتكار، وفضل اللفظ لا فضل المعنى. فمن ابياته العامة في الادب والتي ينظر فيها الى الحياة نظرة فاحص قوله:

لقد خدعتني في الحياة شيبتي ولكنني قد حنكنتي التجاربُ .
فقد كنت ألقى للدجى برغائبي فأبصرها فوق الدنا تتخاطب .
ولكن احلام الشباب ضئيلة تحطمها، مثل الغصون، المصائب .

* * *

(١) سنوسي ٢٤٣

سألت الدياجي عن اماني شبيبتي فقالت ترامتها الرياح الجوانب .
ولما سألت الريح عنها اجابني تلقفها سيل القضا والنواب
فصارت عفاء، واضمجت كذرة، على ساطىء الأيام، والموج صاخب .

إن هذه الايات التي يزعم الشابي فيها أنه محنك نافذ البصر تنكشف - على رغم ما فيها من قوة بناء ظاهرة - عن ضعف في اللغة . وإن أدنى تأمل فيها يكشف عما فيها من عيوب في استعمال « ترامتها » وفي تذكير « الريح » وسواهما .

وهنالك مقطوعة اخرى عامة في الادب فيها من ضعف التركيب وتكرار المعاني ما في القطعة السابقة ^١ :

ضعف العزيمة لحد في سكينته	تقضي الحياةُ بناهـ اليأس والوجل .
وفي العزيمة قوات مسخرة	يخر دون مداها الشامخ الجبل .
والناس شخصان : ذا تسعى به قدم	من القنوط ، وذا يسعى به الأمل :
هذا إلى الموت والأجدات ساخرة	وذا إلى المجد والآمال تتصل .
ما كل فعل يجل الناسُ فاعله	مجداً، ولا كل من خاض الدجى بطل .
المجد صنقات : صنف في تقابله	لحن الخلود وصنف فوقه اجل .
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها	فم الزمان إذا ما أنسدت الخيل .
وليس بالمجد ما تشقى الحياة به	ويحسد اليومُ امساً ضمّه الأزل .

ومن قصائد الشابي التي تشبه ان تكون موضوعاً لأنها تتناول موضوعاً واحداً معيناً وتنطوي على شيء من التحليل الموضوعي قصيدة له مطلعها ^٢ :

يا قلبُ ، كم فيك من دنيا محجّبةٍ كأنها حين يبدو فجرها إرَمٌ ^٣ ،

تكلم فيها الشاعر على القلب فقط لم يتجاوزهُ الى غيره . ومع ان في هذه القصيدة جنوحاً

(*) بناه : بنى اللحد . تقضي الحياة : تموت .

(١) سنوسي ٢٣٨

(٢) الشابي ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) ارم مدينة قديمة كانت عظيمة مزدهرة قوية ثم خربت : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد : ارم ذات المهاد، التي لم يخلق مثلها في البلاد » (القرآن ٨٩ : ٦ - ٨ من سورة الفجر . راجع ايضاً مقدمة ابن خلدون (١٤) .

كثيراً الى الخيال والذكريات فان الشاعر يذكر شيئاً من اختبارات القلب وآفاته. ولعله يخاطب بهذه القصيدة قلبه :

ياقلب، كم من مسرّاتٍ وأخْبِيلَةٍ ولذة ، يتجامى ظلّها الأُمُ ،
 غنت لـفـجـرك صوتاً حالمًا فـرحاً 'نشوان' ، ثم توارت وانقضى النغم !
 ياقلب ، كم قد تمّلتِ الحياةَ وكم راقصتَها مرحاً ما مسك السأم ؛
 وكم نسجت من الاحلام ارديةً قد مزقتها الليالي وهي تبتمس ؛
 وكم ضفرتَ اكاليلًا موردة طارت بها زرع تدوي وتحدثم ،
 وكم رسمت رسوماً لا تشابهها هذي العوالم والاحلام والنظم :
 كأنها ظلل ٢ الفردوس حافلة بالحور ، ثم تلاشت واختفى النغم .
 تلو الحياة فتبليها وتخلعها وتستجد حياةً ما لها قِدم .
 وانت انت : شباب خالد نضر مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم .

ويتصل بهذه القصيدة قصيدة اخرى تناسبها في الموضوع لانها تتحدث ايضا عن القلب، ولكن الشاعر يبدأها بالكلام على الشعور والعاطفة والفرن . مطلع هذه القصيدة ١ :

عش بالشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور .
 شيدت على العطف العميق، وانها لتجف لو شيدت على التفكير .

وهي تنتهي بالمقطع التالي :

وافتح فؤادك للوجود وخطه ليم ، للأمواج ، للديجور ،
 لللحج تنثره الزوابع ، للاسى ، للهول ، للآلام ، للمقدور .
 واتركه يقتحم العواصف هائماً في اقمعها المتلبد المرقور ،
 ويخوض احشاء الوجود مقامراً في ليها المتهبب المحذور ،
 حتى 'تعاقنه الحياة فيرتوي من ثغرها المتأجج المسجور
 فيعيش* في الدنيا بقلب زاخر يقظ المشاعر حالم مسجور :
 في نشوة صوفية قدسية هي روح هذا العالم المنظور .

(١) الشابي ٢٠٦ - ٢٠٧ . (*) في الاصل : فتعيش .

(٢) الظالم « بضم الظاء وفتح اللام جمع ظلة بضم الظاء وتشديد اللام » : السحاب المترابك المترابك، وشيء كالسقف فوق الرؤوس. وقد وردت هذه الكلمة ست مرات في القرآن الكريم، ولكن لم تستعمل في الخبر والسعادة كما استعملها الشابي هنا .

وكرّرت اشعار الشابى فى الشعر والشاعر قبل العشرين من عمره وبعدها : إنه ينظم الشعر لِسَرَّيَ به عن نفسه ويصور حاله . ثم هو لا يتكسب بشعره ولا يتملق فيه احد ، بل يريد ان يرضى به ضميره ويرضى به وطنه . وللشابى قبل بلوغ العشرين قصيدتان تناول فيهما الكلام على الشعر ، على شعره ، وأجاد فيهما . اما القصيدة الاولى فى ١ ،

شعري نفاثة قلبي ان جاش فيه شعوري .
لواه ما انجاب عني غيم الحياة الخطير ؛
ولا وجدت اكتئابي ، ولا وجدت سروري .
به تراني حزينا ابكي بدمع ذري .
به تراني فروحا ٢ اجر ذيل حبوري .

*

لا انظم الشعر ارجو به رضاء الامير :
بمدحة او رثاء تهدى لرب السرير .
حسبي اذا قلت شعرا ان يرتضيه ضميري !

*

ما الشعر الا فضاء يرف فيه مقالي
فى ما يسر بلادي ، وما يسر المعالي ،
وما يثير شعوري من خافقات خيالي .

*

لا اقروض الشعر ابغي به اقتناص نوال .
الشعر إن لم يكن فى جماله ذا جلال
فانما هو طيف يسمى بوادي الضلال ،
يقضى الحياة طريدا فى ذلة واعتزال .

(١) سنوي ٢٢٧ ، الشابى ٩٩ .

(٢) كذا .

وهنالك قصيدة ثانية طويلة جداً يناجي بها الشابي شعره . إن الشعر مظهر لبؤس النفس وصوت نواحيها. من اجل ذلك يطلب الشابي الى قلبه ان يتجلد في النوائب ويتجمل في المصائب وأن يكون متفائلاً . غير أن الشابي كثير الاحزان فهو لا يملك إلا ان يحزن ، من اجل ذلك فقط نراه ينوح في قصائده وعلى احلامه التي ذهبت ادراج الرياح. والقصيدة التي نحن بصددتها تشبه الرباعيات المزدوجة ، على اعتبار ان كل بيتين منها يجمعهما روي واحد . وازدواج هذه الرباعيات يعود الى أن كل اربعة ابيات منها يدوران على معنى واحد ، على الرغم من ان لهما رويين مختلفين . على ان الشابي لا يتقيد دائماً بازدواج الرباعيات في المعنى ، بل يستمر المعنى في ازدواج متعدد من الرباعيات . قال الشابي يخاطب شعره^١ .

- يا شعر - انت فم الشعور وصرخة الروح الكئيب .
يا شعر - انت صدى نحيب القلب والصب الغريب .
يا شعر - انت مدامع علقت باهداب الحياة .
يا شعر - انت دم تفجّر من كلوم الكائنات .
يا شعر ، قلبي - كما تدري - شقيّ مظلم ،
فيه الجراح النجل^٢ ، يقطر من مغاورها الدم .
جمدت على شفّتيه ارزاء الحياة العابسه .
فهو التعيس ، به مرارات القلوب اليابسه .
ابدأ ينوح بحرقّة بين الاماني الهاوية
كالبلبل الغريد ، ما بين الزهور الداوية .
كم قد نصحت له بان يسلو ، وكم عزّيتُه !
فأبى وما اصغى الى قولي ، فما اجديته^٣ .
كم قلت : صبراً ، يا فؤادُ ، اما تكف عن النحيب ؛
فاذا تجلّدت الحياة تبددت شعل اللهب .

(١) سنوسي ٢٢١ - ٢٢٦ ، الشابي ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) النجل : الواسعة ، العميقة

(٣) ما اجديته : ما نفعته ، ما استطعت ان انفعه .

يا قلب ، لا تجزع امام تصلب الدهر المصور .
 فاذا صرخت توجعاً ، هزئت بصرختك الدهور .
 يا قلب ، لا تسخط على الايام فالزهر البديع
 يُصغي لضجّات العواصف قبل انغام الربيع .
 يا قلب ، لا تقنع بشوك اليأس ما بين الزهور ،
 فواء اوجاع الحياة عذوبة الامل الجسور .
 يا قلب ، لا تسكب دموعك بالفضاء فتندم ٢
 فعلى ابتسامات الفضاء قساوة لا ترجم .

لكن قلبي ، وهو مخضّل الجوانب بالدموع
 جاشت به الاحزان اذ طفت بها تلك الصدوع .
 يبكي على الحلم البعيد ... بلوعة لا تنجلي
 غرداً ، كصدّاح الهوائف في الفلا ، ويقول لي :
 طهّر كلامك بالدموع وخلها وسيلها .
 إن المدامع لا تضيع ، صغيرها وجليلها .
 فمن المدامع ما تدقّع ، جارفاً حسك الحياة
 يرمي لهاوية الوجود بكل اشواك الطفاه .
 فارحم مضاضته ، ونح معه على احلامه .
 فلقد قضى الحلم البديع على لظى آلامه .
 ردد على سمع الدجى أنات قلبي الواهية ،
 واسكب بأجفان الزهور دموع قلبي الداميه ؛
 فلعل قلب الليل اشفق ٣ بالقلوب الباكيه !
 ولعل جفن الزهر احفظ للدموع الجاربه !

(١) قبل ان يصغي الى انغام الربيع . انه يهتّم بالاصفاء الى العواصف لانه يخشاها ثم لا يبالي بانغام الربيع لأنها لا تضره .

(٢) لا يجوز هنا تسكين القافية . والشايب يرفع « فتندم » مع ان حقها النصب .

(٣) يقصد : اكثر اشفاقاً على القلوب الباكية .

كم حركتُ كَفَ الِاسَى اناور ذبَاك الحنينُ
فتهاملتُ (?) احزان قلبي في اغاريد الانين .
ولكم ارقنتُ مدامعي حتى تقرحت الجفونُ ؟
ثم التفتتُ فلم أجد قلباً ، يقاسمني الشجون .
فعمسى يكون الليل ، ارحم ، فهو مثلي يندبُ ؛
وعسى يصون الزهر دمعي ، فهو مثلي يسكب .

قد قنعتُ كَفَ السَما الموتَ بالصمت الرهيبِ
فعدا كأعماق الكهوف ، بلا ضجيج او وجيب ،
يأتي بأجنحة السكون كأنه الليل البهيمُ .
لكن طيف الموت قاس ، والدجى طيف رحيم .
ما للمنية لا ترقُّ على الحياة النائمة ؟
سيان افئدة نثن ، او القلوب الصادحة .
يا شعر ، هل خَلِقَ المنون بلا شعور كالجماد ،
لا رعشة تعرو يديه إذا تملقه الفواد !
ارأيت ازهار الربيع وقد ذرت اوراقها
فهوت الى صدر التراب وقد قضت اشواقها ؟
ارأيت سُجُور الفلا ، مترنماً بين الغصون ،
جَدَّ النشيدُ بصدرة لما رأى طيفَ المنون ؛
ففضى وقد غاصت اغاريد الحياة الطاهرة ،
وهوى من الاغصان ما بين الزهور الباسرة ؟
ارأيت أم الطفل تبكي ذاك الطفل الوحيدُ
لما تناوله بعنف ساعدُ الموت الشديد ؟

(١) بإسرة : متجممة ، غابة حزناً على الشحور الذي مات .

اسمعت نوح العاشق الولهان ما بين القبور
يبكي حبيبته؟ فيا لِمَصَارِعِ الموت الجسور^١!

طفحت باعماق الوجود سَكِينَةَ الصبر الجليد
لما رأى عدلَ الحياة يضمه اللحد الكنود
فندفقت لحناً يردده على سمع الدهور
صوت الحياة بضجة، تسمى على شفة البحور^٢ .
يا شعر - انت نشيد امواج الخضم الساحرة
الناصعات، الباسمات، الراقصات، الطاهره،
السافرات، الصادحات، مع الحياة، الى الأبد!
كعرائس الأمل الضحوك، يَمْسِنَ ما طال الامد.

*

ها إن ازهار الربيع تبسمت اكمامها
ترنو الى الشفق البعيد، تعرّرها احلامها .
في صدرها امل يحدّق نحو هاتيك النجوم .
لكنه املٌ ستلجج حبابه الوجوم .
فلسوف تغمض جفنها عن كل اضواء الحياة
حيث الظلام مخيمٌ في جو ذبائك السبات .
ها انها همست بأذان الحياة غريدها (?)
فتلت عصفير الصباح صداحها ونشيدها .
يا شعر - انت نشيد هاتيك الزهور الباسمة .
يا ليتني مثل الزهور بلا حياة واجمه .

(١) للمصارع التي يأتي بها الموت .

(٢) الضمير في « تدفقت » وفي « تسمى » يعود على « الحياة » .

ان الحياة كثيبة ، مغمورة بدموعها .
والشمس اضجرتها الأسي في صجوها وهجرها ،
فتجرت كاساً دهاقاً ، من مُشَمَّعة الشفق
فتأملت سكرى الى كهف الحياة ولم تُتَقِ ...
يا شعر - انت نخبها لما هوت لسباتها .
يا شعر - انت صداحها في موتها وحياتها !

*

انظر الى شفق السماء يفيض عن تلك الجبال
بشعاعه الخلاب يغمرها ببسات الجبال ،
فيشير في النفس الكثيبة عاصفاً لا يركد ،
ويؤجج القلب المعدب شعله لا تخمد .
يا شعر - انت جمال اضواء الغروب الساحرة ،
يا همس امواج المساء الباسمات الحائرة .
يا شعر - يا قبارة الاحلام ، يا ابن صباوتي !
لولاك مت بلوعتي وبشقوتي وكآبتي .
فيك انطوت نفسي وفيك سكبت كل مشاعري .
فاصدق على قلم الحياة بلوعتي ، يا طائري !

وظل إعجاب الشابي بشعره وآرائه في الشعر زمناً طويلاً بعد بلوغه العشرين . وله
في هذا الدور ثلاث قطع قصار . فالشابي يرى ان شعره قطعة من نفسه يمثله ويصور ما
يجيش في صدره هو ، ثم ان هذا الشعر ايضاً يمثل العالم الذي يحيا فيه الشاعر او الذي
يجب ان يحيا فيه الشاعر . انه على كل حال صفحة من حياته .

والشابي لا يزال - في هذا الدور - يرى انه يقول الشعر ليُسَرِّي به عن نفسه في هذا
العالم المملوء بالآلام وبالاحزان وبالبشر الذين يحبهم هو وإن كانوا هم لا يشعرون بهذا
الحب او لا يستحقونه . إن الشابي ينظم الشعر لأنه يريد ان ينظمه بصرف النظر عن

وجود اشخاص يمكن ان يستفيدوا من هذا النظم فيستثيروا به او يهتدوا . انه كالطيور التي تغرد وكالنجوم التي تنير وكالورود التي تفوح رائحتها سواء أكان هنالك بشر يستفيدون من ذلك كله او لم يكن ، وسواء أكان هؤلاء اهل لهذه النعم او لم يكونوا . يقول الشابي في ذلك كله ١ :

أنت ، يا شعرُ ، فلذةٌ من فؤادي	تفتني وقطعة من وجودي .
فيك ما في جوانحي من حنين	أبدِيَّ إلى صميم الوجود .
فيك ما في خواطري من بلاء ،	فيك ما في عواظفي من نشيد .
فيك ما في مشاعري من وجوم	لا يغتبي ومن سرور عهد .
فيك ما في عوالمي من ظلام	سرمديٍّ ومن صباح وليد .
فيك ما في عوالمي من نجوم	ضاحكات خلف الغمام الشرود .
فيك ما في عوالمي من ضبابٍ	وسرابٍ ويقظة وهجود .
فيك ما في طفولتي من سلام	وقنوعٍ وغبطة وسعود .
فيك ما في شيبتي من أمانٍ	باسماتٍ ومن غرامٍ سعيد .
فيك ما في شيبتي من قنوط	مدلهمٍ وحيرةٍ وجمود .
فيك تشدو مع الربيع طيورِي	وتغني مع الصباح ورودي .
فيك أُلقي بذور نفسي فتُدلفي	في ثناياك خير نبع برود .
فيك أجنِي في الصيف ما بذرت نَفـ	سي حوالبك من بذور الخلود .
فيك ترعى من الحريف أعاصير	ري وتَدُري صواعقي ورعودي .
فيك تذوي زهور قلبي فتُلقي	ما لها من غدائرٍ وبرود .
فيك يبدو شتاء نفسي عبوساً	شاحب اللون عاري الأملود .
كَلاتِه الحياة بالحزن الدا	مي وغششته بالرياح السود .

*

أنت ، يا شعر ، صفحة من حياتي ؛ أنت ، يا شعر ، قصة من وجود .

أنت ، يا شعر ، إن فرحتُ أغاريد
 أنت ، يا شعر ، كأسُ خمر جميل
 أنحسّاه في الصباح لأنسى
 وأناجيه في المساء لألهو
 أنا - لولاك - لم أطقُ عَنَّتَ الده
 أنت ما نلتُ من كهوف الليالي
 فيك ما في حقبة الكون من عَقْد
 فيك ما في الوجود من حَلَك دا
 فيك ما في الوجود من نَعَم حُد
 فيك ما في الوجود من جبل وعُد
 فيك ما في الوجود من حَسَك يُد
 فيك ما في الوجود من زَهَرٍ حل
 فيك ما في الوجود من وَهَج الصي
 فيك ما فيه من خريفٍ حزين ،
 فيك ما في الوجود : حَبُّ بنو الدز
 فسواء على الطيور - إذا غنّت
 وسواء على النجوم - إذ لا
 وسواء على الورود أفي الغيـ

-دي ؛ وإن رنّتِ الكآبة عودي .
 أنلّهى به خلال اللحد .
 ما تقصّي في أمسي المفقود ؛
 بمجْمِيّاه عن ظلام الوجود .
 -ر- ولا فرقة الصباح البعيد .
 وتصفحتُ من كتاب الخلود .
 دِ حصي زائفٍ ودرّ نضيد .
 جِ وما فيه من ضياء بعيد .
 -و- وما فيه من زئير الأسود .
 -ر- وما فيه من حضيض وهيد ١ .
 مي وما فيه من غضيض الورود .
 وِ وما فيه من هشيم حصيد .
 -ف- وما فيه من شتاء عتيد ٢ .
 فيك ما فيه من ربيع جديد .
 يا قصيدي أم لم يجبوا قصيدي ٣ .
 ت - هتاف الشؤوم والمستعيد ٤ .
 حت - هدوء الدجى وقصف الرعود ٥ .
 -ران ٦ فاحت أم بين نهد وجيد !

وللشابي مقطوعة بعدد فيها بعض ما يجول في خاطر الشاعر - أو في قلبه على حد تعبيره -
 إنه يعيد هنا في هذه المقطوعة القصيرة ما عدده في القصيدة الطويلة السابقة . والشابي متأثر

(١) يقصد « عميق » .

(٢) يقصد « شديد » .

(٣) حب فعل ماضٍ مثل أحب . ولكن بعد سواء يجان يأتي الفعل مسبوقةً بهمزة الاستفهام : أحب ، أحب ...

(٤) الذي يقاطع المعنى بهتاف الاستهزاء أو الاستحسان .

(٥) في الاصل (الثاني ١٤٤ ، البيت الرابع من اسفل) : قصف الورود ، ولعله خطأ مطبعي . ولكن

لا تزال نقرأ في الطبعة الثانية (بيروت ١٩٥٤) : قصف الورود (ص ١٦٣) .

(٦) الغيران جمع غار : التجويف في الجبل .

في هذه القصيدة - في الأرجح - بمقطوعة لمحيي الدين بن عربي^١ يرى فيها ان جميع
مظاهر هذا الوجود تدل على هذا التجلي او على ذلك التجلي من الالوهية . يقول ابن عربي^٢ :

كلما أذكره من طلل او ربوع او مغان ، كلما ...
وكذا المحب إذا قلت : بكت ، وكذا الزهر إذا ما ابتسما ،
او بروق او رعود أو صبأً او رباحٍ او جنوبٍ او شما^٣
او نساء كاعباتٍ مُهدٍ طالعات او شمس او دمي^٤ .
صفةٌ قدسيةٌ علويةٌ أعلمت ان لمثلي قدما^٥ .
فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلمها .

ويغلب على الظن ان الشابي قد رأى هذه المقطوعة لمحيي الدين بن عربي قبل ان قال
مقطوعته التالية^٦ :

كل ما هب وما دب وما قام او حام على هذا الوجود :
من طيور وزهور وشدنا وينابيعٍ واغصانٍ تميد ،
وبجار وكهوف وذرى وديار وبراكينٍ وبيد ،
وضياء وظلال ودُجى وفصول وغيوم ورعود ،
وثلوج وضبابٍ عابرٍ واعاصيرٍ وامطارٍ تجود ،
وتعاليمٍ ودينٍ ورؤى واحاسيسٍ وصمتٍ ونشيد ؛
كلها تحيا بقلبي حرة غضة السحر كاطفال الخلود .

-
- (١) فقيه ومتصوف اندلسي عاش في الشرق . ولد سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٥ م) وتوفي ٦٣٨ للهجرة
(١٢٤٠ م) ودفن بدمشق .
(٢) ترجمان الاشواق ، ص ١٣ ، التصوف في الاسلام للدكتور عمر فروخ (بيروت ١٣٦٦ هـ -
١٩٤٧ م) ص ١٩٢ .
(٣) اكفاه او ترخيم من شمال : ربح شمالية .
(٤) دمي : جمع دمية ، وهي الصور المثلثة في المادة .
(٥) قدماً : مقاماً ، مرتبة عالية في التصوف .
(٦) الشابي ١٧٠-١٧١ .

هاهنا في قلبي الرحب العميق^١ يرقص المرت واطياف الوجود.
هاهنا تعصف احوال الدجى ، هاهنا تُعزَف الحان الخلود.
هاهنا تمشي الاماني والهوى والاسى في موكب فخم النشيد.
هاهنا الفجر الذي لا ينتهي ، هاهنا الليل الذي ليس يبديد.
هاهنا ألف خِصَمٍ تائر خالد الثورة مجهول الحدود.
هاهنا في كل آنٍ تَمَّجِي صورة الدنيا تبدو من جديدًا

ثم يمل الشابي العيش في الدنيا مع الناس ، حتى في بلاده وبين امته . وهو يرى انه يجب ان يعيش عيشة شاعر مع مظاهر الطبيعة : مع البلابل في الغابة، ومع النجوم والنهر، ومع الطير والضياء لا يفكر في الناس ولا فيما يهيم الناس من أسباب وجودهم وعيشتهم . إن الاهتمام بالبشر سخافة وأفك وهراء .

لا ريب في ان مبعث هذا التشاؤم الشديد في نفس الشابي اشتداد الداء عليه وبأسه من الحياة ، وخصوصاً بعد ان رأيناه في عدد من قصائده الغزلية والوطنية يجنح احياناً الى الأمل والاطمئنان . وانا لا اقول ان الشابي كان مطمئناً في اول امره ثم انقلب قلقاً . ولكنه كان منذ اول امره يتقلب بين الاطمئنان والقلق وبين الأمل واليأس . إلا ان قلقه وبأسه كانا مع الأيام يزيدان ، وكان اطمئناؤه وأمله ينقصان . وذلك واضح التعليل : إن صحته كانت في تأخر مستمر والخطر على حياته كان في ازديادٍ وبروز ، وهذا ما جعل جانب اليأس في تفكيره يطغى ابدأ على جانب الأمل . هذه العوامل المعتلجة في قلب الشابي تبدو جلية في المقطوعة التالية^٢ :

ليت لي ان اعيش في هذه الدنـ يا بعيداً بوحدتي وانفرادي .
اصرف العمر في الجبال وفي الغاـ بات بين الصنوبر الميَّاد ،
ليس لي من شواغل العيش ما يصـ رف نفسي عن استماع فؤادي .

(١) كذا في الاصل (الشابي ١٧٠ ، البيت الثامن؛ الطبعة الثانية ١٨٨) ولا وجه لتسكين « العميق »
هذه المقطوعة ليست موشحاً حتى يصح تصريع ابياتها. ولو قال : « هاهنا في قلبي الرحب المدى » لاستقام له المعنى ولم يحتاج الي الاخلال الوزن .
(٢) الشابي ١٩٧ .

انفتى مع البلابل في الغا
 وأناجي النجوم والفجر والاط
 عيشةً للجمال والفن ابغية
 لا أعتبي نفسي باحزان شعبي ،
 حسب نفسي من الاسى ما لديها
 وعن الناس ٢ ، لا افكر في النا
 فهو من معدن السخافة والأف
 ابن منه خرير تلك الينابيع
 وحفيف الغصون نَدَّهَا الطَّلُّ وهمسُ النسيم للاوراد ٤ .
 هذه عيشة تقدها نة سي وأدعو لمجدها وأنادي ..

(١) الوادي : النهر .

(٢) يبدو ان ثمت بيتاً سابقاً قبل هذا البيت .

(٣) يقصد : ابن الناس وحديث النوادي من خرير البنايع الخ ...

(٤) الاوراد جمع ورد .

التأمل في الحياة خاصة

إن « التأمل في الحياة » عامٌ في شعر الشابي ، وقد مرَّ طَرَفٌ منه في جميع الأبواب التي عالجناها مما يبرر الاستغناء عن هذا الفصل هنا . إلا ان كثرة شعره الوارد في التأمل في الحياة يقتضي ان نفرد له فصلاً خاصاً .

إذا كان نظر الشابي الى الحياة متأثراً بمرضه ، فلا بد من ان يكون ذلك النظر تشاؤماً محضاً ، وإن كان فيه - بين البيت والبيت - شيئاً من التفاؤل . ولقد نظر الشابي ، حتى في طوره الأول قبل ان يبلغ العشرين ، الى الحياة نظرة سوداء فبدأ في شعره قلق عميق وحيرة امام حوادث الأيام الجارية ، فكان شعره مزيجاً من التشاؤم والتفاؤل . ولكن التشاؤم كان أغلب وأوسع مدى . ولقد حير الشابي ان الحياة لا تتكلم ولا ترد على من يسألها ، ولكنها تعرض على اهلها دائماً كأسين احدهما مملوءة بالهناء والاخرى ممتلئة بالشقاء ثم تقف هي صامته . اما الانسان الغبي الجهول فيتناول عادة من يد الدنيا كأس الشقاء . بعدئذ يدرك الانسان انه اخطأ ، ولكن إصلاح خطاه يصبح متعذراً ، ذلك لأن الزمان يكون قد مر والعمر قد أوشك ان ينقضي والفرصة قد فاتت ، فلا يبقى للانسان حينئذ إلا اللوعة والأسى على تضييع ما ضيع من الفرص وعلى غفلته الاولى عن اغتنام وجه الحياة المشرق المرح . ويعود الشابي فيتساءل عن قيمة الحياة إذا كان كل ما فيها سيؤول حتماً الى الهدم والبلى ؛ بل ما قيمة العقل إذا كانت العقول توزع بين الناس بالاتفاق ثم لا يكون مع «العقل النير» إلا الشقاء ولا مع «العقل المظلم» إلا الجهل . وان الله هو الذي اراد للناس التعس لأنه خلق الجهل وخلق الفهم .

(١) الاتفاق : هي الكلمة الفصحى لكلمة « صدفة » .

هذا المزيج المضطرب من الآراء، وتلك الحيرة امام الحياة وامام الوجود نراهما في قصائد الشابي الاولى، كما نراهما في قصائده المتأخرة. فمن قصائده الاولى قوله ^١ :

ما الذي خلف الغيوم ...؟

ما الذي خلف النجوم ...؟

ما الذي يكتمه الدهر ، ويخفيه الغد ؟ ما الذي يحجبه غيم الحياة ... الأربد ؟

ما الذي خلفك يا ليل ؟ أويل ام سلام ؟ ما الذي خلفك يا ليل أنور ام ظلام ؟

هل سيبدو الفجر بساماً ، كعذراء الخلود تالياً انشودة الحب ، على سمع الوجود ؟

ام سيبدو من وراء الافق ، جباراً عنيد ينذر الايام - بالشر ، وبالهول المرِيد ؟

هل سيبدو الفجر ، يا ليل ! اذا جاء الغد وجناحاه إذا رف اللهب الأسود ؟

ويزيد القلق والتشاؤم في نفس الشابي وتزيد حيرته امام جريان الحوادث فيشد ^٢ :

ان من اصغى الى صوت المنون وصدى الاجداث

ليس تستهويه الحان الطيور ،

بين ازهار الربيع الساحرة ،

وابتسامات الحياة الساخرة ، عن جلال الله.

*

غثني ، يا طير ، انتات الجحيم واسقني الآلام ؛

واترع ^٣ الكأس باوجاع الحياة ،

واسقني ، اني كرهت الابتسام .

غثني ندب الاماني الخائبة والليالي السود.

*

غثني ، صوت الظلام المكتئب انني اهواه .

هاك كأس القلب فاترعه ^٣ نواح ،

(١) سنوي ٢٤٩-٢٥٠ .

(٢) سنوي ٢٣١-٢٢٢ ؛ الشابي ١١٢-١١٣ .

(٣) واترع واترعه لا تستقيان في الوزن ، فيجب ان يكون مكانها : واملأ واملأه .

واسكب الحزن به حتى الصباح .
انه من طينة الحزن المرير صاغه الخلاق .

*

بئست الافراح افرح الحياة ، انها احلام .
تغلب اللب بألحان عذاب
وأغاريد كأملاك السما
ثم لا تلبث ان تذوي كما تذبل الازهار .

ثم يعلن الشابي رأيه في الحياة وانها صراع يداس فيه الضعيف . على أن هذا لا يمنع ان يكون في الحياة بعض الرفق حيناً بعد حين . وهذه القصيدة ليست ضعيفة البناء فقط ، بل هي ضعيفة الرأي ، ولكنها على كل حال تمثله وتمثل اتجاهه ١ :

ان الحياة صراع^١ فيها الضعيف^٢ يداس^٣
ما فاز في ماضيها الا شديد المراس^٤
للحب فيها شجون فكن فتى أاحتواس^٥ .
الكون كون سقاء ، الكون كون التباس .
الكون كون اختلاق وضجة واختلاس .
سيان عندي فيه اله رور والابتئاس .

*

بين النوائب بون^١ للناس فيه مزايا .
البعض لم يدر الا البلا ينادي البلايا^٢ ؛
والبعض ما ذاق منها سوى حقير الرزايا^٣ .
ان الحياة سبات سينقضي بالمنايا .

(١) سنوسي ٢٣٩-٢٤٠ : الشابي ١١٤-١١٥ .

(٢) الماضغان : الفكاهة (الغم) .

(٣) حقير الرزايا : المصائب القليلة . يقصد : بعضهم تنزل به مصائب كبيرة وبعضهم تنزل به مصائب

صغيرة .

وما الرؤى فيه إلا آمالنا والخطايا .
فإن تيقظ كانت بين الجفون بقايا ... ١

*

٢

*

الفجر يسطع بعد الدُّجى ، ويأتي الضياء ؛
ويرقد الليل قسراً على مهاد الصفاء ٣ .
وللشعوب حياةٌ حيناً ، وطوراً فناء .
الياس موت ، ولكن موت يثير الشقاء ٤ .
والجدُّ للشعب روحٌ توحى إليه الهناء .
فإن تولت تصدت حياة للبلاء ٥ .

وفي القطعة التالية يتبع الشابي المعري^٦ في بعض لزومياته^٧ ، فلا يقف متسائلاً امام مظاهر الحياة فقط ، بل يحكم على الناس بالبور وعلى الحياة نفسها بقلة الجدوى وبأن الله هو الذي اراد الشقاء لعباده^٨ :

ارى هبكل الايام يعلو مُشَبِّدًا ، ولا بد ان يأتي على رأسه الهدمُ .
فيصبح ما قد شيد الله للورى خراباً ، كأن الكل في أمسه وهم .

-
- (١) الحياة نوم وحوادثها احلام . وهذه الاحلام متفاوتة ولكنها كلها آمال نتمناها او اخطاء نرتكبها . فإذا استيقظ الانسان (تنبه ، عرف الحقيقة ، مات) ، أصبحت حوادث الايام شيئاً قليلاً لا قيمة له .
 - (٢) هنا يأتي مقطع ركيك جداً وغامض .
 - (٣) ؟
 - (٤) يثير الشقاء « يحدث المصائب » عند الآخرين « عند اهل الميت لا عند الميت » .
 - (٥) في سنوسي ص ٢٤٠ ؛ وفي الشابي ص ١١٥ (الطبعة الثانية ١٣٣) : تومي ، ولعله خطأ .
 - (٦) الضمير في تولت يعود على الروح .
 - (٧) ابو العلاء المعري شاعر ومفكر ولد ٣٦٣ للهجرة ، ٩٧٣ م ، وتوفي ٤٤٩ للهجرة ، ١٠٥٧ م . وكان المعري متشائماً متشاكاً .
 - (٨) اللزوميات مقطوعات متفاوتة الطول مألها المعري بتأملاته في الدهر والحياة والناس .
 - (٩) الشابي ١٢٧ .

فقل لي: ما جدوى الحياة وكرها ، وتلك التي تذوي وتلك التي تنمو ؛
 وفوج تغذيه الحياة لبانها ، وفوج غدا تحت التراب له ردم ؛
 وعقل من الاضواء في رأس نابغٍ . وعقل من الظلماء يحمله فندم ؛
 وافئدة حسرى تذوب كآبةً ، وافئدة سكرى يرف لها النجم ؟

*

لِتَعَسِ الوردى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم .
 واستمر قلق الشابي وتشاؤمه بعد ان جاوز العشرين ، وقل عنده التفاضل حتى ندر في
 اشعاره التي نظمها في طوره الثاني .

ثم عاد الى الشابي شيء من تفاؤله فنظم قصيدة من نوع الرباعيات وصف فيها حياته مع
 محبوبته في الطبيعة الجميلة وطلب من الأحداث ومن الموت نفسه ان تقف كلها بعيداً عنهما
 لأنهما سعيدان^١ :

قد سكرنا مجبنا واكتفينا ، يامدير الكؤوس ، فاصرف كؤوسك .
 واسكب الخمر للعصافير والنحو ل واخلّ الثرى يضمّ عروسك .
 ما لنا والكؤوس نطلب منها نشوةً والغرامُ سحر وسكر .
 خلنا منك ، فالربيع لنا سا ق ، وهذا الفضاء كأسٌ وخر .
 نحن نحيا كالطير في الافق السا جي وكالذحل فوق غضّ الزهور ،
 لا نرى غير فتنة العالم الحيّ واحلامٍ قلبها المسجور .
 نحن نلهو تحت الظلام كطفلي ن سعيدين في غرور الطفولة ،
 وعلى الصخرة الجميلة في الوا دي وبين الخواف المجهوله .
 نحن نغدو بين المروج ونعدو ونغني مع النسيم المغني ؛
 ونناجي روح الطبيعة في الكو ن ونصفي قلبها المتغني .

(١) نهمي ٤٩-٥١ ، الشابي ١٦٣-١٦٥ .

نحن مثل الربيع نمشي على أر ض من الزهر والرؤى والخيال؛
فوقها يرقص الغرام ويلهو ويفني في نشوة ودلال .

نحن نحيا في جنة من جنان السـ حر في عالم بعيدٍ بعيدٍ .
نحن في عيشنا المورّد نتلو سور الحب للشباب السعيد .

قد تركنا الوجود للناس فلية ضوا عليه الحياة كيف ارادوا
وذهبننا بلبه وهو روح ، وتركنا القشور وهي جمادُ .

قد سكرنا بحبنا واكتفينا ؛ طفع الكأس فاذهبوا ، ياسقاةُ .
نحن نحيا فلا نريدُ مزيداً ؛ حسبنا ما مَنَحْتِنَا ، يا حياة .

حسبنا زهونا الذي ينتهي ، حسبنا كأسنا التي نتوشفُ .
ان في ثغرننا رحيقاً سماوياً وفي قلبنا ربيعاً مفوّف .

ايها الدهرُ ، ايها الزمن الجا ري الى غير وجهة وقرارِ ،
ايها الكونُ ، ايها القَدَكُ الدو وار بالفجر والدجى والنهار ،

ايها الموتُ ، ايها القَدَرُ الاعـ حى ، قفوا حيث انتمُ اوفسيروا ؛
ودعونا هنا تغني لنا الاح لام والحب والوجود الكبيرُ .

وإذا ما أبيتُمُ فاحملونا وهيبُ الغرام في شفتينا ؛
وزهور الحياة تعبق بالعط ر وبالسحر والصبا في يدينا .

وبعد هذا التفاؤل القليل يعود الشابي الى تشاؤمه الأول ثم يُغزِقُ فيه حتى انه كَيْتَمَتْنِي
ان لو لم يكن قد وجد على هذه الأرض مكبلاً بالقيود حيث لا شيء إلا الشقاء السرمدى .
وأما إذا كان فيها مسرات فانها تغنى وشيكاً حتى يحل مكانها عذاب مقيم^١ :

يا ضمير الحياة ، إني وحييد مدليج^٢ تائه فأين شروءك ؟

(١) فهمي ٥٢ - ٥٣ ، الشابي ١٩٣ - ١٩٤ .
(٢) مدليج : سائر في الليل « يصر عليه الاهتداء في مسيره » .

يا صميم الحياة ، ذني فؤادٌ
يا صميم الحياة ، قد وجَمَ النا
يا صميم الحياة ، ابن اغانيه
ضائع ظالمي . فأين رحمةك ؟
يُ وغام الفضا فأين بروقك ؟
ك؟ فتحت النجوم يُصغي مشوقك .

*

كنت في فجري الموشح بالاح
حالمًا ينهل الضياء ويُصغي
لام عطراً يرفُ فوق ورودك
لك في نشوة بوحي نشيدك .

*

ثم جاء الدجى ، وأمستُ اورا
وضباباً من الشذا يتلاشى
فأبداداً^١ من ذابلات الورود ،
بين هول الدجى وصمت الوجود

*

كنتُ في فجرك المغلف بالسه
وسجايًا من الرؤى يتهادى
رضياءً يعانق العالم الرحا
وانقضى الفجر فانحدرت من الأذ
ر فضاء من النشيد الهادي ،
في ضمير الآزال والآباد ،
ب ويسري في كل خافٍ وباد .
ق تراباً الى صميم الوادي .

*

يا صميم الحياة ، كم انا في الذر
بين قوم لا يفقهون اناشيد
في وجود مكبلٍ بقيود
فاحتضني وضممني لك بالما
يا غريب اشقى بغربة نفسي ،
د فؤادي ولا معاني بوّسي ؛
تائه في ظلام شك ونحس .
ضي فهذا الوجودُ علة ياسي .

*

لم اجدُ في الوجود إلا شقاءً
وروداً تموت في قبضة الاث
سرمدياً ولذة مضمحلة^٢ ،
واك ؛ ما هذه الحياة الممله !

*

(١) بداد : متفرقة منثورة .

(٢) في فهمي ص ٥٣ ، والشابي ص ١٩٤ ضم هذا البيت الى الثلاثة التي تليه في مقطع واحد ثم جعل البيت الثاني رابعاً . ولعل الترتيب الذي افترحه اصوب .

وأماني يُغرق الدمع احلا ها ويُغني يمُّ الزمان صداها
واناشيدَ يأكل اللهب الدا مي مَسْرَاتها ويُبقي أساها

*

سَأْمٌ هذه الحياة مُعادٌ وصباحٌ يَبْكُرُ في إثرِ ليلِ .
ليتني لم أفيدُ الى هذه الدن يا ولم تسبح الكواكب حولي .
ليتني لم يعانقِ الفجرُ احلا مي ولم يائمِ الضياء جفوني .
ليتني لم أزلْ كما كنتُ ضوئاً شائعاً في الوجود غيرَ سجين !

وصمد الشابي للحياة ومصائبها فابتسم للعواصف وألقى عطره على الأحزان وغنى
بمجد الحياة نفسها وتغنى بالربيع وبالصبح ، ولكنه سيموت أخيراً فما فائدة ذلك كله ١ .

في جبال الهموم أنبتت أغصا في فرفت على الصخور بجُهدِي ٢ .
وتغشاني الضبابُ فأورق ت وازهرت للعواصف وحدي .
وتمايلت في الظلام وعطرتُ ت فضاء الاسى بانفاس وردي .
ويعجد الحياة والشوق غنيد ت فلم تفهم الاعاصيرُ قصدي .
ورمت ٣ للوهاد أفناني الحُض ر وظلت في الثلج تحفر لحدي ؟
ومضت ٤ بالشذا فقلت لنفسي : ستغشي الرياح بالعطر مجدي !
وتغزلت بالربيع وبالفتح ر ؛ وجاء الردي فاتم ٥ بعدي ؟

ويعجب الشابي حين يُولي الدنيا كلَّ هذه العناية وهذا الاهتمام بينما هي سخافة .

والناس مثل دنياهم ٦ .

لو كانت الايام في قبضتي أذريتها للريح مثلَ الرمالِ .
وقلت : يا ربيعُ بها فأذهبي وبدديها في سحيق الجبالِ ،
بل في فجاج الموت ، في عالم لا يرقص النورُ به والظلالِ .

*

(١) الشابي ١٧٤ .

(٢) في الاصل : بجهد .

(٣ و٤) الضمير في « رمت » و « مضت » يعود على الاعاصير .

(٥) كذا في الاصل : تم (يقصد : ما حدث بعدي) . ويمكن ان تكون : ثم فيكون المعنى حينئذ :

اذا فلت الاعاصير كل هذا ، فما يبقى في الحياة بعدي ؟

(٦) الشابي ١٧٥ .

لو كان هذا الكون في قبضي القَيْئَةِ في النار نار الجحيم .
 ما هذه الدنيا وهذا الوري وذلك الاق وتلك النجوم ؟
 النارُ أولى بعبيد الاسى ومسرح الموت وُعثُ المهوم .

*

يا ايها الماضي الذي قد قضى وضمه الموت وليل والابد ،
 يا حاضر الناس الذي لم يزل ، يا ايها الآتي الذي لم يلد ،
 سخافة دنياكم هذه تائهة في ظلمة لا تُنجد .

هذه الحياة التي هي سخافة تجعل منا جميعنا أضحوكة ، ذلك لأن كل واحد منا يمثل على مسرح الحياة يمثل دوره وهو يسخر من الناس ، بينما الناس انفسهم في الوقت نفسه يسخرون منه ٢ .

ضحكنا على الماضي البعيد ، وفي غدٍ ستجعلنا الايام اضحوكة الآتي .
 وتلك هي الدنيا : رواية ساخرٍ عظيم غريب الفن مبدع آيات .
 يمثلها الاحياء ، في مسرح الاسى ووسط ضباب المم ، تمثيل اموات ،
 ليشهد من خلف الضباب فصولها ويضحك منها من يمثل من يأتي ٣ .
 وكلُّ يؤدِّي دوره وهو ضاحك على الناس مضحك على دوره العاتي ٤

والناس لا يريدون المثل الأعلى إلا خيالاً مجرداً من المادة منقطعاً عن اسباب الحياة .
 فاذا هم رأوا ذلك المثل الأعلى يتحقق في شخص انكروه ثم اهانوا ذلك الشخص وسموه صنماً .
 إن البشر لا ينصف بعضهم بعضاً لأنهم يسيرون بأهوائهم لا بعقولهم . فاذا كان فيهم رجل فذ عبقرى اهملوه ، فاذا مات ندموا على ان لم يكونوا قد وقوه حقه من قبل ،
 ثم مجدوا جثته وقبره ٥ .

(١) يقصد : لم يولد .

(٢) الشابي ١٩٥ .

(٣) ويضحك منها من يمثل من يأتي (?)

(٤) العاتي : المتكبر ولكن ما معناها هنا ؟ مضحك ، الاصح : مضحوكاً .

(٥) الشابي ١٩٦ .

ما قدّس المثل الأعلى وجبّدهُ
 في أعين الناس إلا انه حلّمهُ .
 ولو مشى فيهم حياً لخطّمه
 قوم وقالوا بجُبُث : انه صنم .
 لا يعبد الناس إلا كل منعدم
 مُتَنَعِّعٍ ؛ ولن حاياهم العدم ١ .
 حتى العباقرةُ الافذاذ حِيّهمُ
 يلقى الشقاء ؛ وتلقى مجدّها الرّمم ٢
 الناس لا ينصفون الحيّ بينهم ،
 حتى اذا ما توارى عنهم ندموا .
 الويل للناس من اهوائهم ؛ أبدأ
 يمشي الزمان وروح الشرّ تحتدم .

ويجرّدُ الشابيُّ من المثل الأعلى صورة روحية ربما نظرنا إليها على انها المرأة « المثل الأعلى في النساء » او على انها روحه هو وعبقريته . ويخاطب الشابي هذه الصورة الروحية ثم ينعي على الناس سلوكهم ، فهم خَلقُ مفسدون غير رشيدين وهم كالقروود لا يدركون جمال الغناء ولا جمال الورود . اما « هي » فانها لم تخلق ليقرب الناس منها (ويفهموها) بل ليعبدها (من غير ان يدركوا كُنْهها) ٣ .

انت كالزهرة الجميلة في الفا
 ب ولكن ما بين شوّك ودود .
 والرياحين تحسب الحسك الشرير
 رَ والدودَ من صنوف الورود .
 فأفهمي الناس ؛ إنما الناس خَلَقُوا
 مفسد في الوجود غير رشيد .
 والسعيد السعيد من عاش كالإله
 ل غريباً في اهل هذا الوجود .
 ودعيهم يَحْيَوْنَ في ظلمة الاثر
 م وعيشي في طُهرِك المحمود ،
 كالملاك البريء ، كالوردة البيضاء
 ، ، كالوج في الحُضَم البعيد ؛
 كأغاني الطيور ، كالشفق السا
 حر ، كالكوكب البعيد السعيد ؛
 كنولوج الجبال يغمُرُها النو
 رُ وتسمو على غُبار الصعيد .

*

انت تحت السماء روح جميلٌ صاغه الله من عبير الورود ؛
 وبنو الارض كالقروود ، وما اض يعطّر الورود بين القروود !

(١) ولن حاياهم (عايشهم ؛ عاش معهم) العدم (الاغفال والاهمال والانتكار) .
 (٢) حيمم يلقى الشقاء : العبقرى منهم يشقى ما دام حياً . وتلقى مجدّها الرّمم : يمجّد الناس رفات العبقرى

بعد موته .

(٣) الشابي ٢٠٢ .

انت من ريشة الاله فلا تُلدُ .
قي بفن السما لجهل العبيد .
انت لم تخلقي ليقربك الناس ولكن لتعبيدي من بعيد !

ويظل الشابي حائراً في الحياة لا يستطيع فهمها ، فيفضل ان يموت وان يحفر قبره
بنفسه . بعدئذ يقول لقد جربنا الحياة كلها : حلوها ومرها ، صعبها وسهلها ، فلم نجد لها
قيمة . ثم بطلت فتنة الحياة ايضاً ، فماذا علينا - بعد ان جربنا الحياة - ان نجرب الموت ؟

نحن نمشي وحوّلنا هذه الاكوار
نحن نشدو مع العاصفير للشه
نحن نتلو رواية الكون للمو
هكذا قلت للرياح فقالت :
لكن نمشي ؛ لكن لأية غاية ؟
س ، وهذا الربيع ينفخ نايه ؛
ت ، ولكن ماذا ختام الروايه ؟
سل ضمير الوجود كيف البدايه !

*

وتعشّى الضبابُ نفسي فصاحت
قلت سيرني مع الحياة ؛ فقالت :
فتهافتُ كالشمس على الارض
هايته علكني أخط ضريحي
في ملالٍ مر : إلى اين امشي ؟
ما جنينا - ترى - من السير امس ؟
ض وناديت : اين يا قلب رفشي ؟
في سكون الدجى وادفن نفسي !

*

هازيه فالظلام حولي رهيب
وكؤوس الغرام أترعها الفج
والشباب الغرير ولسى الى الما
هازيه ، يا فؤادُ ، إننا غريباً
وضباب الاسى مُنيخ عليا ؛
ر ولكن تحطمت في يدينا .
ضي وخلصى النجيب في شفتيا .
ن نضوغ الحياة فناً شجيا .

*

قد رقصنا مع الحياة طويلاً
وعَدَدُونَا على الليالي حفاةً
وأكلنا التراب حتى مَلَلْنَا ،
وشَدَدُونَا مع الشباب سنينا ؛
في شعاب الزمان حتى دَمِينَا ؛
وشربنا الدموع حتى رَوِينَا ؛

(١) فهمي ٦٠ - ٦٢ ، الشابي ١٩١ - ١٩٢ .

ونثرنا الاحلام والحب والآلام والحزن يسرةً وبينا .

*

ثم ماذا؟ هذا انصرت في الدنيا يا بعيداً عن لهوها وغناها .
في ظلام الفناء أدفن أيتها مي ولا استطيع حتى بكها .

*

وزهور الحياة تهوي بصمتٍ محزنٍ مُضجرٍ على قَدَمَيَا .
جف سحرُ الحياة ، يا قلبي الباكِي ، فهيا مُجَرَّبُ الموت هيا !

وأخيراً يزفر الشابي زفرةً شديدة في وجه الدهر والناس في قصيدة موسومة باسم نشيد الجبار او هكذا غني بروميشوس^١ . وبروميشوس اله النار وموجد الحضارة الانسانية . وبعد ان صنع بروميشوس صورة الانسان من طين الارض سرق النار المقدسة من السماء حتى احيا بها صورة الانسان . وأراد زفس (او جوبيتر) ، كبير الآلهة عند اليونان، ان يعاقبه فأرسل اليه باندورا^٢ - وهي المرأة الاولى في الأرض - وكانت قد جاءت معها من عند زفس الى زوجها أيميشوس بعلبة فيها جميع الشرور . فلما وصلت العلبة الى ايميشوس فتحها فانتشرت منها الشرور كلها ولم يبق في قعر العلبة المشؤومة إلا «الأمل» . على ان تيناينوس - والد بروميشوس - افسد المكيدة وحال دون وصول باندورا الى ولده . واخيراً امر زفس بارساله مقيداً الى جبال القوقاس حيث انقض عليه نسر والتهم كبده . ولكن هر كيوليس قتل النسر وأنقذ بروميشوس .

هذه القصيدة هي ثورة على الآلام في وجه الموت ، وتهكم على اعدائه الشامتين بمصارع العباقر في الأرض . يقول الشابي لهؤلاء الشامتين انه سيظل حياً على الرغم من ان الداء ينخر فيه ، وانه سيظل يمرح ويغني ويؤدي رسالته على الرغم من انه يدنو من الموت .
رويداً رويداً .

(١) فهمي ٦٩ ، الشابي ٤٨ ، ٢١١ .

(٢) باندورا في الحرافات اليونانية تقابل حواء في الكتب المقدسة .

على ان هذا التجلد للمصائب وهذا التماسك امام عيون الشامتين يدلان على ان الشاعر
 فقد عنصر الأمل فأخذ يغطي بأسه بالتجلد والتماسك . انه كالسراج الذي يشع نوراً قوياً
 وضاءً قبل ان ينطفئ الى الأبد . وهكذا استجمع الشابي كل ما في نفسه من قوة الارادة
 ليقول لأعدائه للمرة الأخيرة انه لا يهاب الموت الذي يدنو منه بخطى ثابتة سريعة . ان
 الموت - كما يذكر الشابي في هذه القصيدة - سيتناول جثته ويمثل بها . اما روحه فستنفلت
 من هذه الجثة الى حيث « الشمس والشفق الجميل » ، الى حيث خلود النفوس العبقريّة .
 ان الأعداء الشامتين سيتنقمون برجم ظله ، اما « هو » فلن يمسه بسوء . بمثل هذه الروح
 تجيش في صدر الشاعر العظيم المؤمن بخلوده ينشدنا الشابي :

سأعيش رغمَ الداءِ والاعداءِ	كالنسر فوق القِمّةِ السماءِ .
أدنو الى الشمس المضيئة هازئاً	بالسحب والامطار والانواء .
لا ألمح الظلَّ الكئيبَ ولا ارى	ما في قرار الهوة السوداء .
وأسير في دنيا الشاعر حالمأ	عَرِدأ ، وتلك طبيعة الشعراء .
اشدو بموسيقى الحياة ووحبها	وأذيبُ روح الكون في إنشائي .
وأصيح للصوت الالهيّ الذي	يحني بقلبي ميّت الاصداء .
وأقول للقدر الذي لا ينثني	عن حرب آمالي بكلّ بلاء :
« لا يطفىء اللهبَ الموججَ في دمي	موجُ الاسى وعواصف الارزاء .
فأصدّمُ فؤادي ما استطعت فانه	سيكون مثل الصخرة السماء :
لا يعرفُ الشكوى الذليلةَ والبكا	وضراعة الاطفال والضعفاء ،
ويعيش كالجبّار ينو دائماً	للفجر ، للفجر الجميل النائي .
وأملأُ طريقي بالخاوف والدجى	وزوابع الاشواك والحصباء ،
وانشرُ عليه الرعب وانثر فوقه	رُجُمَ الردى وصواعق اليأساء .

(١) فهمي ٦٩ - ٧٠ ، الشابي ٢١١ - ٢١٣ . والقصيدة في « فهمي » مخارات فقط ، وهي أتم في

« الشابي » .

سأظل امشي رغم ذلك عازفاً
 امشي بروح حالمٍ مُتَوَهِّجٍ
 النور في قلبي وبين جوانحي ،
 إني انا الناي الذي لا تنتهي
 وانا الحِضَمُّ الرطب ليس تزيد
 قيثارتي مترغماً بغنائتي ،
 في ظلمة الآلام والادواء .
 فعلام أخشى السير في الظلماء ؟
 انغامه ما دام في الاحياء ؛
 إلا حياةً سطوةً الانواء .

*

اما إذا خمدت حياتي وانقضى
 وخبأهيب الكون في قلبي الذي
 فأنا السعيد بأني مُتَحَوِّلٌ
 لأذوب في فجر الجمال السرمديّ
 وأقول للجمع الذين تجشوا
 ورأوا على الاشواك ظلي هامداً
 وغدوا يُشِيبُونَ الهيب بكل ما
 ومضوا يبدئون الحوان لباكلوا
 عمري وأخرست المنية نائي ١
 قد عاش مثل الشعلة الحمراء
 عن عالم الآثام والبغضاء
 وارتوي من منهل الاضواء
 هدمي وودّوا لو يجرّ بنائي
 فتوهموا اني قضيتُ ذمائي ٢
 وجدوا ليشووا فوقه أشلائي
 لمحي ويرتشفوا عليه دمائي ؛

*

إني اقول لهم بصوت حالم ،
 « إن المعاول لا تهدُّ مناكبي ،
 حتى ولو امسيتُ جسماً ميّناً
 فارموا الى النار الحشائش والعبواء ،
 وإذا تمردت العواصف وانتشى
 ورأيتموني طائراً مترغماً
 فارموا على ظلي الحجارة واختفوا
 وعلى شفاهي بسمه استهزاء ،
 والنار لا تأتي على اعضائي .
 ملقياً لعصف الزعزع النكباء ٣
 يا معشر الاطفال ، تحت سمائي .
 بالهول قلب القبة الزرقاء ،
 فوق العواصف في الفضاء النائي ،
 خوف الرياح الموج والانواء .

(١) في الطبعة الاولى (ص ٢١٢) والثانية (ص ٢٣٠) : نائي ، وهي ناي (زمزاري) .

(٢) الذماء : بقية الروح في الجسد (يقصد : مت) .

(٣) الزعزع : الريح الشديدة التي تزعزع كل شيء . النكباء : التي تهب من كل مكان اي تدور وهي تهب .

وهناك في أمن البيوت تبادلوا
وترغوا ما شئتمُ بشتائي ،
أما أنا فأجيبكم من فوقكم ،
من جاش بالوحي المقدس قلبه
غثّ الحديث وميت الآراء ،
وتجاهروا ما شئتمُ بعِدائي .
والشمس والافق الجميل إزائي :
لم يحتفل بحجارة الفلتاء^١ .



(١) في القاموس : التَلَوْتُ هو الشيء القصير الذي لا ينضم طرفاه من قصره .

ادبائه المهجر ٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ،
 اده - اميل ١٣٨
 اسحق ١٤٩ ح
 اسماعيل ١٤٩ ح
 الاسماعيليون (العرب) ١٤٩ ح
 اشعب ٢٤ ، ٧٣ م
 الاشوريون = التاريون
 اصحاب الرسائل والمقامات ٧٨
 الاصفهاني - ابو الفرج ٧٣
 اقبال - عباس ٢٨
 ام احمد = عسقلان - فوزية
 ام جعفر = طوقان - سامية
 ام أوفى ١٣٠ ، ١٣٠ ح م
 امرؤ القيس ١٣١ ، ١٣١ ح
 الامويون = بنو امية
 الامير = شوقي
 الامين (اسم مستعار) ٥٥
 امين = الحسيني - الحاج امين
 انطونيو ١٥٠ ح م
 الانكشارية ١٤ ، ١٤ ح
 الإنكليز ٣٤ ، ٣٤ ح ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٠ ح ، ١١١ ، ١١٢ م ، ١١٦ ،
 ١١٦ ح

اول الخلفاء الراشدين = ابو بكر

ب ت ث

البارودي - محمود ساهي باشا ٧
 البارودي - نديم ٣٠ م
 البارودي - الدكتور وجيه ٣٠ ، ٣٢ ،
 ١٠٠ م ، ١٠٠ ح ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح م
 باسانو ١٥٠ ح م
 باندورا ٢٤٩ م ، ٢٤٩ ح
 البجالي - اسكندر الخوري ٧٣
 البحري ٧
 البحري - رأفت ٣٢
 بجنازي - جبران ٢٨

بديع الزمان الهمذاني ٧٨

البربير - عبدالرحمن ٣٦ م ، ٣٧

بروتوس ٤٩

برومينيوس ٢٤٩ م

بشار بن برد ٧١ ، ٢١٨

بكر ٥٣

بليس ٩٩ م

بنتويش - نورمان ١١٩

بنو اسد ١٣١ ، ١٣١ ح

بنو امية ١٣٢ ح

بنو العباس ١٣٢ ح

بنو هاشم = آل هاشم

بها - بها - بهية ١٠٠ م

بورشيا ١٥٠ ح

بيرون ٧

تغلب ٥٣

تقي الدين سعيد ١٢٧

التتير - احد ١٢٧

التاريون ١٣٥ ح م ، ١٣٦ ، ١٣٦ ح م

تين - أليس ٣١ ح .

تين لبلي ٣١ ح ، ١٠٣ م

تينانيوس ٢٤٩

ج - ح - خ

جبران - جبران خليل ١٦٥ ، ١٧٠ م ،

١٧٠ ح

جبريل ١٣٧

جور - جبرائيل ٢٨

الجرار - بنو = آل الجرار

جرير ٢١٨

الجزيري - حسين ١٨١

ججوم - محمد ١١٧ ، ١١٨ - ١١٩

جبل - حافظ ٣٠ ، ٣٢ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح م

الجندي - انور ٦٩

جوييتير ٢٤٩

جورج الخامس ١٣٥ ح

جورج - لويد ١٣٢

ذ ر ز

- حافظ ابراهيم ٧
حباية ٤٣ ، ٤٣ ح
حبوب - سنة ٨٣ ، ٨٣ ح
حجازي - فؤاد ١١٨ م
حجر (والد امرىء القيس) ١٣١ م
الحسن بن هاني = ابو نواس
حسين باي ١٥٣
الحسين بن علي بن ابي طالب ١٣٢ ح
الحسين (شريف مكة) ١٢٩ ، ١٢٩ ح
١٣٢ - ١٣٢ ، ١٣٤ ح
الحسيني - الحاج امين ٥٥ ، ١٠٩ ، ١١١ م
١١١ م ح ١٢٩ - ١٣٠
الحسيني - رجائي ٣٦ م ، ٣٧
الحسيني - موسى كاظم باشا ٧٩ م ، ١٠٩ ،
١٢٩ - ١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٣٩ - ١٤٠
الحكيم - توفيق ٧٣ م
حكيم ، حكيمان - هنريت ٨٣
حلمي = فروخ - آمنة حلبي
حوا - حسن ٣٢
حوا ٩٦ ، ٢٤٩ ح
الحياريون ١٣
الحالدي - احمد سامح ٤٥ - ٤٧
الحالدي - حسين ٤٥ ، ٤٦
الحالدي - نظيف ٤٥
الخطيب - فؤاد باشا ١٣١ ، ١٣١ ح
الخطيب - كنعان ٣٦ - ٣٧
الخماس - الشيخ ابراهيم ابو الهدى ١٨ م
الخورى - بشارة عبدالله (الاخطل الصغير)
١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ - ١٢٦
الخورى - رشيد سليم ١٧٠ ، ١٧٠ ح
خوري - وداد (قرطاس) ٣٢
خياط - الدكتور جورج ٢١ ، ٢٤ ، ٩٨ ،
٩٨ ح
الحيام - عمر ١٦٥
- دروزة - غزة ١١٠
دموس - حلبي ١٢٣ م
ده موسىه - الفرد ١٦٧
ديك الجن الحمصي ٣٠
راغب = النشاشيبي - راغب
رجب - مصطفى ١٦٧ م ، ١٦٨
رستم - الدكتور اسد ٢٨
رسول الله ٧٣ م ، ٧٤ ح ، ١٠٩ ، ١٣٥ م
رشدي - فاطمة ٨٢
الرفاعي - عبدالنعم ١٠٤ ، ١٠٤ ح
روبين (النبي) ١١١
روزفك - فرانكلين ٨٠ ح م
رؤوين (شاعر يهودي معاصر) ٧٦ ، راجع
١٤٩ - ١٥٠
الريحاني - امين ٣٣ ، ٣٣ ح
زريق - جلال ٦٣
زريق - نخلة ١٨
زفس ٢٤٩
الزختمري ٧٢
زهير بن ابي سلمي ١٣١ - ١٣٢
الزير - عطا ١١٨ م

س ش

- ساره ١٤٩ ح م
سبط بن التماويدي ٧
سكينة بنت الحسين ٧٣
سقتنغ ١٨٧ ، ١٨٧ ح ، ٢٠٤ ، ٢٠٤ ح
سلام = آل سلام
سلام ٤٣ ح
سليم الاول العثماني ١٥٢
سليمان بن داوود ٩٩
السنوسي - زين العابدين ١٦١ م ، ١٦٢ ،
١٦٥
سيويه ١٤٧ ، ١٤٧ ح

سيد المرسلين = رسول الله

سيف الدولة ٦٤ ح

الثاني ٥ - ٨ ، ١٥١ ، ٢٥٢ ، ١٥٥ -

٢٥٢

الشاعر القروي = الحوري - رشيد سايم

شبقلو - محمد ٣٦ ، ٣٧ م

شرارة - حسين ١٨٦ - ١٨٧

شمراء بني العباس ٥٩ ، ٣٦ ، ١٣٠ ، ١٦٧ م

الشمراء الروماتيكيون ١٦٧

الشمراء الجاهليون ١٦٧

شكبير ١٥٠ م ، ١٥٠ ح

شمون = مار شمون

شهاب الدين ابو شامة = ابو شامة الدمشقي

الشكمة = آل الشكمة

شوقي - احمد ٧ ، ٣٣ ، ٦١ ح ، ٧٤ - ٧٥ ،

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٦ ح

شيلوخ ١٥٠ ، ١٥٠ ح م

شيلي ٧

ص ض ط

صبرا - ودبيع ١٢٤ .

صريع الفواني (مسلم بن الوليد) ٣٠ ، ٥٩

صلاح الدين ٧٤ م ، ١١١

الصليبيون ١١١

الصوفا - حسني ٢٨

ضومط - جبر ١٣٨ م ، ١٣٨ ح

طارق بن زياد ١٢٤ ، ١٢٤ ح

الطبري ٧٢

طوق = آل طوق

طوقان = آل طوقان

طوقان - ابراهيم ٥ - ٨ ، ١٣ ، ١٥٠

(طوقان) - ابراهيم آغا الشريجي ١٤

طوقان - احمد ٥ ، ١٥ ، ١٦ م ، ١٨ م ،

٢٠ ، ٢٠ ح ، ٣٥ ، ٣٥ ح ، ٣٦ ، ٤٤ م ،

٤٥ م ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٠ م ،

٩٠ ح ، ٩٦ ، ٩٦ ح ، ١٠٨ ح ، ١٠٩ ح ، ١٣٠ ،

١٤٩ .

طوقان - ادبية ١٥

طوقان - بندر ١٥ ، ١٥ ح

طوقان - جمفر ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ .

طوقان - حافظ ١٣٩

طوقان - حنان ١٥ ، ١٥ ح

طوقان - داوود آغا ١٨

طوقان - رحمي ١٥ ، ١٦ - ١٧ ، ٥٧ م ،

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠

طوقان - سليمان بك ٤٨ ح

طوقان - عبدالفتاح آغا ١٤ ، ١٥ ، ١٥ ح ،

١٦ م ، ١٦ ح م ، ٣٥ م ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ،

٥٤ ، ٥٣ .

طوقان - عرب ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠

طوقان - فدوي ١٥ ، ١٥ ح م ، ١٧ ، ٥٠ ح ،

٧٦ ح ، ١٠٤ ، ١٠٤ ح ، ١٥٠ ح

طوقان - فتايا ١٥

طوقان - قدرتي حافظ ٤٣ ، ٤٣ ح ، ٦٠ ،

٧٦ ، ٧٦ ح ، ٧٩ - ٨٠

طوقان - كريمة ٧٢ م

طوقان - نمر ١٥ ، ١٧

طوقان - يوسف ١٥

ع غ

عائشة (زوج الرسول) ٧٢ - ٧٣

عائشة بنت طلحة ٧٢

العباس بن الاحنف ٧٠ ، ٣٠ ، ٧٢

العباس بن مرداس ٤٩

العباسيون - بنو العباس

عبدالله بن الحسين (ملك الاردن) ١٣٠ - ١٣١

عبدالكريم الخطابي - الامير ١٢٢ - ١٢٣

عبدالهادي = آل عبدالهادي

عبدالهادي - روجي ٥٢ م

عبدالهادي - سامية = طوقان - سامية عبدالهادي .

عبدالهادي - قاسم ٥٢

عبوشي - برهان الدين ١٠٤ ، ١٠٤ ح م ،

فليل - احمد ١٢٥
 فليل - محمد ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
 فهمي - محمد ١٦٠ ، ١٦١ م ، ١٩٣ ،
 ٢٠٤ م ، ٢١٠ ح
 فهمي - منصور ٣٣
 فوز ٩٧ - ٩٧
 فيرنس ٤٩ ، ٤٩ ح
 فيصل الاول ٨١ ، ١٢٩ - ١٣٠ ، ١٣١ -
 ١٣٧
 القاسم - جمال ٤٢ - ٤٣ ، ٦٣ ، ١٣٩
 قاسم - فؤاد ٦٤ ، ٦٤ ح
 قرطاس = الخوري (وداد الخوري المقدسي
 قرطاس)
 قریش ٣٠ ح
 قليات - عبد الرحيم ١١٢
 القوسي - احسان احمد ٨٣ - ٨٤
 القوسي - احمد ٨٤
 القيسية ٥٢

ك ل

كاتول - جبرائيل ٤٥
 كاسيوس ٤٩ ، ٤٩ ح
 الكاطمي - عبدالمحسن ١٤٠ م
 كراين ١٢٣
 كرو - ابوالقاسم ١٦٠ ، ١٦١ - ١٦٢ ،
 ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٠ ح ، ١٨٧ ، ١٩٣
 الكمكبان = نیکل
 كمنصو - جورج ١٣٢
 كنف ١٣٢
 كوراني - حبيب ٣٩ م
 كولريديج ٧
 كينس ٧
 اللبابيدي - يحيى ٥١
 ليفي - ساره ٨٣
 لبي = تين - لبي

١٠٦ - ١٠٧
 المثنانيون = الاتراك المثنانيون
 العرب ٩٤ ح ، ١٠٧ م ، ١١٠ ، ١١٢ م ،
 ١١٤
 عرفات - غالب ١٠٠ م
 عربي (اسم) ٥٣ ، ٥٣ ح
 عقلال = آل عقلال
 عقلال - امين ١٥
 عقلال - فوزية (ام ابراهيم) ١٦ ، ١٧ ،
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
 عشي - رفيق ٦٠ ، ٦٠ ح
 عصي = المشنوق - عبدالله
 علي بن ابي طالب ١٣٦ ، ١٣٦ ح
 علي بن الحسين (الملك) ١٣٠
 عمر = فروخ - عمر
 عمر بن ابي ربيعة ٧١
 عواد - توفيق ١٤٨ ، ١٤٨ ح
 غاندي ٨١ ، ١٣٥ ح م ، ١٣٦ ، ١٣٦ م ،
 ١٣٧

غاندي ، غندي ١٠٩
 غمالين Gmaelin ٢٠ ، ٢٠ ح ، ٢٢
 غندور - الدكتور محمد روح ٥٨
 غورو ١٣٢

ف ق

الفائر - محمد ١٨١
 فروخ - آمنة حلبي ٦٠ م
 فروخ - عمر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٧ ،
 ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٧ م ، ٧٩ -
 ٨٠ ، ٨٩ م ، ١٢٦ ، ١٢٦ ح ، ١٢٩ ، ١٣٩
 فروخ - مصطفى ٩٥ م
 فريجة - انيس ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ح ، ٣٨ ،
 ٣٨ ح
 فريد ١٤٨ ، ١٤٨ م
 فريز - حسني ٦٣

م ن

- النصولي - يحي الدين ٦٦ ، ٦٦ ح
 نجار - حلیم ٢٨ ، ٢٩
 نجم - محمد ٢٧ ، ٢٨
 النزارية ٥٢
 نزهة - أمين ٣٦ ، ٣٧
 النشاشيبي = آل النشاشيبي
 النشاشيبي - راغب ١١١ ، ١١١ ح م
 نعيمة - ميخائيل ١٨٠ م
 النقاش - زكي ٦٠ ، ٦٠ ح
 النكددي - عارف ١٧٠ ح
 نورالدين ٧٤
 نويري - الدكتور محمد خير ٢٤ ، ٢٤ ح ،
 ٢٥ ، ٢٩ ح ، ٦٩ ح
 نيكل (أ.ر.) الاهداء. ٤٠ - ٤٢ ، ٧٦ ، ٧٦ ح
 نيكولي - ادوارد ٣١ ، ٣١ ح
- ه و ي**
- هاجر ٧٦ ، ١٤٩ ، ١٤٩ ح
 هاشم = آل هاشم
 هاشم - ابراهيم باشا ١٣٠
 هاشم - احسان ٤٩ ، ٤٩ ح
 هاشم - الشيخ فهمي ١٨ م
 هر كيوليس ٢٤٩
 هل - عائشة ٧٢
 هل - يوسف ٥٤ ح ، ٧٢ م
 الهمداني = بديع الزمان الهمداني
 الهمشري ٢٠٤ ح
 وايلد - اوسكار ٩٦ ح ، ٩٦ م
 ولادة بنت المستكفي ٩٤ ، ٩٤ م
 الوليد بن عبدالملك ١٢٤ ح
 الوليد بن يزيد ٤٣
 ويلسن - ودرو ١٣٢
 ياسين - عبدالحمد ٨٠ - ٨٢ ، ٩٦ م
 يزيد بن عبدالملك ٤٣ ح
- مار شمون ١٣٥ ح ، ١٣٦ ، ١٣٦ ح م
 ماروي (م.ص) ٣٢ - ٣٣ ، ٨٣ ،
 ٨٤ - ٩٢
 المأمون ٨٣
 المتني ٦٤ ح ، ١٣٨ ح ، ١٤٠ م ، ١٤٠ ح ،
 ١٤٧ - ١٤٩
 المحاسيني - زكي ٦٨ ، ٦٨ ح
 محمد رسول الله = رسول الله
 محمد = ججوم - محمد
 محمود الثاني (العثماني) ١٤
 محمود - عبدالرحيم ١٠٤ ، ١٠٤ ح
 مراد ياي ١٥٣
 مرغريتا (رافضة اسبانية) ٤١ - ٤٢ ،
 ٩٢ - ٩٧
 مريم (اسم موضوع) ٢٥
 المستكفي الاندلسي ٩٤ ح م
 مسلم بن الوليد = صريح القواني
 مشتاق - طالب ٥٦
 المشنوق - عبدالله ٩٨ ، ١٢٥ - ١٢٦
 المشنوق - مسلم ٢٨
 المرعي ١٦٥ ، ٢٤١ ، ٢٤١ ح م
 المنول ١٤
 المقدسي - انيس ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٢ ح ،
 ٣٧ ح ، ٣٩ م ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٤ ح ، ٧١ ،
 ٧٢ ح م ، ٧٣ - ٧٤ ، ١٠٥ ح ، ١٤٧ ،
 ١٤٧ ح ، ١٨٠
 المقدسي - وداد = الخوري - وداد قرطاس
 مكاهون - هفري ١٣١ ح
 ملاط - شبلي ١٢٣ م
 الممالك البرجية ١٤ م
 الموالي ١٣
 موسى ١١١ ، ١١٢
 نابلسي - حسن = هو طوقان - رحمي
 نخلة - رشيد ١٢٣ م ، ١٢٤ ، ١٢٤ م

اليهود ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١١٤
يهوذا بن يعقوب ١٤٩ ، ١٤٩ م
يوسف ١٤٩ ، راجع ١٤٩ م

اليسوعيون ١٣٨
يوليوس قيصر ٤٩
البيانة ٥٢ م



للمؤلف

الثمن بالقروش اللبناني	دواسات اخو	الثمن بالقروش اللبناني	دواسات قصيرة
١٥٠ (الطبعة الثالثة)	ابو نواس : دراسة ونقد	٤٠ (الطبعة الثانية)	١ - الحجاج بن يوسف
٥٠	ابو نواس : مختارات	٧٥ (الطبعة الثانية)	٢ - عمر بن ابي ربيعة
١٠٠	ابو تمام	٤٠ (الطبعة الثانية)	٣ - عبد الله بن المقفع
٢٠٠ (الطبعة الثانية)	حكيم المعرة	١٠٠ (الطبعة الثانية)	٤ - الرسائل والمقامات
٣٠٠ (الطبعة الثانية)	عبقريّة العرب في العلم والفلسفة	٥٠ (الطبعة الثانية)	٥ - ابن الرومي
١٥٠ (الطبعة الثالثة)	الاسلام على مفترق الطرق	٦٠ (الطبعة الثانية)	٦ - احمد شوقي
١٠٠	نحو التعاون العربي	٥٠ (الطبعة الثانية)	٧ - ابن خلدون
(نقد)	دفاعاً عن العلم		٨ - اثر الفلسفة الاسلامية
٥٠	دفاعاً عن الوطن	٧٥ (الطبعة الثانية)	في الفلسفة الاوروبية
٤٠٠	الاسرة في الشرع الاسلامي	١٢٥ (الطبعة الثانية)	٩ - شعراء البلاط الاموي
500 -	Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higma bis Zum Tode Umars, 1-23 d. H. (622-644 n. Ch. Leipzig 1937.		١٠ - الفارابيان : الفارابي وابن سينا
٢٥٠	التبشير والاستعمار	١٠٠ (الطبعة الثانية)	١١ - اربعة ادباء معاصرون
٣٠٠	شاعران معاصران	١٥٠ (الطبعة الثانية)	١٢ - خمسة شعراء جاهليون
	الاسئلة الثلاثة) مشهد شعري تمثيلي	١٢٥ (الطبعة الثانية)	١٣ - بشار بن برد
٢٥	لمدارس الابتدائية)	٥٠ (الطبعة الثانية)	١٤ - نهج البلاغة
١٠٠	الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	١٥٠ (الطبعة الثانية)	١٥ - اخوان الصفا
نفدت	سفينة الحيوانات (مغناة تمثيلية للاطفال)	١٠٠ (الطبعة الثانية)	١٦ - ابن باجه
		١٢٥	١٧ - ابن طفيل
		٢٠٠	١٨ - التصوف في الاسلام
	يمكن الحصول على هذه الدراسات من :	١٥٠	١٩ - الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب
	السيد محمد الطوجة	١٠٠	٢٠ - موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية
	١٥ نهج باب المنارة - تونس	١٥٠	٢١ - ابو فراس

ومن :

Messrs. LUZAC & Co. LTD

46, Great Russell Street,

LONDON, W.C.1.

England